الآن نفتح الصندوق-ا

الآن نفتح الصندوق-١

تأليف :
د.أحمد خالد توفيق

تصميم الغلاف:
أحمد مراد

رقم الإيداع: 2017/9071
الترقيم الدولي: 978-977-820-029-4

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع
٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم
هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772
هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794
بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com
الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الآن نفتح الصندوق-١

د.أحمد خالد توفيق

قبل أن نفتح الصندوق...

«الحياة صندوق من الشيكولاته.. لا تعرف أبدًا ما قد تظفر به».. هذه هي العبارة المحورية الساخرة في فيلم (فورست جامب)، والتي تلخص أهم مخاوف طفولتي.. الصندوق المغلق.. كم هو ساحر!.. كم هو غامض!.. كم هو مخيف!... ماذا ينتظرنا لو فتحنا الصندوق؟.. تتكرر هذه التيمة كثيرًا في قصص ألف ليلة وليلة وفي الأدب عامة.. حتى شكسبير نفسه لم يفلت من سحر الصندوق المغلق في مسرحيته (تاجر البندقية)...

كل شيء قد يوجد في الصندوق المغلق أو لا يوجد.. كنز من الياقوت والعقيق.. أسرار القنبلة الذرية.. جثة متحللة.. يد مومياء.. قلادة (فلاد).. صور مصفرة حال لونها.. وثائق وعقود لم تعد لها قيمة.. صرصور.. عنكبوت.. لا شيء..

لهذا - عندما كتبت هذه المجموعة من القصص القصيرة - اخترت لها صيغة الصندوق المغلق.. لقد توفي الدكتور (محفوظ) أستاذ الأدب الإنجليزي الحكيم واسع التجارب، فلم يترك - كما هي عادة هؤلاء المحترمين في كل مكان وزمان - أي مال لأهله.. فقط ترك مجموعة من الأوراق البالية تحكي خبراته المرعبة مع عالم الميتافيزيقا.. الحكماء واسعو الخيال سوف يجدون ميراثًا مهمًا في الصندوق.. الأشخاص الطبيعيون سوف يتخلصون من هذه الأوراق في أقرب صندوق قمامة وهم يسبون ويلعنون الفقر والغباء معًا.

ماذا يوجد في الصندوق؟.. أردت في البداية ألا يوجد في الصندوق

إلا مجموعة من القصص المثيرة أو المحركة للخيال، لكن وسواس المعلم الذي يغلبني أحيانًا قهرني، وجعلني أفضل أن أقدم مزيجًا من القصة والمقال التثقيفي القصير، وبهذا لا أشعر أنني أضعت وقت القارئ في مجرد خيالات ابتدعتها.. في كل مرة هناك كلام عن ظاهرة غريبة، ثم تأخذ الأحداث مجرى قصة. إن مقاييس القصة القصيرة لا تنطبق بدقة على هذه المجموعة، لكنها نوع خاص من الفن ربما أطلق عليه اسم (مقرواية) أو (حقال) أو أي اسم يجمع بين القصة والمقال معًا...

ماذا نعرف عن عالم ما وراء الطبيعة؟.. لا شيء في الواقع.. كل هذا قد يكون حقيقيًا وكل هذا قد يكون وهمًا من عقول هستيرية.. سنموت دون أن نعرف الإجابة، وتلك هي المأساة الحقيقية.. وقد حرصت في كل هذه القصص على أن تبقى علامة الاستفهام تحوم حولنا في النهاية.. ربما نعم.. ربما لا...

لقد مات د. (محفوظ) دون أن يعرف إلا أنه جابه أشياء غريبة حقًا.. نحن كذلك سنموت دون أن نعرف، ولسوف تشعر بهذا الشعور مضخمًا قبل الأوان بعد قراءة هذه المجموعة من الأوراق.. عندها سوف تغلق عينيك وتجيب عن السؤال المهم: هل استمتعت بالقراءة؟.. هل حركت هذه القصص خيالك؟.. هل أخذتك من يدك إلى دهاليز مظلمة لم تجتزها من قبل؟....

لو كانت الإجابة (نعم) فأنا قد نجحت، وهذا هو ما يهم في الوقت الحالي...

الآن تعالوا نشعل شمعة تبدد ظلام القبو..

تعالوا نفتح الصندوق معًا...

أسرة لطيـفة

الورقة الثانية التي خرجت من الصندوق تقول:

لأسباب يطول شرحها انعقدت صداقة بيني وبين آل (هالبروك)...

أنتـم تعرفـون أنـني أدرس الأدب الإنجلـيزي، وكان المسـتر (إدوارد هالـبروك) رب الأسرة يعمـل مـع إحـدى الجامعـات الخاصـة المصريـة للغـرض ذاتـه.. أي أننـا التقينـا لنفـس الأسـباب الـتي يلتقـي لهـا النجـارون والسـباكون وفنيـو التبريـد في كل مـكان : المهنـة الواحـدة..

إذن يمكننـا أن نـدرك أن إقامتهـم كانـت دائمـة في مـصر، وكان لهـم بيـت لطيـف في (المعـادي) زرتـه مـرة أو مرتـين مـن قبل..زوجتـه تدعـى (مارثـا) وهـي امـرأة في الثلاثـين مهذبـة بشـوش، ولهـم ابـن في العـاشرة مـن العمـر لـه مزايـا وعيـوب أي صـبي إنجلـيزي آخـر..

أسرة لطيفة هي.. لكن لماذا أرتجف أحياناً حينما أتعامل معهم؟

***

تلقيـت دعـوة العشـاء في يـوم عيـد ميـلادي بالضبـط.. أعـني أنـني تلقيتهـا عشـية عيـد ميـلادي لأنـني مـن مواليـد الأول مـن نوفمـبر.. ولمـا كنـت لـم أنجـب وزوجـتي مسـافرة لزيـارة والدتهـا المريضـة، فقـد خطـر لي أنـه مـن اللطيـف أن ألـبي هـذه الدعـوة.. مـن الجميـل أن تجد مـن حولـك بـشراً في اليـوم الـذي ولـدت فيه..أمـا أن تجلـس وحيـداً في الـدار تشـاهد التلفزيـون، فقـد بـدا لي هـذا آخـر شيء ممكـن..

أقـف أمـام مدخـل البيـت في التاسـعة مسـاءً، حيـث تلـك الحديقـة المهندمـة الـتي تفـوح منهـا روائـح نباتـات غريبـة.. إنـه الخريـف بـكل ما

يحمله من شجن.. ليل الخريف الذي يحمل رائحة ما لا أعرف ما هي، لكنها كانت تثير الرعب في نفسي أيام المدرسة.. مع الخريف تنتهي سلطة النهار الطويل لتبدأ سلطة الليل.. تنتهي سلطة اللهو لتبدأ سلطة المدرسة..دعك من رائحة الجوافة التي تنبعث من كل شيء!.. لكم أمقتها!

قلت للمستر (هالبروك) وهو يفتح لي الباب:

ـ «تصور أن عيد ميلادي غداً؟».

ـ «أعرف.. ليس غداً بل بعد ثلاث ساعات!».

ويتنحي لي لأدخل، وأنا أتساءل عن المناسبة التي ذكرت له عيد ميلادي فيها.. متى؟.. بصراحة لا أذكر.. لكني بالتأكيد أخبرته لأني لست من المشاهير ولا أعتقد أن تاريخ ميلادي مذكور في دوائر المعارف..

أمشي وسط الحديقة...

على باب الدار أرى تلك القرعة التي تم إحداث تجويف في موضع العينين والفم فيها، مع إشعال شمعة داخلها.. هذا المنظر المألوف..(جاك في المصباح) كما يطلقون عليها.. لها مشهد موجس شيطاني كأنها عفريت يكشر عن أنيابه، مع تلك الضحكة الوقحة الشريرة الشبيهة بضحكات الجماجم..

نظرت له ضاحكاً فقال:

ـ «لا تنس أن هذه الليلة بالذات هي (الهالوين)..إننا في الحادي والثلاثين من أكتوبر».

نسيت هذا طبعاً.. إن احتفالات الهالوين لا تمثل أي جزء من تراثنا طبعاً... لكنهم يحتفلون بها، ومن عاداتهم أن يضعوا القرع العسلي – اليقطين – على أبواب البيوت..

قال لي ضاحكاً:

ـ «كنا معشر الأوروبيين نستعمل اللفت قديماً، لكن بعضنا نزح إلى الولايات المتحدة حيث لم يجد لفتاً ذا حجم مناسب.. لهذا اضطروا لاستعمال اليقطين.. إن هذه العادة إحياء لقصة قديمة عن شاب يدعى (جاك) منحه الشيطان مصباحاً في ثمرة لفت مفرغة..».

هززت رأسي موافقاً...على الأقل أنا أعرف عادات الغربيين في هذا الصدد...الأطفال يجولون حول البيت لابسين أقنعة مرعبة ويطرقون بابك قائلين: حلوى أم حيلة؟... بمعنى أن عليك أن تعطيهم كيساً مليئاً بالحلوى وإلا أزعجوك، وأطاروا النوم من عينك....

على الباب رحبت بي الزوجة مسز (هالبروك)، وكانت متأنقة بحق.. واقتادتني إلى داخل الشقة المريحة..

أسرة لطيفة هي.. لكن لماذا لا أشعر براحة وأنا بينهم؟

***

العاشرة مساء..

لقد انتهى العشاء أو كاد ونحن نثرثر.. كانوا قد قضوا في مصر عاماً أو أقل ورأيهم هو الرأي المعتاد: الناس ودودون ظرفاء.. الطقس جميل.. لكنكم تضيعون الكثير من الوقت..

تعود الزوجة من المطبخ حاملة صحفة عليها بعض حلوى التفاح والبندق.. وتقول ضاحكة:

ـ «طقوس الهالويين تقضي بالتهام البندق وحلوى التفاح..إنها اللمسات التي أضافها الرومان إلى هذا العيد».

ضحكت بدوري وملأت كفي بالبندق، وبحثت عن كسارة في مكان ما.. هنا رأيت للمرة الأولى ذلك الوجه المطل علي حيث علق على الجدار.. إنه قناع أثري غريب الشكل..

رأى الزوج نظراتي فقال مفسراً:

ـ «إنه يدعى (ساوين)... أحد أصنام قبائل الكلت..إله الشمس عندهم إذا شئت الدقة.. أنت تعرف أننا قادمون من (ويلز)، وقد كان (ساوين) يُعبد هناك.. هذا القناع أصلي وأراه جميلاً..».

هززت رأسي في سخرية فقال:

ـ «ما زلت متصلب الرأي.. ما زلت لا تصدق تلك القصص.. أنت تعتبرها خزعبلات، وأنا أرى أن منطقك هذا هش جداً.. تتحدث بثقة عن أشياء لا تفقه فيها حرفاً..».

ـ «كلنا ذلك الرجل..فأنت أيضاً لا تعرف الكثير عن هذه الأشياء».

كلاش ش!.. هذا طبعاً هو صوت تهشم البندقة..

قال لي (هالبروك) وأنا أملأ فمي بالبندق:

ـ «إن الهالوين في الأصل عيد كانت تحتفل به قبائل الكلت.. لفظة هالوين هي اختصار لعبارة All Hallows even..أي (الليلة التي تسبق يوم كل القديسين).. وهي ليلة الحادي والثلاثين من أكتوبر.. لقد كانت عيداً كلتياً ثم قرر البابا (جريجوري الرابع) عام ٨٣٤ ميلادية – بلمسة ذكية لا شك فيها - احتواء هذا العيد ليضمه إلى المسيحية.. وبهذا لم يظل عيداً وثنياً.. وصار مناسبة لتذكر القديسين..».

بعد دقائق سمعت من يزوم فنظرت للوراء مجفلاً..

كان هذا الشبح الذي يلبس ملاءة سوداء ويضع على رأسه قناعاً يشبه الجمجمة، يدنو مني فارداً كفه ليقول بصوت طفولي

المفـترض أنـه مخيـف:

ـ «حلوى أم حيلة!».

مـددت يـدي إلى حلـوى التفـاح فقبضـت عـلى بعضهـا ودسسـتها في كـف الصغـير.. عندهـا أطلـق زئـيراً واتجـه نحـو البـاب..

من جديد واصل (هالبروك) محاضرته:

- «هـذه عـادة أوروبيـة أخـرى اسـمها (الترويـح).. كانـوا يمـرون عـلى القـرى المجـاورة يتسـولون (كعكـة الأرواح).. فـإذا كنـت سـخياً معهـم وعـدوك بـأن يصلـوا أكـثر كي يرحـم الله أقاربـك المـوتى، وإذا لـم تعطهـم لعنوك..مورسـت هـذه العـادة لفـترة طويلـة، لكـن جملـة (حلـوى أم حيلـة) لـم تظهـر عـلى السـاحة إلا عـام ١٩٥٠ في قصيـدة نشرتهـا جريـدة امريكيـة..».

قلت له باسماً:

- «أي أنـه نـوع مـن التسـول المقنـع.. غـير أنـني أرى أن المتسـول الـذي يلعـن مـن لا يعطيـه طريـف حقـاً..».

وضحكت وضحكوا..

أسرة لطيفة هي.. لكن لماذا أشعر بهذه الغصة في حلقي؟

***

منتصف الليل...

نظـرت لسـاعتي وتنحنحـت معلنـاً رغبـتي في الانـصراف.. بـكل المقاييس لـم تكـن سـهرة سـيئة.. لكـن (هالـبروك) هـز رأسـه ونظـر لسـاعته بـدوره، ثـم قـال في إلحـاح:

ـ «ليـس قبـل أن نحتفـل بعيـد ميـلادك.. إن هـذا سـيضايق السـيدة جـداً».

ونظـرت بجانـب عيـني فوجـدت زوجتـه قادمـاً ترتـدي مـا يشـبه عبـاءة طويلـة سـوداء، وتحمـل كيسـاً مـن البلاسـتيك، وقـد بـدا عليهـا الاسـتعجال.. كـدت أقـول شـيئاً مازحـاً بصـدد العبـاءة، لكـني خفـت أن تكـون هـذه موضـة العـام.. أنـا لا أفهـم شـيئاً في ثيـاب النسـاء..

قالت له:

ـ «منتصف الليل.. هيا!».

هنـا نظـرت إلى بـاب الردهـة لأرى الصـبي قادمـاً وهـو يلبـس عبـاءة مماثلـة، وكان ذهـولي شـديداً عندمـا رأيـت (هالـبروك) يأخـذ مـن الكيـس الـذي تحملـه زوجتـه عبـاءة أخـرى، فيضعهـا عـلى كتفيـه..

قلت لهم في تهكم:

ـ «هل هذا حفل تنكري؟».

قال بلهجة لا مزاح فيها:

ـ «كلا.. تفسير هذا يستغرق وقتاً..».

ثم أخرج من سترته مظروفاً مغلقاً وقال وهو يناولني إياه:

ـ «اقـرأ هـذا بعـد انصرافنـا.. سـوف نعـود سريعـاً مـع المفاجـأة.. صدقـني إن هـذا مرتبـط بعيـد ميـلادك..».

وسرعـان مـا أشـار لزوجتـه وابنـه فانطلقـوا مغادريـن البيـت.. وجلسـت وحـدي كالأبلـه في البيـت الخالي..فجـأة انقطـع التيـار الكهـربي فوجـدت نفـسي في الظـلام.. لـم أرتبـك كثـيراً لأني وجـدت شـمعة عـلى منضـدة الطعـام فأشـعلتها بقداحتي..وجلسـت أمامهـا..

أخـذت نفسـاً عميقـاً وفتحـت الرسـالة فوجدتهـا مكتوبـة بخـط نضيـد انيـق:

«عزيزي د. حجازي:

أعـرف انـك سـتغضب مـني لهـذا التـصرف الغريـب، لكـن الأمـر مهـم

فعلاً بالنسبة لنا.. لن تستغرق وقتاً طويلاً حتى تدرك أنك وحيد تماماً في المنزل وأنه لا سبيل لمغادرته لأن النوافذ مدعمة بالحديد والأبواب موصدة.. دعك من أنك لا تستعمل الهاتف المحمول وخطوط الهاتف مقطوعة هنا..

لم أحدثك عن عقيدتي الخاصة.. إننا ننتمي إلى العقيدة (الدرويدية Druidic) التي ينسب لها البريطانيون كل عادة غير مفهومة لديهم.. بالتالي نحن نمارس الهالوين بذات الطريقة التي كان أجدادنا الكلت يمارسونه بها..يقال إن (ساوين) كان يستدعي أرواح الموتى جميعاً في هذا اليوم ليتولى تنسيقها. كان الكلت يهابون هذه الليلة ويستعدون لها بالنيران في الخلاء والأقنعة وربما بعض الأضحيات البشرية.. إنها بالنسبة لهم لا تمثل عيد (ساوين) فحسب، بل نهاية الصيف الجميل وقدوم الشتاء الرهيب الكئيب.. يقال أيضاً إن أرواح الذين ماتوا في العام الماضي تخرج بحثاً عن أجساد حية تسكنها.. في هذه الليلة بالذات تتلاشى الحواجز بين العالمين، ويصير الموتى قادرين على اقتحام البيوت».

وابتلعت ريقي ونظرت حولي إلى الشقة المظلمة ثم واصلت القراءة:

«كان الكلت يطفئون النيران في ديارهم، ليجعلوا بيوتهم باردة غير مريحة للأرواح، ويلبسون أكثر الأقنعة إفزاعاً.. الأقنعة التي يمكن أن تخيف الأشباح ذاتها.. الآن أنت تفهم ما فعلناه ولماذا غادرنا الدار بهذه اللهفة.. على أننا تركنا للموتى هدية هي قربان بشري.. أنت قربان فريد لأنك مولود في الأول من نوفمبر.. وهذا يجعل (ساوين) راضياً عنا.. وهذا ما قمنا به في كل بلد ارتحلنا إليه من قبل، لكنها المرة الأولى التي نفعلها في بلدكم الجميل.. سامحني وأعرف أنك لن تحقد علي..

بإخلاص:

إدوارد هالبروك»

ما إن فرغت من قراءة هذه الكلمات حتى هرعت أتأكد مما قال.. بالفعل لا توجد طريقة لمغادرة هذا البيت.. جربت كل الأبواب على ضوء الشمعة.. هززت النوافذ.. استعملت الهاتف لأسمع لا شيء.. صوت البلاستيك إن كان له صوت..

هذا الرجل يمزح.. هذه دعابة قاسية سمجة.. لا شك في هذا..

قال:

«سامحني.. لن تحقد علي».

يا له من أحمق!.. لو قابلته لهشمت رأسه..

هنا سمعت الصوت..

هناك من يعبث في الباب الخلفي.. هناك باب خلفي للمطبخ في هذه الدار..

جريت على ضوء الشمعة إلى المطبخ.. وقفت خلف الباب فسمعت الصوت.. صوت أنين.. صوت عواء مكتوم.. بينما هناك من يداعب القفل بيده.. يدخل فيه أشياء...

كانت هناك شراعة صغيرة فجذبت مقعداً ووقفت عليه واختلست نظرة إلى الخارج.. إلى الحديقة الخلفية للدار.. كان الظلام دامساً بالفعل.. لكني رأيت ثلاثة.. أربعة أشخاص مدثرين بالأبيض يقفون وراء الباب ويحاولون فتحه في لهفة.. أبيض؟... أكفان؟

ترجلت وركضت نحو الباب الأمامي.. الشمعة انطفأت.. لابد من لحظة كي أشعلها... هناك من يعبث به.. هذا أكيد.. هناك من يدخل جسماً معدنياً فيه.....

«في هذه الليلة بالذات تتلاشى الحواجز بين العالمين، ويصير

المـوتى قادريـن عـلى اقتحـام البيـوت».

***

الطابق العلوي!

نسيت أن هذه الدار ذات طابقين..

أنظـر لأعـلى إلى مصـدر الصـوت فأسـمع ذات الصـوت.. هنـاك مـن هـو آت مـن الطابـق العلـوي وهـو يـئن بـلا انقطـاع.. ثمـة شـعلة تتوهـج... أراهـا تتحـرك ببـطء قادمـة مـن أعـلى.....

أركض إلى الباب الأمامي واقف وراءه أصغي لمحاولات الاقتحام..

ثمـة نافـذة مطلـة عـلى الحديقـة تنفتـح ببـطء.. أرى يـداً تدخـل منها.. لـن تسـتطيع الدخـول لأنهـا مدعمـة بالحديد..

لكن.....

أركـض نحـو المائـدة الـتي كنـا نـأكل عليهـا.. أبحـث عـن سـلاح مـا.. في النهايـة أقـرر أن أزحـف تحتهـا مختبئـاً... كـم سـيطول الوقـت حـتى يجـدوني؟؟؟.. لـن يطـول.. هـذا نـوع مـن فـرار الفـأر مـن القـط في غرفـة مغلقـة..

هنا سمعت صوت الانفجار إذ انفتح الباب الأمامي للدار....

انفتح مرة واحدة...

أخرجت رأسي من تحت المائدة ونظرت..

هنـا رأيتهـم يقفـون في فرجـة البـاب.. كانـوا مسربلـين بالمـلاءات لكنهـم لـم يكونـوا مـوتى.. كانـوا أصدقـائي في العمل..حـوالي عـشرة منهـم.. وكانـوا يضحكـون.. أحدهـم يحمـل تورتـة عليهـا شـموع وآخـر يلتقـط لي صـورة بالفـلاش حيـث تواريـت تحـت المائـدة..

وسمعت الإنشاد:

ـ «هابي بيرث داي تو يو!».

و(هالبروك) يقول وهو يوشك على فقدان وعيه من فرط الضحك:

ـ «دعابـة قاسـية.. أنـا آسـف!... لكنـك أقنعتـني بشـجاعتك.. أنـت بالفعـل عقـلاني لا تؤمـن بالخرافـات عـلى الإطـلاق!».

وخرجـت مـن تحـت المائـدة وأنـا ألهث..كانـت دعابـة محكمـة فعـلاً ولا أنكـر هـذا...

تسألني عن أسرة (هالبروك)؟

أسرة لطيفـة هـي.. لكـني لسـبب مـا قطعـت كل علاقـة لي بهـا منـذ تلـك الليلـة.

الشمعـة والقناع

لهـب الشـمعة يتراقـص.. ومـع رقصتـه ترتسـم تلـك الظـلال الغريبـة العملاقـة لنـا عـلى جـدران غرفـة المكتـب.. لهـب الشـمعة يرقـص.. ومـع رقصتـه ألمـح شـمعتين ذهبيتـين في عيـني (سراج).. وذلـك البريـق المجنـون الـذي لـم أره مـن قبـل.. إمـا أنـه مجنـون فعـلاً - وهـذا مـا أتمنـاه - وإمـا أنـه شيء آخـر.....

***

لهب الشمعة يتراقص...

ورائحـة الشـمع الذائـب المحـترق تدغـدغ أنفـي.. كنـت أحـب هـذه الرائحـة حينمـا كان لي أنـف نهـم جائـع إلى اكتشـاف الجديـد..

ونحــن جالســان في الظــلام إلى تلــك المنضــدة الصغــيرة أمــام المكتـب.. يـداه مكبلتـان بالصفـد الحديـدي... ومـن وسـط السلسـلة يخـرج قيـد آخـر يثبتـه إلى قائمـة المنضـدة.. لهـذا يضـع مرفقيـه إلى المنضـدة ولا يكـف عـن فـرك كفيـه معـاً.. أمـا أنـا فأجلـس أمامـه ممسـكاً بذلـك المسـدس الثقيـل الـذي أصر عـلى أن أحملـه.. أنـا أخـشى الأسـلحة الناريـة وأؤمـن منـذ طفولـتي بمقولـة أمـي «السـلاح يطـول».. معربـة بذلـك عـن تصورهـا لماسـورة البندقيـة تتلـوى كالثعبـان إلى الـوراء لتطلـق الرصاصـة عـلى رأس حامـل البندقيـة نفسـه، وقبـل أن يلمـس الزنـاد..

لكـن (سراج) أصر عـلى أن يكـون المسـدس في يـدي، وأن تكـون الفوهـة مصوبـة إلى رأسـه.

ينظـر لسـاعته ثـم إلى الخـارج.. إلى السـتار الرقيـق الـذي يغطـي النافـذة.. ويهمـس مـن بـين أسـنانه:

ـ «حان الوقت!».

قلـت لنفسي إنهـا ليلـة سـوداء.. لكـني أعـرف أنـني لـن أطلـق الرصـاص وأعـرف أن هـذا كلـه هـراء.. بعـد ربـع سـاعة سـأنهض وأحييـه وأفـك الصفـد بالمفتـاح الـذي في جيـبي، ثـم أعـود لـداري لأحلـم بالكوابيس.. نشـاط حافـل للأمسـية كمـا تـرى..

قلت له وأنا أتأمل الشمعة:

ـ «هل لابد من هذه التـأثيرات المسرحية؟».

قال لاهثاً:

ـ «لابد.. قلت لك إن الشيء لا يحدث إلا في ضوء غير مباشر..».

هكـذا لـم أعـرف مـا أقـول.. ورحـت أقلـب المسـدس في يـدي.. كتلـة المـوت المجمـدة البـاردة..

رحت أرمق الشمعة..ومن جديد تذكرت كيف بدأ كل شيء..

***

كان (سراج) صديقـاً قديمـاً (رأى العالـم) كمـا يقولـون في القصـص.. لقـد ارتحـل إلى كل مـكان تقريبـاً..

كان مهندسـاً عزبـاً في الأربعـين لا غبـار عليـه، لـولا ذلـك الولـع السـوداوي المجنـون لديـه بالمـوت والمقابـر.. لا أعتقـد أنهـا جريمـة مـا.. هنـاك أنـاس مولعـون بهـذه الأمـور فعـلاً.. لقـد وصـف (مـارك تويـن) فتـاة مراهقـة لا ترسـم إلا شـواهد القبـور ولا تكتـب إلا أشـعار رثـاء حزينـة، إلى أن ماتـت هـي بدورهـا!.. وكنـت ألاحـظ ولـع (سراج) الشـديد بحضـور الجنائـز واهتمامـه بـأن يتدخـل في كل شيء.. هـو لا

يكف عن إسداء النصح لأهل المتوفى ولابد من أن يحضر طقوس الغسل والتكفين الخ.. وكنت أرى في هذا شيئاً مرضياً يختلف نوعاً عن الرغبة في الاتعاظ بالموت.. أعتقد أنه سافر حول العالم ليحضر جنائز من مختلف الثقافات بدءاً بالدفن العادي وانتهاء بالحرق وإلقاء الرماد في نهر (الجانج)... لكن هذه الأشياء لم تجعله شخصاً كريهاً بالنسبة لي...

إلى أن رأيته هذا الصيف...فشعرت أنه تقدم في العمر بضعة أعوام..

كان مرتبكاً متوتراً... ثم طلب أن يزورني.. وفي هذا اللقاء العجيب قال لي إنه لم يعد على ما يرام.. لقد تغيرت أشياء كثيرة في حياته.. هناك ليال كاملة لا يعرف ماذا دهاه فيها ولا أين أمضى ليلته.. فقط يصحو من النوم مليئاً بالكدمات منهكاً....

نصحته النصيحة الوحيدة الممكنة:

ـ «تزوج.. لن تجهد بعد هذا في تذكر أين أمضيت ليلتك لأن زوجتك ستعرف.. لن تتساءل عن سبب تعاستك لأن زوجتك ستعرف.. الخلاصة أن كل مشاكلك المعنوية البلهاء ستتحول إلى كوارث مادية محترمة.. تذكر كيف كانوا قديماً يعالجون مرضى الفصام بحقنهم بجراثيم الملاريا!».

قال في عصبية:

ـ «الآن صار من المستحيل أن أتزوج..!».

ثم أردف وهو يدفن وجهه بين كفيه:

ـ «بعد ما تكررت تلك الليالي الغامضة قمت بشيء بسيط.. أخفيت كاميرا الفيديو في موضع يراقب غرفة نومي ودخلت الفراش في موعدي المعتاد، وقدرت إنه لو كان هناك سر ما فلسوف أعرفه

قبـل أن ينتهـي الشريـط.. وقـد جربـت هـذه التجربـة ليلـة واحـدة وفي الصبـاح رأيـت الفيلـم.. أكـثر الفيلـم يصـور باباً موارباً ولا شيء يحـدث.. لكـن قبـل أن تنتهـي السـاعة الأولى رأيـت هـذا المشـهد!.. هـل عنـدك جهـاز فيديـو؟».

كان يحمـل في جيبـه شريـط فيديـو، فقمنـا بتوصيـل الجهـاز وجلسـنا نشـاهد مـا التقطتـه الكاميـرا.. كان قـد ضبـط الشريـط عـلى اللحظـة المهمـة بالـذات.. وأمـام عيـني الحائرتـين رأيـت بـاب غرفـة النـوم المـوارب ينفتـح، ثـم في الضـوء الخافـت رأينـا (سراج) يغـادر غرفـة النـوم.. ينظـر حولـه للحظـة كأنـه قـد لمـح الكاميـرا ثـم يخـرج مـن الـكادر..لا يوجـد شيء غريـب.. لا يوجـد شيء غريـب باسـتثناء أن رأسـه كان رأس ذئـب!.. ذئـب تتوهـج عينـاه في الضـوء الخافـت وقـد انتفـش الشـعر المحيـط برأسـه كالنـيران...

أعدنـا اللقطـة عـدة مـرات فكانـت النتيجـة أكيـدة.. ولـم أكـن عـلى اسـتعداد لقبـول حـرف مـن هـذا السـخف أمـا هـو فـكان واثقـاً ممـا رآه ومـا رأيتـه..

ـ «اسـمع.. لـو أردت لعـب هـذه الألعـاب الصبيانيـة فليكـن هـذا بعيـداً عـني..».

قال متوسلاً:

ـ «أنـت أمـلي الأخـير ويجـب أن تصدقـني.. يجـب أن أذكـر هنـا أن تلـك الليـالي الـتي لا أعـرف عنهـا شـيئاً كانـت ليـالي قمريـة..!.. يقولـون في أسـاطير الغـرب إن الإنسـان يتحـول إلى مسـخ ذئـب لـو ولـد في ليلـة مقمـرة.. أو نـام خـارج الـدار ليلـة جمعـة مقمـرة.. دعـك مـن أن يتعـرض لعضـة أو خـدش ذئب..الحقيقـة أنـني مـررت بـكل هـذه الخـبرات معاً..هـل يوجـد أي تفسـير لمـا تـراه إلا أن أكـون قـد تحولـت إلى مسـخ ذئـب؟.. مـذءوب.. تذكـر ولعـي غـير العـادي بالمـوت

والمقابـر... هـل هـذه نفسـية سـوية؟.. ألا يشـير هـذا إلى شيء عـلى غـير مـا يـرام في تكويـني؟».

لـم أكـن عـلى اسـتعداد لمناقشـة هـذا الهـراء، لكنـه كان مصمماً عـلى أن أصغـي لـه..

هـل هـي أسـطورة حقـاً؟.. بالنسـبة للقدمـاء كان الأمـر مفروغـاً منـه لا يسـتأهل مجـرد التساؤل..سـوف تجـد في المخطوطـات اليهوديـة كلامـاً عـن (نبوخـذ نـصر) ملـك بابـل الـذي تحـول إلى مـذءوب أربعـة أعـوام كاملـة..وفي كتابـات (هـيرودوت) تجـد كلامـاً عـن شـعب (النيـوري) الذيـن يتحولـون لذئـاب مـرة كل عـام.. و لو قـرأت ملحمـة (جلجاميش) البابليـة لوجـدت أن (إنكيـدو) صاحبـه أقـرب إلى مـذءوب..

أمـا الشـاعر (فيرجيـل) فيصـف رجـلاً قـادراً عـلى تحويـل نفسـه إلى ذئـب.. وقـد زعـم الشـاعر أنـه تعلـم منـه أسرار إعـادة المـوتى للحيـاة.. إن كتابـات الطبيـب الأركادي (مارسـيليوس السـايدي) عـن داء (لايكانـثروبي) ـ حالـة التصـور الذئـبي ـ ترسـم لنـا صـورة طبيـة رصينـة عـن مـرض يتصـور فيـه المريـض أنـه ذئـب حـين يكتمـل القمـر.. يعوي ويـأكل اللحـم النيـئ.. هـذا مـا قالـه.. ولكـن مـا رأيـك في أن أطبـاء عربـاً عظامـاً ليسـوا أقـل مـن (ابـن سـينا) و(الزهـراوي) ذكـروا هـذا المـرض في كتبهـم؟.. الاسـم العـربي الـذي اختـاراه هـو محاولـة لتقريـب لفظـة (لايكانـثروبي) إلى اللسـان العـربي، لـذا صـار اسـمه (القطـرب) بضـم القـاف.. وفيمـا بعـد اتهـم العلمـاء داء البورفيريـا وهـو مـن أمـراض الـدم الشـهيرة، الـتي لا يسـتطيع أحـد أبـداً تذكـر أسـماء الإنزيمـات المعقـدة الـتي تسـببها.. في أحـد أنواعـه يجعـل المريـض حسـاس الجلـد للشـمس مليئـاً بالقـروح.. وذا شـعر طويـل رمـادي وحواجـب كثـة.. الأظفـار تنمـو بفظاعـة.. الأسـنان مدببـة.. ثمـة ميـل غـير حميـد لمـذاق الـدم.. جنـون عـام.. هـذا هـو مـا يفـسر ميـلاد الكثيريـن مـن

(الرجـال الذئـاب) في التاريـخ.. ومراجـع الطـب تطلـق عـلى المـرض أحيانـاً اسـم (متلازمـة الرجـل الذئـب)..

لكني بعد هذا كله لا أصدق حرفاً...

هنـا كان طلبـه العجيـب إكراماً لصداقتنـا (أخـشى دائمـاً طلبـات إكـرام الصداقـة هـذه لأنهـا عسـيرة كريهـة عـلى الأرجـح).. طلـب أن أمـضي معـه ليلـة مقمـرة كاملـة في بيتـه.. لـن يجـازف بـشيء.. سـيربط نفسـه بالأصفـاد بحيـث لا يسـتطيع إيـذائي.. أمـا أنـا فعـلي أن أمسـك بالمسـدس... هـذا المسـدس ليـس عاديـاً.. إن بـه طلقـة واحـدة صنعهـا هـو بنفسـه.. طلقـة مـن فضـة.. المفـترض حسـب هـذه الكتـب الرهيبـة أن المـذءوب لا يمـوت إلا برصاصـة فضيـة.. مـن الطـرق الأخـرى أن تجرحـه ليـنزف ثـلاث قطـرات مـن الـدم.. طبعـاً هـي طريقـة غـير محببـة وغـير مضمونـة..

لـو مـرت الليلـة عـلى خـير فعـلي أن أفـك قيـده وأضحـك وأخـبره كـم هـو سـخيف، ثـم أعـود لـداري؛ أمـا إن حـدث المحظـور فهـي الطلقـة.. الطلقـة الـتي أعـرف أنـني لـن أطلقهـا أبـداً... لأن هـذا كلـه تخريـف.. وفيلـم الفيديـو؟.. إمـا أنـه دعابـة منـه أو دعابـة عليـه.. إن أقنعـة الذئـاب تبـاع في كل مكتبـة اليـوم ويمكـن لـكل مـن امتلـك عـشرة جنيهـات أن يصـير مذءوبـاً..

لن أطلق هذه الرصاصة أبداً.. إذاً لماذا لا أريحه؟.

***

ولهب الشمعة يتراقص...

ظلـه المخيـف يرقـص عـلى الجـدار خلفـه وهـو ينظـر للهـب في شرود كأنـه منـوم مغناطيسـياً... سـوف تنتهـي هـذه الشـمعة خـلال ربـع

ساعة على الأكثر لهذا أعددت واحدة أخرى.. لكني قدرت أنني لن أشعلها لأن شمعة واحدة تكفي لإعلان انه أحمق..

نظرت لساعتي واتجهت إلى الستار وأزحته..

الآن فقط أرى البدر مكتملاً فاخراً يطل علينا من فوق الأبنية المحيطة بنا..

نظرت له وضحكت في تشف.. وضعت المسدس على المنضدة، وبخطوات ثابتة تركته متجهاً إلى الصالة.. سمعته يصيح في دهشة:

ـ «إلى أين؟».

لم أرد..صوت احتجاجاته يخفت وأنا أتركه حيث هو عاجزاً عن اللحاق بي، وأتوغل في شقته. فتحت أكثر من باب إلى أن وجدت غرفة نومه.. أضأت النور الكهربي وانتظرت حتى زال الألم عن عيني بعد طول جلستي في الظلام، ثم رحت أفتش الحجرة بفظاظة وقسوة كأنني ضابط جشتابو يفتش حاجيات رجل من المقاومة الفرنسية.. بحثت في خزانة الثياب وتحت الفراش.. وفي النهاية وجدت كاميرا الفيديو إياها.. وتحت حشية الفراش وجدت ما كنت أبحث عنه.. قناع ذئب رخيص من النوع الذي قلت لك إنه يباع في كل مكتبة، ويمكن لكل من امتلك عشرة جنيهات أن يقتنيه.. قطعة بلهاء من الجلد لها تجويفان عند العينين وعند الأنف..

أنت مخبول يا صاحبي.. فعلاً مخبول.. كل هذا الجهد من أجل تمثيلية سخيفة.. وما ذنبي أنا لتضعني وسط كل هذا التوتر؟

هكذا عدت إلى مكتبه لأخبره برأيي فيه..

هنا وجدت أن الظلام قد صار دامساً.. لقد لفظت الشمعة أنفاسها الأخيرة.. اتجهت إلى النور فأضأته وهنا فوجئت بأن (سراج) لم يعد موجوداً...!.. لا أريد أن أكون هستيرياً لكن السلسلة التي

كانت تثبته إلى قائمة المنضدة مفتوحة.. لقد فتحت بقوة لا يمكن أن أتصورها.. أين ذهب؟.

هنا لمس شيء كتفي فأجفلت.. نظرت للوراء فوجدت أنه الستار يطير في هواء الغرفة.. إن النافذة مفتوحة ... والبدر ينظر لي في وقاحة متشفياً...

ثم أين المسدس؟.

أسئلة كثيرة حملتها معي وأنا أهبط في الدرج.. وأنا أبحث عن سيارة أجرة تقلني إلى داري...

ليلة طويلة تفعمها الكوابيس ولا تثريب عليّ... مجنون.. لكن كيف يفر مجنون من صفد حديدي مزدوج؟.. وكيف يفر مجنون من النافذة المفتوحة؟

في السابعة صباحاً دق جرس الهاتف فهرعت كالثمل أرد عليه.. عرفت صوت (سراج) المبحوح المرهق يتكلم:

ـ «أشكرك على أنك تركتني وحدي أثناء التحول.. لقد أفادني وجودك في أنه جعلني أتخذ أهم قرار في حياتي..فكرت في الأمر ملياً ووجدت أن البقاء حياً أفضل.. لهذا أخذت المسدس معي.. الأهم من هذا أني صرت أتذكر جيداً ما كان يحدث لي في الليالي المقمرة.. أنا الآن في صورتي البشرية بعد ليلة صاخبة!».

قلت في غيظ :

ـ «كف عن ألعاب الأطفال.. لقد وجدت القناع في غرفة نومك!».

عاد صوته المبحوح يقول :

- «آه القناع!.. اللعبة التي اشتريتها لأولاد أختي؟... قطعة المطاط الملساء؟.. لو تذكرت الفيلم الذي رأيته يا صاح لتذكرت أن المذءوب كان منتفش الشعر وكانت عيناه تتوهجان كجمرتين.. لم

أعـرف أن ذلـك القنـاع الرخيـص مقنـع إلى هـذا الحـد!».

ثم أضاف وقد كدت أقاطعه:

ـ «أنـت الآن تعـرف عـني أكـثر مـن الـلازم.. لـن ألحـق بـك إكرامـاً لصداقتنـا.. لكنـك لـن تـراني بعـد اليـوم أبـداً... اسـم جديد..عنـوان جديـد.. بلـدة جديـدة.. ومسـتقبل مفعـم بالاحتمـالات».

ووضـع السـماعة قبـل أن أخـرج كل الأسـئلة الـتي احتشـدت في حلقـي في وقـت واحـد.

لـو وجـدت في المحـلات قنـاع ذئـب لـه شـعر منتفـش حـول العنـق وعينـان تضيئـان كجمرتـين، فإنـني أرجـو أن تخـبرني.. فقـط لأتمكـن مـن النـوم بسـلام في الليـالي المقمـرة!.

دقـــات

توك.. توك.. توك!

دقـات.. لكنهـا تختلـف عـن أيـة دقـات أخـرى.. ولهـذا قصـة أحكيهـا لكـم الآن..

***

قـد تختلـف معـي في الأمـر، لكـن لا تنكـر أن الفـترة الـتي قضيتهـا في جمعيـة البحـوث الروحانيـة البريطانيـة هـي فـترة مـن أمتـع فـترات حيـاتي.. ربمـا كان الأمـر كلـه هـراء لكنـه هـراء مسـل ومثـير.. أعـترف أن التفـاوت بـين البـشر موجـود في كل شيء.. أنـا لا أسـتطيع تحريـك أذني لكـني أعـرف أكـثر مـن عـشرة أشـخاص يقـدرون عـلى ذلـك.. بطـل العالـم في التنـس ليـس سـوى رجـل مثـلي ومثلـك لكننـا نعتقـد أنـه خارق..وهـذا يشـمل الحـواس ذاتهـا.. زرقـاء اليمامـة رأت الجيـوش المعاديـة بينمـا قومهـا لـم يـروا شـيئاً وحسـبوها تخـرف. د. (إيمانويـل ليبمـان) كان يسـمع صـوت اللغـط عـلى قلـب طفلـة قبـل أن يسـمعه زمـلاؤه الأطبـاء بأسـبوع كامـل، وكان مـن السـهل عليـه لـو أراد أن يدعـي امتلاكـه لقـدرة الاسـتبصار.. أعتقـد أن المتمتعـين بالقـدرات الخارقـة للحـواس يملكـون قـدرًا أكـبر مـن الإدراك.. إنهـم (يحركـون آذانهـم) عـلى نطـاق أوسـع..

ثـم ذلـك الرجـل الـذي دعـاني للجمعيـة.. د. (جيمـس ماتيسـون).. ألا تـراه طريفًـا بقامتـه القصـيرة وعصبيتـه وعينيـه النافذتـين؟.. ومـاذا عـن البنايـة العتيقـة الـتي تعـود لعـام ١٨٨٢؟... تذكـر أن هـذا البـاب الـذي

تجتازه اجتازه من قبل علماء كبار مثل الفيزيائي (كروكس) وأدباء أكبر مثل (كونان دويل) مؤلف (شيرلوك هولمز) وخبراء روحانيات محترمون مثل (دوجلاس هيوم)... لا تنس كذلك أن تعبير الإدراك الفائق للحواس Extrasensory perception هو من ابتكار هذه الجمعية، وهو ما صرنا نختصره بحرف إي إس بي ESP.. ربما قابلت هذه المواضيع تحت مسمى الباراسيكولوجي الذي يختصره كتاب الخيال العلمي إلى Psi أو psionics..

ألا ترى معي أن هذا كله مثير؟

***

لن أدخل في تفاصيل.. أنت تعرف موضوع زيارتي لبريطانيا وكيف تعرفت د. (جيمس ماتيسون).. إنه - كما تعرف - طبيب نفساني لكنه من أعضاء الجمعية البارزين.. وكان هو نفسه يملك بعض الحيل الطريفة التي تعلمها من اليوجيين.. لكنه كان يندهش من انبهارك بها، ويقول في تواضع إنها مزيج من السيطرة المطلقة على العقل وقليل جدًا من خفة اليد..

قلت له:

ـ «كيف وأنت رجل علم تؤمن بهذه الترهات؟».

قال بطريقته العصبية التي تقتضب الكلمات اقتضابًا:

ـ «أنا لا أؤمن بها لكني أجرب.. أنا متعادل منذ البداية.. لهذا لا أطلق عليها ترهات ما لم أتأكد بطريقة علمية صحيحة من أنها ترهات..».

ثم استطرد قائلاً:

ـ «هنا ندرس الإدراك الفائق للحواس وندرس التحريك عن بعد..

هنـاك أنـواع عـدة مـن الإدراك الفائـق للحـواس؛ منهـا التخاطـر أو قـراءة الأفكار أو قـراءة العواطـف، وهنـاك تحريـك المـادة عـن بعـد.. والاسـتبصار وهـو رؤيـة المسـتقبل.. ورؤيـة أشـياء ليسـت أمامـك وسـماع أشـياء بعيـدة. أمـا السـايكومتري فهـو قـدرة الإحسـاس بمـن لمـس الـشيء.. هنـاك كذلـك موهبـة التواجـد في مكانـين في الوقـت ذاتـه.. ثـم القـدرة عـلى إشـعال الحرائـق ذهنيـاً.. والقـدرة عـلى إحضـار الماديـات إليـك..».

ـ «وتعتقد أن هذا كله ممكن؟».

ـ «أنا لا أعتقد.. أنا أدرس وهذا هو ما لا تريد فهمه».

ثـم اقتـادني إلى مختـبر (جانتسـفلد) الـذي تـم إدخالـه عـام ١٩٧٤، والمعـزول عـن أيـة مؤثـرات بصريـة أو صوتيـة، حيـث يجلـس مـن يدعـون أو يتساءلون عـن قدرتهـم عـلى الإدراك الفائـق للحواس..هناك يكفـون عـن اعتبارهـم بـشرًا ويعتبرونهـم (مواضيـع).. كان (الموضـوع) يجلـس معصـوب العينـين أمـام عالـم يمتحنـه.. تـرى العالـم يمـد يـده إلى مجموعـة مـن البطاقـات عددهـا خمـس وعـشرون بطاقـة.. ثـم يرفـع إحداهـا في الهـواء ويطلـب مـن (الموضـوع) أن يخمـن محتواهـا.. هـذه البطاقـات تدعـى بطاقـات (زيـنر) وعليهـا رسـوم مختلفـة مثـل الصليـب والدائـرة والموجـة والنجـم.. الـخ...

إذا اسـتطاع الموضـوع تخمـين سـت إلى عـشر منهـا فهـو يملـك تلـك القـدرة.. إنـه مـشروع وسـيط أو عـلى الأقـل يملـك الحاسـة السادسـة..

ـ «لماذا هذا الرقم بالذات؟».

ـ «هـذا نتيجـة دراسـات إحصائيـة مرهقـة وضعهـا العالـم الأمريـكي (جوزيـف بانكـس رايـن).. وهـي طريقـة لاسـتبعاد عامـل الصدفـة.. إن النتائـج مبهـرة لكنهـا غـير قابلـة للتكـرار.. (الموضـوع) الـذي ينجـح عـشر مـرات في تجربـة قـد ينجـح خمـس مـرات فقـط في التجربـة

التاليـة.. بينمـا صفـات الظاهـرة العلميـة الصحيحـة يجـب أن تتضمـن قابليتهـا للتكـرار..».

هنـا جـاء أحـد العلمـاء يخـبر (ماتيسـون) أنهـم مسـتعدون للتحـرك.. جميـل.. لقـد حـان الوقـت.. لكـن تحـرك إلى أيـن؟..

كان الليـل قـد بـدأ يجتـاح المدينـة.. وفي السـيارة المتجهـة إلى ذلـك البيـت الريفـي خـارج (لنـدن) أخـبرني (ماتيسـون) أنهـم في الطريـق لتطبيـق عمـلي لخـبرات الإدراك الخـارق للحـواس.. مـن حسـن حظـي أن أكـون موجـودًا أثنـاء التحـري.. هـذا يعطيـني فكـرة أفضـل عمـا يقومـون بـه هنـا..

القصة هي البساطة ذاتها.. وهي التكرار بعينه..

في هـذا البيـت تعيـش أختـان عانسـان.. (إميـلي) و(جـين).. كل العوانـس الإنجليزيـات اسـمهن (إميـلي) ويبـدو أن هـذه عـادة اسـتنتها (إميـلي برونـتي).. ولـم يعكـر صفـو الأختـين شيء طيلـة حياتهمـا التعسـة السـعيدة حـتى انتقلتـا إلى هـذا البيـت منـذ عـام.. وهنـا بـدأت أشـياء غريبـة تحـدث..

الأخـت الكـبرى مخيفـة في حـد ذاتهـا.. يصعـب أن تصـدق أن شـيئًا يمكـن أن يخيـف هـذه المـرأة.. وهـي تلبـس ثيابًـا لا تمت لهـذا العصر.. دعـك مـن حذائهـا الـذي يذكـرك بحـذاء (الطنبـوري) في تراثنا..لكنهـا تتحـدث في رعـب عـن كلبهمـا.. إنـه في أسـوأ حالاتـه النفسـية منـذ جـاء هنـا، وهـو يرفـض بشـمم أن يدخـل قطاعـات بعينهـا مـن البيـت.. الردهـة محرمـة عليـه.. مواضـع بعينهـا في الحديقـة.. الكـرار.. إنـه يقـف هنـاك متصلبًـا ويصـدر صوتًـا يثـير الشـفقة.. أمـا لـو حاولـت أن تدخلـه برغمـه فـإن شـعر عنقـه يتصلـب ويـزوم بتلـك الطريقـة المنـذرة بالويـل، والـتي تسـبق تمزيـق حنجرتـك..

الأخـت الصغـرى مثـيرة للتوجـس.. إنهـا تحـكي عن صـوت الدقـات التي

تـدوي في أرجـاء البيـت ليـلاً.. دقـات لا يمكـن معرفـة مصدرهـا.. إنهـا قادمـة مـن كل مـكان ولا مـكان.. وهـذه الدقـات لا تحـدث إلا وهمـا موجودتـان.. أي أنهـا لـم تحـدث قـط لشـخص منفـرد في المـنزل.. فيمـا عـدا هـذا هنـاك شـهود محترمـون..

إلام تفضي هذه الدقات؟..

قال د. (ماتيسون):

ـ «هـذه هـي القصـة المعتـادة.. حسـب كلام المؤمنـين بهـذه الأشـياء غالبًـا مـا تشـير الدقـات بعنـاد إلى مـكان في الجـدار.. هـذا المـكان نجـد فيـه جثـة مدفونـة منـذ عقود..طبعًـا روح صاحـب الجثـة هـي الـتي كانـت تـدق..».

سألته في تهكم مهذب:

ـ «وكلام غير المؤمنين بهذه الأشياء؟».

ـ «يطلقـون عـلى هـذه الدقـات اسـم Rappings.. إنهـا نـوع مـن قـدرات التحريـك عـن بعـد لكنـه لا إرادي.. أي أن الشـخص الـذي يعـاني هـذه الظاهـرة يقـضي أسـود ليـالي حياتـه غـير عالـم – الأحمـق – أنـه هـو مـن يحـرك الأشـياء بعقلـه لتصـدر هـذا الصـوت.. هنـاك جـزء مـن نفسـيته يتـصرف بشـكل مسـتقل عنـه.. ونحـن نـرى هـذه الظاهـرة بكـثرة في سـن المراهقـة لأنهـا سـن ظهـور هـذه القـدرات.. قديمًـا قيـل إن المراهقـة هـي سـن المـس الشـيطاني لكننـا اليـوم نقـول إنهـا سـن التحريـك عـن بعـد دون علـم الموضـوع..».

هكـذا بـدأت السـهرة.. لا أزعـم أنـني أفهـم كل مـا قامـوا بـه.. لكنهـم بحثـوا عـن مكـبرات صـوت خفيـة.. وقامـوا بالتقـاط عـدة صـور عاديـة وبالأشـعة تحـت الحمـراء، ثـم قامـوا بتوصيـل كامـيرات وأجهـزة تسـجيل.. هنـاك أجهـزة لا أعـرف مـا تقـوم بـه لكنهـا جعلـت الأمـر أقـرب إلى حـرب الفضـاء.. الخلاصـة إنـني أيقنـت أن الشـبح البائـس

سيصاب بهلع لو فكر في دخول البيت الآن.. لا أحب أن أكون مكانه..

على منضدة جلس (ماتيسون) يلعب الورق مع أحد رفاقه، أما الأختان الشمطاوان فقد راحتا تتسليان بالحياكة على مقعديهما المفضلين.. هناك عالم نام وآخر موشك على النوم، والكلب يقعي جوار الأختين، وأنا المصري أجلس أراقب كل هذا..

هل كان هذا منتصف الليل؟.. أعتقد ذلك..

***

توك.. توك.. توك!

***

بدأت الدقات.. ومعها وثب الجميع.. يجب أن أقول إن الرعب شلني ففقدت التحكم في قدمي تمامًا.. لم أعد قادرًا على الوقوف.. هذا الصوت يأتي من كل مكان ولا مكان.. إنه الكل الذي نحن فيه.. صوت غريب لم أسمع مثله من قبل.. أما عن حال الكلب البائس فحدث ولا حرج..

تدور أجهزة التسجيل.. ويصيح (ماتيسون):

ـ «صوروا الأختين!.. أريد أن أرى كل جزء منهما في المختبر.. تأكدوا من أنه لا توجد حبال أو حيل ما.. لا دقات خفية تحت المنضدة..!».

لكن الأمر كان واضحًا.. إنهما جالستان في الوضع ذاته.. لم يتغير شيء إلا ابتسامة من طراز (ألم – نقل – لكم -؟).. الدقات عالية مستمرة موحشة... كأنه الموت ذاته قادمًا على عكاز وقدم خشبية.

ومن أعلى جاء صوت احد العلماء:

ـ «سلبي.. لا يوجد شيء في العلية..لا يوجد أشخاص مختبئون».

قال د. (ماتيسون) في حيرة:

ـ «وهذا ليس تحريكًا عن بعد.. إذ لا شيء يتحرك..».

ثم نظر لي في حماس وهتف:

ـ «هل من تعليق ما؟.. ليس من رأى كمن سمع!».

لكني كنت قد بدأت استعيد قدراتي العقلية.. هكذا نهضت ونظرت حولي.. ثم أشرت إلى الأخت الكبرى (إميلي) وقلت لها أمرًا غريبًا لم تفهمه لذا طلبت من (ماتيسون) أن يكرر الأمر:

ـ «إنزعي حذاءك!».

بدا عليها الغيظ المصحوب بالذهول.. هذه إهانة.. لكني كررت الطلب..

هكذا انحنت وانتزعت حذاء (الطنبوري) الشهير.. ودعني أؤكد لك أن قدميها لم تكونا ساحرتين.. قدم لم يرأف بها النقرس والتهاب العظام المفصلي، دعك من نظافتها الشخصية..

لكننا الآن نرى قدميها عاريتين.. وندرك للمرة الأولى الحقيقة:

لقد توقفت الدقات!!

ظلت تنظر لنا وننظر لها في تحد.. توطئة لأن يسألني (ماتيسون) كأنني أكبر مغفل عرفه:

ـ «هل لك أن تفسر لي ما يحدث؟».

قلت وأنا أنهض لأزيل عني كل هذا التوتر:

ـ «الأمر سهل.. كنت قد قرأت عن قصة الأخوات (فوكس) الشهيرات في أمريكا في أوائل القرن العشرين.. إنها تشبه هذه

القصة جدًا.. ثلاث شقيقات هن.. كن يتخاطبن مع الأرواح في بيتهن، وذلك عن طريق إحداث خبطات معينة، فكانت الأرواح ترد بشفرة مماثلة.. وعن طريق هذه الرسائل المتبادلة عرفن أن هناك قتيلاً دفن في جدران منزلهن.. عمت شهرة الأخوات الثلاث ربوع البلاد، ومن هنا ظهرت فكرة التخاطب مع الأرواح وتكونت جمعيات في كل مكان من العالم تجرب الشيء ذاته. لكن حب الشهرة يحرك المرء دومًا.. وأحيانًا يعترف المجرم بجريمته ليفتخر بعبقريته مفضلاً السجن على الكتمان.. هكذا اعترفت إحداهن - وتدعى (مارجريت فوكس) - بأن الصوت الرهيب الذي كانت تحدثه الأشباح أحدثته هي بمفاصل قدمها!.. وقد أحدثت صوت (الدقات الشبحية) أمام ٢٠٠٠ متفرج مذهول في مسرح كبير. وقد قالت بعد هذا الاعتراف: كل موضوع الوساطة الروحية هذا نصب في نصب.. لكنه نصب على أعلى طراز ويحتاج إلى تدريب شاق!».

كانت هذه ضربة قوية جدًا لعلم الوساطة الروحانية.. وقد رفض كثيرون من علماء البارسيكولوجي الاعتراف بهذه الهزيمة..

ثم أشرت إلى الأخت الكبرى وقلت:

ـ «نحن نرى أنه لم يتحرك شيء فيها.. لكن لماذا ترتدي هذا الحذاء العتيق؟.. ببساطة لأنه يخفي حركة اصابع قدميها، وهي اصابع أضناها النقرس.. من ثم صارت تحدث هذا الصوت الصاخب المخيف القادم من لا مكان..ومن الطبيعي أن خلع حذائها جعل الأمر مفضوحًا.. إن هذه الآنسة ليست إلا باحثة عن الشهرة والاهتمام».

نظر (ماتيسون) إلى المرأة التي راحت تلبس حذاءها، فقالت في ضيق:

ـ «أنتم مخرفون ضيقو العلم.. وإنني لأطالبكم بمغادرة داري

حـالاً..».

نظر (ماتيسون) إلى الرجال وقال:

ـ «هذا ما سنفعله حالاً يا آنسة.. اجمعوا حاجياتكم يا شباب..».

ثم نظر لي باسمًا وقال:

ـ «كما قلت لك.. مقياسنا هو التجريب.. لن تكون هذه الأمسية الأولى ولا الأخيرة التي تذهب هباء».

***

مرت أعوام كثيرة، وتطايرت أوراق التقويم في الهواء كما يحدث في أفلام (توجو مزراحي) القديمة..

لقد اتصل بي د. (ماتيسون) منذ أسبوع، ورحنا نتذكر تلك الأيام التي لن تعود.. ضحكنا كثيرًا جدًا.. وحكى لي عن تجاربه مع الفقير الهندي الذي سجنوه تحت الأرض أسبوعين.. ذكرته في تشف بقصة الأختين.. لقد استطاعتا خداع أساطين علم القدرات الفائقة، لكنهما لم تخدعاني.. ربما لأنني احتفظت بهامش واسع من الشك أكثر منهم.. قال لي إن كبراهما ماتت منذ عام أما الأخرى فقد غادرت البيت ولا يعرف أحد مكانها.. أما المنزل فقد هدم..

وقال وهو ينهي المكالمة:

ـ «على فكرة.. كانت هناك جثة امرأة مدفونة في جدار الردهة.. لابد أنها موجودة هناك منذ مائة عام على الأقل.. لكني معجب بعقلك العلمي المرتب.. معجب به جدًا..!».

قد تختلف معي في الأمر، لكن لا تنكر أن الفترة التي قضيتها في جمعية البحوث الروحانية البريطانية هي فترة من أمتع فترات حياتي.. أم أن لك رأيًا آخر؟

إنها تأتي ليلاً

وحيدًا في عربة القطار..

لـم أعتـد أن أركـب هـذا القطـار بالـذات في ذلـك الموعـد المتأخـر، لكـني لظـروف خاصـة وجـدت أن عـلي أن أمـضي ليلـتي في الإسـكندرية.. وهكـذا وجـدت نفـسي ألحـق بـه قبـل قيامـه بدقيقـة..

وحيدًا في عربة القطار..

كنـا في يـوم ميـت مـن أيـام الأسـبوع، وفي سـاعة يلفـظ فيهـا اليـوم أنفاسـه..لا إجـازات دانيـة ولا هـو موعـد عـودة موظفـين أو طـلاب.. لهـذا لـم أندهـش كثـيرًا حينمـا وجـدت أنـني الشـخص الوحيـد الموجـود في هـذه العربـة..

مـر بي المحصـل، وهـو رجـل بديـن وقـور يـدلي عويناتـه عـلى قصبـة أنفـه ليتمكـن مـن النظـر فوقهمـا كأنـه صقـر يترصـد فريسـته، وقـد تفحـص تذكـرتي دون ان ينظـر لي نظـرة واحـدة ثـم واصـل مهمتـه الغامضـة.. تـرى هـل العربـات الأخـرى بالحالـة ذاتهـا..؟.. لا أعـرف.. ثـم إنـني مولـع بالوحـدة، وهـي هبـة يصعـب أن تجدهـا في بلـدي.. أحيانًـا يخطـر لي أنـه مـن المسـتحيل أن تجـد نفسـك وحيـدًا في أي مـكان.. (الجحيـم هـو الآخـرون).. قالهـا (سـارتر) يومًـا ويبـدو أنـني بـدأت أميـل إلى هـذا الـرأي مؤخـرًا.. أنـا الآن وحـدي.. وحـدي..

فتحـت الكتـاب الـذي أحملـه معـي كلمـا سـافرت، والـذي أتـوق إلى أن أطالـع حرفًـا واحـدًا فيـه بعـد صفحـة ٣٤ الـتي قرأتهـا منـذ أربعـة أشـهر.. وبـدأت بحمـاس غـزو الصفحـة رقـم ٣٥.. لكـني نسـيت عـدوًا آخـر غـير الآخريـن.. هـذا العـدو الـذي أغرتـه بالقـدوم العربـة الدافئـة

وإرهـاق اليـوم الطويـل وصـوت ارتطـام العربـات المنتظـم الرتيـب : النعـاس..

بـدأ جفنـاي يثقـلان حـتى صـار وزن الواحـد طنًـا.. وبـدأت بعـض الأحـلام السـخيفة تتداخـل مـع سـطور الكتـاب.. فقـط يـدوي صـوت مـا مـن آن لآخـر لأصحـو مـن النـوم مذعـورًا وأنـا أتسـاءل عمـا يريـده (أدولـف هتلـر) مـن زوج خالـتي.. ثـم أدرك مـن أنـا وأيـن أنـا فأعـود إلى صفحـات الكتـاب..

ظهرت هي للمرة الأولى بعد ربع ساعة..

لـم أشـعر بهـا في البدايـة لأني كنـت مغمـض العينـين، لكـني رأيـت فيمـا يـرى النائـم كيانًـا أسـود بـاردًا يمـر بجـواري.. فتحـت عيـني مذعـورًا فرأيتهـا تجلـس عـلى مقعـد يتقدمـني بصفين..المقعـد المجـاور للردهـة عـلى الجانـب الآخـر.. لهـذا صرت أراهـا بوضـوح..

إنهـا فتـاة – لابـد أنـك خمنـت هـذا – في العشرينـات مـن العمـر.. أعتقـد أنهـا عـلى شيء مـن الجمـال إذا حكمـت مـن جانـب وجههـا الأيـسر.. وهـي ترتـدي ثوبًـا أسـود يوحـي بالحـداد..

عدت لقراءة كتابي.. وبنجاح تام انتقلت إلى صفحة ٣٦..

***

بعد قليل بدأت المشاكل..

رأيتهـا تبحـث في حقيبتهـا ثـم تخـرج هاتفًـا محمـولاً.. كنـا في منتصـف التسـعينات ولمـا يـصر هـذا الاخـتراع (في يـد الجميـع).. بـدا لي إنهـا معجـزة حقيقيـة أن تجـري مكالمـة وأنـت في قطـار، ورحـت أنظـر لهـا بفضـول تـام شـبه وقـح..

كانـت تضـع الهاتـف عـلى أذنهـا، وتتكلـم بـشيء مـن العصبيـة،

وبصـوت عـال لا يمكـن أن تتجاهلـه:

ـ «لا يـا (عـادل).. أسـلوبك هـذا لا يريحـني وإنـني لأطالبـك باتخـاذ قـرار سريـع..».

بـدا لي أن الأمـر مسـل، فأغلقـت الكتـاب المنكـوب بعـد مـا ثنيـت صفحـة ٣٨.. أعـرف ولـع الفتيـات بمناقشـة مشـاكلهن العاطفيـة بصـوت عـال في أماكـن عامـة..إن هـذا يمنحهـن نوعًـا مـن الرضـا عـن النفـس.. إن لهـن (مواضيـع) وخلافـات عاطفية..الـخ.. لسـن منبـوذات ولا منسـيات.. لكـن الويـل لـك لـو ظهـر مـا يـدل عـلى أنـك تتنصـت..

ـ «أعـرف أنـك تتعذب..أعـرف أنـك تعـاني.. لكـن لا تتوقـع لحظـة أن أقبـل هـذا كعـذر نهـائي.. نعـم؟.. مـاذا؟.. أفهـم هـذا.. أنـا قـد جربتـه فلـن تضيـف لمعلومـاتي شـيئًا..».

الفـتى مـتردد جبـان يختلـق الأعـذار وهـي تقنعـه بـشيء مـا.. ربمـا يتعلـق الأمـر بمصارحـة أهلـه أو الاعـتراف لزوجـة لا يحبهـا طالبًـا الطـلاق أو... المهـم أن هـذا الفيلـم العـربي الـذي أسـمعه بالقـوة سـوف يسـليني في هـذه الرحلـة، مـا دمـت غـير قـادر عـلى التركـيز فيمـا أقـرأ..

ظلت تصغي قليلاً ثم قالت:

ـ «الأمـر سـهل.. علبـة أقـراص منومـة كاملة..دعـك مـن أسـاليب الأطفـال.. لا تبتلـع قرصـين ثـم تقـول إنـك حاولـت وفشـلت.. لا.. لا.. ليـس اللـبن..!.. إنـه يعـوق الامتصـاص!.. سـوف يبـدو الأمـر كأنـه النعـاس.. صدقـني.. تذكـر مـا مـررت أنـا بـه.. تذكـر أنـني لـم أختـر هـذه الطريقـة الناعمـة الجبانـة..».

هنا سقط الكتاب من يدي.. عم تتكلم هذه الفتاة بالضبط؟!

كانت تواصل الكلام:

ـ «يقولـون إن المـرأة تفضـل أن تقتـل نفسـها بالسـم.. أمـا الرجـل فيسـتعمل طرقًـا أعنـف.. مـن المضحـك أن تنقلـب الآيـة، وأن تكـون المـرأة هـي البادئـة ثـم يجـبن الرجـل بعـد رحيلهـا!».

ثـم راحـت تضحـك بطريقـة هسـتيرية شـبه تمثيليـة، مطوحـة برأسـها إلى الـوراء...

ـ «هاهـا..!... لكـني سـأعرف كيـف أقنعـك!.. أنـت تعـرف (ميـادة) عندمـا تزمـع شـيئًا!!».

الآن بـدأت أفقـد روعـي.. جلسـت عـلى حافـة المقعـد حـتى أوشـكت أن أجلـس عـلى الأرض.. ثمـة شيء مـا خطـأ هنـا.. شيء مـا خطـأ بـلا شـك..

قالت الفتاة بعد دقيقة صمت:

ـ «لـم يكـن الأمـر ممتعًـا... الوحـدة.. الظـلام.. الرطوبة...صـوت بنـات آوى يـتردد في أرجـاء المـكان المقفـر فـوق رأسـك بالـذات.. ثـم تخـرج تلـك الشـياطين مـن تحـت الأرض لتعتـصرك.. دعـك من الجسـد الممـزق الـذي تعـرف أنـه جسـدك... هـذا هـو العـذاب بعينـه.. لكنـك اتخـذت قـرارًا ولابـد مـن تنفيـذه.. أعطيتـني عهـدًا وقـد حـان وقـت الوفـاء بـه.. وأنـت تعـرف أن (ميـادة) لا يمكـن خداعهـا... سـوف تجـدني وراءك في كل مـكان أيهـا الصـبي.. صدقـني.. سـوف تتمـنى المـوت للفرار ممـا أنـت فيـه.. لكـن المـوت هـو مـا أريـده بالـذات لـك.. عندهـا نكـون معًـا.. إلى الأبـد..!».

***

عند هذا الحد قررت أن الوقت قد حان للنهوض...

كلام هـذه الفتـاة لا يوحـي براحـة نفسـية... أعـرف أنـني اخطـأت

الفهـم.. أعـرف أن اسـتراق السـمع إلى محادثـة يعطيـك فكـرة غـير دقيقـة عـن محتواهـا.. لكـن هنـاك بعـض العبـارات الـتي لا أجـد لهـا تفسـيرًا، والـتي تشـعرني بـأن عربـة القطـار هـذه بـاردة فعـلاً.. واسـعة فعـلاً... مقفـرة فعـلاً..

أعتقـد أن الوقـوف مـا بـين العربتـين سـيكون أفضـل.. ولـم أجـرؤ عـلى اتهـام نفـسي بالجـبن، لـذا قـررت أنـني بحاجـة إلى لفافـة تبـغ..

هكـذا مشـيت مترنحًـا عـبر الممـر متجهـاً لطرفـه الـذي لا يضطـرني إلى المـرور جوارهـا..

هنـاك بـين العربتـين وقفـت.. أغلقـت البـاب ورحـت أنظـر لطـرف كتفهـا مـن النافـذة الـتي تتوسـط البـاب.. أنـا لسـت خائفًـا.. لقـد جئـت هنـا كي أشـعل لفافـة تبـغ.. ثـم تذكـرت ان هـذا العـذر واه لأنـني لا أدخـن...!

ونظـرت لسـاعتي.. نصـف سـاعة أو أكـثر قليـلاً حـتى (سـيدي جابـر).. لـن أنتظـر الوصـول إلى (محطـة مـصر).. سـأترجل وأجـد أيـة مواصلـة..

ـ «(ميادة) هنا؟!».

سـمعت الصـوت مـن خلفـي فأجفلـت واسـتدرت.. كان هـذا أحـد محصـلي القطـار.. رجـل فـارع الطـول أشـيب الشـعر لـه عـين يمـنى تظللهـا سـحابة.. وكان ينظـر إلى العربـة الخاليـة مـن النافـذة إياهـا ويتمتـم بالبسـملة..

نظر لي فرأى توتري.. قال وهو يشعل لفافة تبغ:

ـ «لا تخـف.. هـي لا تـؤذي أحـدًا.. لكنهـا تظهـر عندمـا تكـون العربـة خاليـة.. فقـط لا تسـتفزها وتظاهـر بأنـك لـم ترهـا.. طبعًـا لا مانـع مـن تـلاوة أيـة آيـات قرآنيـة تحفظهـا..».

لم أفهم مغزى ما يتكلم عنه فقلت همسًا:

ـ «هذه الفتاة مخبولة تمامًا!.. إنها.....».

وحركت أناملي جوار صدغي في حركة مألوفة، لكنه قال في جدية مقلقة:

ـ «لا.. منذ أشهر كانت وحدها في هذه العربة بالذات.. ثم لسبب لا نعرفه اتجهت إلى الباب فأزاحت المزلاج ووثبت من القطار المسرع!».

أطلقت شهقة فأردف هامسًا:

ـ «أنت تعرف هذه المشاكل النفسية والعاطفية التي تملأ عقول المخابيل... منذ ذلك الحين لم تكف عن الظهور في عربة القطار هذه كلما كانت خالية.. ليس منا من لم يرها.. إنها تسبب ذعر من يتصادف أن يقابلها لكنها لم تؤذ أحدًا قط.. وسرعان ما تختفي..».

رأى النظرة على وجهي فابتسم ابتسامة خفيفة وقال:

ـ «طبعًا لا أطالبك بالعودة إلى هذه العربة.. يمكنك أن تذهب إلى أية عربة أخرى بقية الرحلة..».

كان هذا لا يحتمل المناقشة.. ثمة احتمال أن يكون الرجل يتلاعب بي، لكن ما سمعته من المحادثة مريب حقًا... الفتاة انتحرتْ وتوقعت أن يلحق بها حبيبها على طريقة (روميو وجولييت) الشهيرة، لكنه لم يفعل.. وهي تطلبه من عالمها مستعملة الهاتف المحمول.. شبح عصري جدًا كما ترى..

هكذا استدرت لأقصد العربة المجاورة.. فجأة شعرت بتيار هوائي بارد.. إن الباب خلفي مفتوح..

وفي اللحظة التالية شعرت بيد قاسية باردة كالثلج تمسك بيدي..

استدرت مذعورًا فوجدتها هي.. هي ذاتها... عيناها متسعتان

وهـي تنظـر لي في توحـش وتقـول مـن بـين أسـنانها:

ـ «إلى أيـن أنـت راحـل؟... لقـد سـمعت المحادثـة!.. هـل تعتـبرني مجنونـة!؟».

تعـثرت الكلمـات عـلى شـفتي ونظـرت للـوراء لأسـتغيث بالمحصـل، فرأيتـه يبتعـد مسرعًـا إلى العربـة التاليـة دون أن ينظـر للـوراء.. إنـه الفـرار إذن.. سـوف ينسـاني بعـد دقيقتـين..

قالت لي وهي تضغط على يدي:

ـ «تعال واجلس في العربة.. لا تذهب لأي مكان..!».

مشـيت معهـا وأنـا أرتجـف.. فجلسـت في مقعـدي السـابق وعـادت هـي إلى مقعدهـا.. ومـن جديـد عـادت تتكلـم عـن أهـوال المـوت... تتنازعـني عاطفتـان.. عاطفـة تصديـق مـا قالـه لي المحصـل لأن الموقـف كلـه يبـدو كابوسًـا خاصـة مـع نظراتهـا وكلماتهـا.. وعاطفـة عـدم التصديـق.. لكـن مـا معـنى مـا تقولـه إذن؟

ونظـرت للـوراء إلى البـاب بـين العربتـين، فرأيـت وجـه المحصـل الـذي حـذرني يختلـس نظـرة لـيرى مـا يجـري.. تلاقـت عينانـا فهـز رأسـه بحركـة متعاطفـة وضـم أناملـه عـلى شـكل قمـع وحركهـا بمـا معنـاه: اصـبر وتحمّـل.. فهـي لـن تؤذيـك..

لن تؤذيني؟.. وهل الرعب ليس ضربًا من الإيذاء؟

والفتاة تواصل مكالمتها الطويلة:

ـ «في اللحظـات الأخـيرة لـم تعـزني إلا فكـرة أنـك سـتكون معـي.. الآن تـتردد.. طيلـة حياتـك تـتردد.. لكـن مـا قبلتـه منـك في السـابق لـم يعـد مطروحًـا.. إمـا أن تفعـل ذلـك بإرادتـك أو آتي لأفعلـه بنفسـي!.. هـه؟.. لا تصـدق؟!.. أنـت لا تعـرف مـا بوسـعي عملـه... لا تملـك أيـة فكـرة عـلى الإطـلاق عـن قوانـين هـذا العالـم الـذي أعيـش فيـه.. ولـو عرفـت

لما انتظرت لحظة..».

أخيرًا بدأ القطار يقترب من الجنة الموعودة.. معذرة.. أعني محطة (سيدي جابر).. نظرت للفتاة فاستدارت ورمتني بنظرة حارقة ثم نهضت بلا كلمة واحدة ووقفت في وسط الممر وظهرها لي..

اتجهت إلى الطرف الآخر لاهثًا وأنا أدعو الله ألا تلحق بي من جديد..

من جديد وقفت بين العربتين حيث استجمعت أنفاسي..

في هذه اللحظة وجدت أنني أقف جوار المحصل الأول الذي رأى تذكرتي.. الرجل البدين الذي يدلي عويناته على قصبة انفه..

رآني ورأى الفتاة من نافذة الباب، فقال دون أن ينظر لي:

ـ «(ميادة) هنا؟.. هي ليلة سوداء إذن!».

هززت رأسي موافقًا بحماس فأردف:

ـ «لا حول ولا قوة إلا بالله.. تخيل أن هذه كانت طالبة متفوقة.. ثم صارت مخبولة تمامًا.. إنها تركب معنا كثيرًا جدًا ولا أحد يجرؤ على طلب تذكرة منها.. تضع هذا الهاتف اللعبة على أذنها وتجري مكالمة طويلة لا تفهم منها شيئًا».

قلت وأنا ابتلع ريقي بينما أضواء المحطة تتوهج من النافذة:

ـ «لكن زميلك فارع الطول قال إنها وثبت من عربة القطار منذ أشهر. وإن هذا شبحها..».

نظر لي للحظة كأنما يتأكد من انني لا أمزح ثم قال:

ـ «أولاً ليس لي زميل فارع الطول في هذه الوردية... ثانيًا...».

قلت في إصرار وعصبية:

ـ «فارع الطول أشيب له عين يمنى تظللها سحابة..».

فتح الباب وبدا كأنما هو يتذكر ثم هتف في تأثر:

ـ «آه.. هـذا ينطبـق عـلى زميلنـا (مسـعد) رحمـه الله... لقـد تـوفي منـذ شـهرين... سـقط مـن هـذا البـاب بالـذات بينمـا القطـار مـسرع.. لابـد أنـك رأيتـه في رحلـة ماضيـة فاختلـط عليـك الأمـر.. هـذه (سـيدي جابـر).. حمـدًا لله عـلى السـلامة.. لكـن.. لمـاذا ترتجـف هكـذا يـا أسـتاذ؟.. ليـس الجـو بـاردًا بالخـارج إلى هـذا الحـد.. ليـس بـاردًا عـلى الإطـلاق!!».

سأبكي كثيرًا

عندما تنظر (غيداء) نحو قرص الشمس تشعر بأن عينيها ذهبيتان..

عندما تقف (غيداء) في الشمس تشعر بأن جلدها مشدود يوشك على التمزق.. وأن روحها من تحته تشرئب بحثًا عن حريتها.. هل ترى؟.. هذا وريد.. وريد آخر.. إنهما يلتقيان هنا.. وريد ثالث.. عندها تضحك وتقول لك: بشرتي من النوع الواهن.. إنها لا تتحمل أي شيء..

عندما تحزن (غيداء) تنظر للأرض، وتنسدل أهدابها على الخدين.. إنها تكره هذه الأهداب الساجية لأنها تتقصف دومًا داخل عينيها...

عندما يأتي الليل ترتجف (غيداء).. وتشعر بأن روحها تتجمد...

***

أنا كنت أحب.. لكني لم أخبر أحدًا بهذا الحب.. لم أخبر به (غيداء) وأعتقد أنني لم أخبر به نفسي صراحة، على أنني في الليالي المقمرة كنت أزيح الستار وأنظر إلى القمر وأفكر: (غيداء) تنتمي بشكل ما لهذا القرص المستدير.. إنه خال أو عم أو قريب بعيد لها..

لم أكن متزوجًا وقتها إن كان هذا قد خطر لك ببال، لكني ما زلت أشعر بالذنب.. أشعر بأنني اقترفت نوعًا من الخيانة الزوجية، لأنني يومًا ما منحت أجمل ما في نفسي لفتاة، فلما جاءت زوجتي

لـم تجـد شـيئًا إلا هـذه الـروح الخاويـة كخزينـة مـصرف أفلـس...

كانـت (غيـداء) هـي البدايـة وهـي النهايـة.. وقـد قـرأت (عـن عبوديـة الإنسـان) لـ (سومرسـت مـوم) فيمـا بعـد، فلـم أندهـش للتعلـق المذهـل الـذي كان يشـعر بـه نحـو سـاقية الحانـة (ملدريـد) (كلمـا فكـر في أذنيهـا الصغيرتـين)... (ملدريـد) خانتـه وأسـاءت لـه كثـيرًا لكنـه ظـل مكبـلاً بالأصفـاد لهـا غـير راغـب في التحـرر.. نعـم.. أنـا أفهـم هـذا لأني عشـته وتنفسـته وابتلعتـه وشربتـه..

نعـم كنـت أحـب (غيـداء)، لكـن (غيـداء) لـم تحبـني... هنـاك طعنـة أولى نتلقاهـا في حياتنـا وتظـل ندبتهـا باقيـة للأبـد، وأنـا قـد تلقيـت طعنـتي في ذلـك الوقـت، وحرصـت بـاقي حيـاتي عـلى أن أداريهـا وأداويها عـلى رأي الخواجـة (أدلـر) تلميـذ (فرويـد) المشـاغب...

(غيـداء) تختلـف.. ألا تـرى هـذا معـي؟.. هـل تذكـر محـاضرة (الأدب اليونـاني) إياهـا حينمـا كانـت جالسـة جـواري، وكانـت تـدون كلمـات في مفكرتهـا؟.. كنـا في الثانيـة بعـد الظهـر في يـوم قائـظ، وكان الحـر والإرهـاق يغمرانـني.. مـع ذلـك الشـعور الموجـع بالحاجـة إلى (حـب شيء مـا) الـذي نشـعر بـه في مـارس وإبريـل ويـؤدي لرسـوبنا في يونيـو..

كان المحـاضر يخـط على لـوح الكتابـة مصطلحات.. تلـك المصطلحات الـتي ابتكرهـا (أرسـطو) يومًـا مـا وهـو يضحـك ضحكـة شـيطانية، راغبًـا في أن يحيـل حيـاة الأجيـال القادمـة جحيمًـا..

ثم شممنا رائحة الشياط جميعًا..

أول مـن شـمه كانـت فتـاة هسـتيرية.. فـراح أنفهـا يرقـص كالأرنـب، ثـم بدأنـا نشـعر بـشيء مـا خطـأ... بعدهـا رأينـا أن قميـص المحـاضر يشـتعل عنـد الكتـف...

في اللحظـة التاليـة أطلـق الرجـل صرخـة، ووثـب شـابان كانـا في الصـف الأول وأخمـدا النـار بكفيهمـا.. وبعـد مـا زالـت الهسـتيريا راح السـؤال

يـتردد: كيـف حـدث هـذا...؟

ـ طالـب وقـح ألقـى لفافـة تبـغ لتمـس كتـف المحـاضر.. هـذه لـم تعـد كليـة.. إنـه نـاد ليـلي..

ـ إنه الحر.. ربما...

ـ الاشـتعال الـذاتي.. هـذه واقعـة تاريخيـة مدونـة وحدثـت لعـدد كبـير مـن البؤسـاء.. فجـأة يحترقـون فـلا يبقـى منهـم إلا رمـاد...

ـ احتـكاك الأليـاف الصناعيـة في القميـص.. هـذه الأشـياء تحـدث.. إن هـذه الكهربـاء الاسـتاتيكية....

لكـن أيًـا مـن هـذه التفسـيرات لـم يكـن ليصمـد... ولـو ألقـى أحدهـم لفافـة تبـغ لشـممنا ورأينـا.. الاشـتعال الـذاتي يسـتمر حـتى النهايـة الأليمـة، ولـم نسـمع عـن احـتراق قميـص مـن الحـر.. إذن تظـل نظريـة الكهربـاء الاسـتاتيكية هـي الأفضـل فيمـا عـدا أن:

ـ «هذا القميص من القطن الطبيعي!».

هكـذا انتهـت محـاضرة هـذا اليـوم.. نهايـة غـير سـعيدة لكنهـا فعالـة..

***

وكنـا جالسـين في الكافتيريـا أنـا وهـي.. لابـد أننـا كنـا في السـبعينات لأن قميـصي كان مشـجرًا لـو لبسـه طفـل اليـوم لاتهمتـه بالابتـذال، وكان سروالي مـن طـراز الشارلسـتون، وسـوالفي تحيـط بجانـبي فمـي، وأنـا أسـألها...

عندمـا تتحـاشى (غيـداء) عينيـك يصـير لـون عينيهـا بنيًـا.. وعندهـا تقـول:

ـ «(محفـوظ)... (محفـوظ).. ربمـا أنـت معجـب بي.. هـذا يدعـوني

للفخـر والرضـا.. لكـني لـن أتـزوج شـابًا لمجـرد أنـه معجـب بي.. ضـع نفسـك مـكاني.. أنـا لـن أكـون لـك ولا أي واحـد آخـر..».

لكـني كنـت أعـرف انهـا كاذبـة.. كلهـن يقلـن هـذا ثـم يتزوجـن أول عريـس ثـري يطـرق البـاب.. أنـا لا أروق لهـا وهـذا كل شيء.. ربمـا أنـا أقبـح مـن اللازم أو أغـبى مـن اللازم أو أسـمج مـن اللازم أو أفقـر مـن اللازم.. ربمـا أنـا كل هـذا معًـا.. سـأعرف هـذا فيمـا بعـد في غرفـتي امـام المـرآة...

كانـت في يـدي لفافـة.. وشـممت رائحـة التبـغ المحـترق تتصاعـد لأنفـاسي.. نظـرت للفافـة في دهشـة.. مـتى أشـعلتها؟.. لا أذكـر.. ثـم بحثـت في جيـبي فلـم أجـد أعـواد الثقـاب...

قلت لها في غباء:

ـ «اللفافة اشتعلت و.....».

لكنها حسبتني أداري خيبتي.....

هـل كان هـذا قبـل أن تشـب النـيران في بيتهـا؟.. نعـم.. بالتأكيـد... لأنـني أنقـذت حياتهـا في ذلـك اليـوم...

كنـت في غرفـتي أحـاول دراسـة شيء مـا.. عندمـا سـمعت تلـك الصرخـة تشـق السـماء، فهرعـت إلى الشرفـة لأرى اللهـب يتصاعـد مـن غرفـة (غيـداء).. (غيـداء) بالـذات!.. نعـم.. هـي جـارتي في الحـي الـذي أسـكنه.. ألـم أخـبرك بهـذا مـن قبـل؟... هكـذا هرعـت إلى بـاب شـقتنا حـافي القدمـين بالفانلـة الداخليـة و سروال المنامـة.. وهتفـت أمـي حينمـا رأتـني:

ـ «بسم الله الرحمن الرحيم!... هل جننت يا (محفوظ) يا بني؟».

لكـني كنـت في الشـارع فعـلاً قبـل أن تكمـل جملتهـا، ورحـت أثـب درجـات سـلم دارهـم.. وركلـت بابهـم بقـوة لأندفـع إلى الداخـل.. لـم

أكـن ذلـك الفـتى قـوي البنيـان عريـض المنكبـين، لكـن الادرينالـين الذي تدفـق في دمـي جعلـني كذلـك للحظـات.. لقـد انفتـح البـاب واندفعـت إلى غرفـة الأسرار.. قـدس الأقـداس... حيـث كانـت الكاهنـة العظمـى تـصرخ وقـد اشـتعل الفـراش الـذي يقـع بينهـا والبـاب.. لا اعـرف كيـف اسـتطعت ان أجـر الفـراش الثقيـل المشـتعل إلى جانـب الغرفـة وأسـمح لهـا بالخـروج، ثـم أهـرع إلى الحمـام - لا أعـرف مكانـه لكـن حـواسي صـارت مرهفـة كحـواس السـباع - لأمـلأ دلـوًا بالمـاء وأعـود لأسـكبه عـلى الفـراش.... في هـذه اللحظـة عـاد أبوهـا مـن الخـارج لـيرى المشـهد المفـزع.. لقـد كانـت وحدهـا في الـدار...

وسرعـان مـا تـكأكأ الجـيران وتعـاون الجميـع عـلى إخمـاد الحريـق.. لكـني ظفـرت منـه بهـذه الندبـة في حاجـبي.. هـل رأيتهـا؟.. نعـم.. إن إطـار النظـارة يخفيهـا لأنـني انتقيتـه بعنايـة.. عمـر هـذه الندبـة إذن عـشرون عامًـا.. هنـاك ندبـة في روحـي وندبـة في وجهـي.. كلاهمـا مـن أجـل الفتـاة ذاتهـا..

الـكل يشـكرني.. الجميـع يربـت عـلى كتفـي الـذي ألهبتـه النـيران.. لكـني أنظـر لجهـة واحـدة وأتوقـع شـكرًا مـن فـم واحـد...

***

عندمـا تبـدي (غيـداء) امتنانهـا لـك يحمـر وجههـا فيوشـك عـلى أن يشـع...

حـتى ونحـن في مكتـب الدكتـور (مصطفـى) أسـتاذ علـم النفـس بكليتنـا لـم تسـتطع أن تخفـي هـذه النظـرة.. قلـت لنفـسي:

- أتراهـا متأهبـة كي تغـير رأيهـا؟.. ثـم شـعرت بوضاعـة.. أنـا لـم أنقذهـا كي تحبـني.. لقـد أنقذتهـا لأنـني أحبهـا.. ثمـة فـارق مهـم هنـا..

يقول د. (مصطفى) وهو ينظر لها في شرود:

ـ «لا اعـرف إن كانـت استشـارتي قـد تفيدكمـا، لكـني لسـت خبـيرًا في هـذه الأمـور.. هـذا ليـس علـم نفـس».

قلت له في إصرار:

ـ «سـيدي.. أنـت مثقـف موسـوعي قبـل أن تكـون أسـتاذًا لعلـم النفـس.. وأنـا بحاجـة للاثنـين معًـا لهـذا أرغمتهـا عـلى المجـيء معـي..».

قال وهو يتصفح أحد المراجع:

ـ «(بايروكينيزيـس).. مـن اليونانيـة (بـور) بمعـنى (نـار) و(كينيزيـس) بمعـنى (تحريـك)... إنهـا القـدرة عـلى إشـعال الحرائـق ذهنيًـا أو تحريـك النـيران.. هنـاك مـن يمارسـونها بشـكل إرادي، وهنـاك مـن يمارسـونها بشـكل عفـوي..».

ثم نظر في وجه (غيداء) وقال:

ـ «وهناك من لا يعرفون أنها عندهم.. وهنا تكمن المشكلة..».

قالت (غيداء) في حماس:

ـ «أنـا أنتمـي للنـوع الثـاني.. لقـد بـدأت ألاحـظ هـذا منـذ عامـين.. كلمـا توتـرت أو تضايقـت تشـتعل الحرائـق في موضـع قريـب مـني.. برغـم هـذا لا أسـتطيع إشـعال النـار إراديًـا ولا اسـتطيع التحكـم فيهـا..».

قال وهو يغلق الكتاب:

ـ «لو صح هذا فانت ظاهرة علمية جديرة بالدراسة..».

قلت في حرج:

ـ «لنأمـل ألا يحـدث هـذا يـا سـيدي.. لكننـا نأمـل في البحـث عـن عـلاج..».

مـط شـفته السـفلى وقـال وهـو يحشـو غليونـه الأنيـق الـذي يحبـه لأنـه يعطيـه سـمت العلمـاء:

ـ «عـلاج؟... هـل هـذا مـرض؟.. في الحقيقـة لا أملـك مـا أقدمـه لـك، لكـني أرحـب بـأن تـأتي لمكتـبي في أي وقـت.. أعتقـد أن تمارين (التلقيـم الرجعي) سـوف...».

ـ «تمارين ماذا؟».

ـ «التلقيـم الرجعـي.. شيء كالـذي يمارسـه لاعبـو اليوجـا.. سـوف تسـاعدك حتمًـا عـلى التحكـم في هـذه الموهبـة..».

في هذه اللحظة راح الدخان ينبعث من الغليون..

نظر لها مندهشًا، فهزت رأسها في حرج وقالت:

ـ «لم أحاول شيئًا.. كنت متضايقة لأنه لا علاج لدائي.. لا أكثر..».

***

عندمـا تفارقـك (غيـداء) يظلـم وجههـا كأنـه انعـكاس للنـور الـذي يظلـم في صـدرك.. إنهـا ترنـو إلى الأفـق حـتى لا تـرى الدمعـة في عينيهـا وتقـول:

ـ «الآن انت تفهم لماذا لن أكون لك ولا لأي واحد آخر..».

ـ «لا تقـولي هـذا.. سـوف اجتـاز مدخـل داركـم مـرة أخـرى، لكـني لـن أكـون حـافي القدمـين.. سـوف أكـون متأنقًـا.. وسـوف أقنـع أبـاك..».

ضحكت بمرارة وقالت:

ـ «لا تكـن طفـلاً.. المشـكلة هـي أنـني لا أعـرف مـتى ولا أيـن يشـب الحريـق القـادم.. عندمـا ينـام زوجـي أم في غرفـة نـوم أطفـالي..؟.. سـوف أكـون خطـرًا داهمًـا عـلى مـن حـولي في كل وقت..لـن يعرفـوا أبـدًا مـتى يحترقـون..».

ـ «إذن؟».

ـ «إذن.. أنت تعرف انه لا عيب فيك. العيب في موهبتي المرعبة.. ربما أتعلم السيطرة عليها وربما لا.. أنا مستمرة في دروس التلقيم الرجعي مع د. (مصطفى) وأعتقد أنني أحرز نتائج جيدة..».

ـ «إذن هناك أمل..».

قالت وهي تتحاشى النظر لي:

ـ «لا تكن طفلاً مرة أخرى.. إن هذه المقامرة لا تعني أن تفقد بعض المال، بل تعني تحولك إلى رماد متفحم..!.. أرجو ان تنساني للأبد... هذا كل ما استطيع قوله..».

***

لم تحدث حرائق كبرى في الفترة الباقية من الدراسة..

هل تتحدث عن ذلك الحريق في مختبر الصوتيات؟.. ربما كان هذا ماسًا كهربيًا يا أخي.. النار التي اشتعلت في مؤخرة الحافلة؟.. هل رأيت من قبل حافلة تحترم نفسها لم تشتعل يومًا؟.. دعك بالطبع من اشتعال الشجرة التي تقع تحت دارها.. ما المشكلة.. كل الحمقى يلقون أعقاب السجائر من الشرفات، وهذه تحدث كوارث لو سقطت على أوراق جافة...

(بايروكينيزيس)؟... إشعال الحرائق بالعقل؟... كلم عن هذا واحدًا غيري...

انتهى العام الدراسي وانتهت الكلية.. وانقطعت أخبار (غيداء) لفترة لأنها ليست من معتادات الوقوف في الشرفة كما يحدث في أفلام (شادية) القديمة، وأمي لم تكن صديقة أمها...

ثم جاء يوم الخميس الموعود حينما صحوت من نوم القيلولة

لأسمع صوت الصراخ وأشم رائحة الدخان.. من جديد رحت أثب الدرجات نحو بيتها.. ما كل هذه الأضواء؟... لا وقت للتساؤل.. كان باب الشقة مفتوحًا.. هذه المرة كان هناك كثير من الناس.. كثير من الأضواء.. صخب.. امرأة بدينة تتظاهر بأنها راقصة.. وفي وسط الزحام كانت فتاة لا أعرفها تبكي وقد ابتل شعرها بالماء، وراحت مجموعة من النسوة يهدئن من خاطرها..

ـ «لا شيء.. لقد تمسك لهب الشمعة بشعرها.. لا تخافوا.. سليمة والحمدلله!».

أدرت عيني في المكان.. هناك (كوشة).. هذه (غيداء) بثوب الزفاف.. تتأبط يد.. دكتور (مصطفى) طبعًا وهما يبتسمان لي في بشاشة ورقة..

قالت لي وهي ترى النظرة البلهاء على وجهي:

ـ «لست أنا.. الشمعة هي السبب.. انا اليوم في قمة سعادتي!».

وفي غرفتي نظرت لوجهي الأحمق في المرآة.. هذا هو مبدأ التحويل transference الذي تكلم عنه (فرويد) كثيرًا... لقد تعلقت عواطفها بمحللها النفسي فكان ما كان.. وقلت لنفسي إن هناك احتمالين: إما أن التلقيم الرجعي نجح فعلاً وهي تعرف أنه نجح، وإما أن الدكتور (مصطفى) يعرف أنه لن يضايقها للأبد...

اليوم - بعد عشرين عامًا – أعتقد أنه لم يضايقها قط.. لكنه سيرتكب الخطأ يومًا ما كأي زوج يحترم نفسه وعندها.....

سأبكي كثيرًا وأنا أرمق كومة الرماد المتبقية منهما!

المكحلة

عندما وجدت – أنا الدكتور (محفوظ) - هذه الأوراق في حوذتي شعرت بما يشعر به طفل عندما يجد صندوقًا من الحلوى..إنه سعيد لكنها سعادة أكبر مما يتحملها قلبه الصغير.. إنه لا يعرف من أين يبدأ.. ثم يشعر في لحظة بعينها بأنه ليس سعيدًا على الإطلاق..

إن الأوراق في كيس بلاستيكي تم ربطه برباط مطاطي، وللكيس ذات المظهر الكئيب الذي يذكرك بأوراق تحاليل المرضى المزمنين التي يحملونها بالطريقة ذاتها.. وعلى كل طبيب أن يفك هذه الألغاز ويحاول ترتيب الأحداث بشكل منطقي..

أما كيف وصلت هذه الأوراق لي فقصة أرجو أن تعفيني من سردها..

لم تكن زوجتي في الدار وقتها. لابد أنها تبحث عن سيارة أجرة غير عارفة أنه (انتظار جودو الذي لن يجيء)... لهذا سيكون عندي وقت لا بأس به لقراءة كل هذا...

جلست في غرفة مكتبي.. أوقدت الأباجورة.. وعلى الدخان المتصاعد من كوب الشاي الساخن رحت أفتح الربطة.. وعلى الفور انتثرت الأوراق التي ظلت حبيسة كل هذه الأعوام.. بعضها اصفر عتيق يوشك على التحلل وبعضها أبيض حديث.. وكلها كانت تتنهد طربًا للخلاص.. إلا أنه بين الأوراق كان جسم معدني واحد يبدو كمكحلة جدتك إن كنت تذكر منظرها.. وأنا فضولي لكني لم أبلغ درجة حمق تجعلني أبتلع الدواء قبل قراءة النشرة المرفقة..

لـذا قـررت أن أبـدأ بـالأوراق الحديثـة وأحـاول أن أصـل لترتيـب منطقـي....

أول ورقة أمسكت بها كانت بخط أنيق وبأسلوب معاصر يقول:

***

اسمي (محمود عبد العزيز جابر).

منـذ زمـن سـحيق وهـذا الكيـس في حـوزتي.. لـم أكـن أعـرف عنـه الكثـير سـوى أنـه مغلـق وأن الأيـدي تناقلتـه جيـلاً بعـد جيـل، وأنـه من الأفضـل لي أن أبتعـد عنـه.. اليـوم أنـا رجـل كبـير ناضـج وقـد قـررت أن أعـرف مـا في هـذه الأوراق. كنـت وحـدي في تلـك الأمسـية وقـد خـرج الجميـع. زوجـتي تـزور أمهـا والأطفـال يلعبـون عنـد صديـق لهـم في ذات البنايـة. لقـد انتهـى حفـل (أم كلثـوم) الشـهري في المذيـاع منـذ دقائـق وعـاد للبيـت صمتـه الكئيـب. وضعـت الكيـس عـلى مكتبـي ورحـت أتفحصـه.

بداخلـه مجموعـة مـن الأوراق وجسـم معـدني يذكـرني بمكحلـة أمـي رحمهـا الله..

إنهـا أثـر عتيـق لا شـك في هذا...صنعـت مـن معـدن مطـلي باللـون الذهـبي، فتحتهـا فوجـدت أنهـا فعـلاً مكحلـة وإلا فمـا سر هـذا المسـحوق الأسـود الناعـم الـذي انتـثر عـلى المنضـدة أمامـي؟.. هـذه مشـكلة الأجسـام المغلقـة جيـدًا والـتي تنفتـح فجـأة.. عـلى كل حـال جمعـت الرمـاد وأعدتـه لوعائـه ثـم أمسـكت بـأول ورقـة...

غريـب هـذا الصـداع الـذي يحتويـني الآن.. إن رأسي يرتـج كبـذرة المانجـو.. هـل الطقـس حـار؟

دعنا من هذا ولنطالع المكتوب...

كانت رسالة.. رسالة على ورقة صفراء تقول:

***

أنا (جابر شفيق) الموظف بالحقانية. هذا الكيس القماشي في داري منذ سنين عديدة. لا أحد يعرف محتواه لهذا قررت أن أشبع فضولي وأفتحه لأعرف ما فيه. انتظرت حتى خلا البيت من أسرتي، لأن (نعمات) هانم مع الأولاد في زيارة لأبيها (حسين أفندي عبد العليم)، وقد تركتهم هناك وعدت للدار ثم وضعت على الجراموفون أسطوانة لمحمد عبد الوهاب..وعلى صوت آهاته وضعت الكيس على مكتبي.. وقررت أن أكتب رسالة لمن يأتي بعدي ليعرف محتواه. لكني وجدت بداخله مكحلة حسنة المظهر بها مسحوق أسود انسكب على المكتب، فجمعته كيفما اتفق وأعدته إلى المكحلة.

لا أكتم القارئ سرًا أنني شعرت توعكًا مفاجئًا ونظرت إلى ظهر يدي فبدا لي كظهر يد المجدور. لكني قدرت أنها خيالات من تأثير قلة النوم لأنني لم أظفر بشيء من الطعام بعد ولم أحظ بقيلولتي اليومية.

وجدت مع المكحلة رسالة على ورق أصفر متآكل بخط جميل منمق وبيان حسن تقول:

***

نحن (شفيق بك إبراهيم مراد) نكتب هذا لمن يأتي بعدنا، ويقفو خطانا. قد وجدنا هذا الكيس الخيشي في قبو دارنا المصونة،

فعجبنا أشد العجب، ودهشنا أيما دهشة، وأزمعنا أن نفتحه لنتعرف ما به من أسرار عظيمة وألغاز بهيمة. على أننا حينما عقدنا على ذلك العزم المتقشب ألفينا فيه مكحلة حسن شكلها ودق صنعها، وكأني بصانعها من خيرة أسطوات الأستانة وصناعها. بيد أن بعض محتواها انسكب على القمطر عندما أزمعنا فتحها فأعدناه إليها كيفما اتفق، وقد وجدنا في الكيس قرطاسًا خط على ورق بال متآكل. على أننا استشعرنا سقمًا بالغًا وحمى عالية، فهرعنا نسكب من الماء البارد على رأسنا ما يكفي لإبراء هذه الحمى وتخفيف هذا السقم. وسكبنا في خيشومنا بعض قطرات من الدواء.

ثم أننا فتحنا ذلك القرطاس الذي وجدناه.

وكان كاتبه طيب الله ثراه يقول ما يلي:

***

كاتبه (مراد بك السلحدار) من أعيان القاهرة المحروسة ورجال الأمير (كتخدا خوندا طولباي) حفظه الله. أنه بحمد الله تعالى والصلاة على رسوله الكريم في عامنا هذا عقدنا العزم على فتح الشكمجية التي وجدها خدمنا في الدار، وقد وجدنا قرطاساً بخط لا تتبينه العين، فاشتد عجبنا لهذا وازداد عزمنا تقشباً على استجلاء كنه هذه الشكمجية.

ولقد ألفينا مع القرطاس أداة من التي يصطنعها الصناع لتكحل بها النسوة عيونهن، ألا رحم الله جريرًا إذ قال:

إن العيون التي في طرفها حور

قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به

وهن أضعـف خلـق الله إنسانا

والـذي هـو أشـعر مـا قـال العـرب في الغـزل. عـلى أن بعـض ذلـك المسـحوق الأسـود تبعـثر فـوق عباءتنـا فنفضنـاه وأعدنـاه إلى حيـث كان ولات حـين منـاص. فقـد شـعرنا بـأن السـقم اسـتبد بنـا اسـتبدادًا لكـن هـذا لـم يفـت مـن عزمنـا المتقشـب عـلى قـراءة مـا خطـه الخطـاط عـلى ورق القرطـاس برسـم قـل مثيلـه ونـدر شـبيهه.

بيـد أننـا لـم نسـتطع فـك رمـوز تلـك الكتابـة الغريبـة أشـد الغرابـة، الـتي هـي إلى رسـوم الصبيـة في كتاتيبهـم أقـرب، وإلى تلـك الشـخابيط الـتي يرسـمها العامـة عـلى جـدران بيوتهـم أدنى. وهـي كتابـة رسـمت رسـماً عـلى ضرب مـن تلـك النباتـات الـتي يقـال لهـا (بـردي)، والـتي كان الفراعـين يصطنعـون الكتابـة عليهـا اصطناعـاً. لـذا عقدنـا العـزم عـلى أن ننسـخها نسـخًا حـتى يعلـم مـن ابتغـى العلـم فحـوى مـا وجدنـاه فيـه...

***

بعـد هـذا وجـدت أوراق بـردي عليهـا رسـوم هيروغليفيـة مـا.. عنـد هـذا الحـد توقفـت رحلـتي إلى المـاضي وعـدت إلى الحـاضر الـذي يعـج بالأسـئلة..

لقـد كانـت هـذه هـي الرسـالة الأولى. الرسـالة الـتي بعدهـا تحـكي الأحـداث ذاتهـا في فـترة زمنيـة أبعـد.. وهكـذا دواليـك.. حـتى آخـر رسـالة بالعربيـة ثـم تبـدأ المخطوطـات الهيروغليفيـة.

معـنى هـذا أن كثيريـن حاولـوا فتـح الكيـس قبـلي، منـذ كان في شـمكجية ثـم صـار كيسًـا خيشـيًا حـتى جـاء عـصر اللدائـن وصـار الكيـس بلاسـتيكيًا. لكـن الأغـرب أن أيـاً منهـم لـم يسـتكمل الرسـالة ليخبرنـا بمـا وجـده. هـذا داع قـوي كي أجـرب بنفـسي وليـس مـن رأى كمـن سـمع.

ولكن هناك أسئلة عديدة.

لماذا لم يكمل أحدهم رسالته؟

من وضع الرسالة في الكيس في كل مرة؟

ما محتوى تلك البردية التي يبدو أنها باللغة الهيروغليفية؟

لمـاذا شـعر كل واحـد مـن هـؤلاء بأنـه ليـس عـلى مـا يـرام بعـد مـا انسـكب المسـحوق الأسـود؟

قـررت أن أفتـح المكحلـة.. سـألقي نظـرة سريعـة عـلى محتواهـا وربمـا أرسـله لمـن يحللـه، وبعـد هـذا سـأكتب مـا رأيـت كي يعـرف الآخـرون.. إنهـا جامـدة.. لا أعتقـد أنهـا سـتنفتح.. هـوب!.. لقـد انفتحـت!.. يـا للكارثـة!.. لقـد تناثـر هـذا المسـحوق الأسـود غريـب الرائحـة عـلى مكتـبي.. لكـن لا مشـكلة.. سـأقوم بجمعـه وإعادتـه إلى المكحلـة...

هـل حـرارة الجـو تتزايـد؟.. لا أظـن.. لكـن مـا سر هـذا العـرق وهـذه الرجفـة في يـدي؟..

لا داعـي للهسـتيريا.. إنـه الانفعـال لا أكـثر.. سـأتفحص الآن هـذه المكحلـة بدقـة أكـثر..

.. تعالوا نلق نظرة معاً.....

أوتوستوب

أوائـل السـبعينات.. الهيبـيز ووشـم الـوردة و(مانسـون) وأغنيـة (هـاري كريشـنا هـاري راما).. والبيتلـز الذيـن عـادوا مـن التبـت وقـد اعتنقـوا البوذيـة وأدمنـوا المخـدرات. ثـورة الشـباب وحـرب فيتنـام.. لاحـظ أن الهيبـيز هـم أصـلاً شـباب فـروا مـن بيوتهـم لأنهـم يرفضـون الحـرب.. (البيـض الذيـن انتزعـوا الأرض مـن الحُمـر يرسـلون السـود بعيـدًا لقتـال الصُفـر)... وفي مـصر هنـاك حالـة الإحبـاط قبـل حـرب اكتوبـر وأغنيـة (الطشـت قالـلي)، بينمـا عـلى الجبهـة يقبـع الرجـال حقًـا في خنادقهـم يخططـون للعبـور..

مـع هـذه الحمـى العالميـة الـتي مـا زال علمـاء الاجتمـاع يحاولـون فهمهـا انتـشرت في مـصر عـادة غربيـة عجيبـة هـي الأوتوسـتوب.. نعـم هـي عجيبـة.. فقـط في الخـارج يمكنـك أن تتخيـل فتـاة طويلـة الشـعر تربـط شريطًـا حـول جبهتهـا وتلبـس الأسـمال وتحمـل عـلى ظهرهـا جيتـارًا.. تشـير لسـيارتك لتركـب معـك.. إلى أيـن؟.. لا يهـم.. في اللحظـة الـتي تريدهـا سـوف تبـدأ حيـاة جديـدة في مـكان جديـد مـع شـخص جديـد.. هـذا غريـب عنـا ولا مـذاق لـه.. يذكـرك بعـادة أكل (الملوخيـة) بالشـوكة الـتي يمارسـها البعـض..

لكـن - كي أختـصر - يجـب أن احـكي لـك قصـتي... هـذا أنـا في السـيارة (الداتسـون) الـتي يملكهـا (عـلاء) صديقـي.. طبعًـا لـم تكـن سـيارتي لأنـني لـم أكـن ثريًـا قـط.. كنـا طالبـين في الجامعـة وكان المسـتقبل ممتـدًا أمامنـا.. ممتـدًا كذلـك الطريـق الخـالي مـن السـيارات الـذي راحـت سـيارة (عـلاء) تنهبـه نهبًـا... كان مجنونًـا لكـني كنـت أكـثر جنونًـا منه..لهـذا مضينـا في هـذا الطريـق بـلا وجهـة معينـة.. ولـو أفقنـا لنجد

أننـا في ليبيـا لمـا اندهشـنا كثـيرًا..

كنـا نتكلـم عـن (غيـداء).. أنـت تعـرف (غيـداء) الآن.. وكنـت أرسـم عـلى وجهـي تعبـيرًا يقـول: هـي مجـرد فتـاة.. أنـا لا أهيـم بهـا حبًـا.. وكان يتكلـم عـن.. عـن (صفـاء)؟.. لا أذكـر الاسـم الآن.. وصـوت (جون لينـون) يـدوي مـن كاسـيت السـيارة هامسًـا: « تخيـل لـو كان العالـم واحـدًا.. تخيـل لـو لـم تكـن هنـاك حـروب.. ربمـا تتهمـني بأنـني حالـم لكـني آمـل في أن تنضـم إلينـا..».

***

يتحدثـون كثـيرًا عـن هـذه الظاهـرة حـتى يقـال إنهـا الأكـثر شـعبية في العالـم.. ظاهـرة شـبح راكـب الأتوسـتوب Phantom hitchhik-er.. يقـال إن هـذه الظاهـرة مقصـورة عـلى جنـوب افريقيـا واسـتراليا لكـن الدراسـة المدققـة توضـح أن كل مـكان في العالـم شـهد ظاهـرة مماثلـة...

القصـة تتحـدث دائمًـا عـن ضحيـة هلكـت في هـذا الموضـع بالـذات... حـادث مـن نـوع مـا... بعـد هـذا بأعـوام يمـر في النقطـة ذاتهـا عابـر سـبيل وحيـد في سـيارته فيفاجـأ بمـن يسـتوقفه طالبًـا الركـوب (أوتوسـتوب).. طبعًـا يتضـح متأخـرًا جـدًا أن هـذا شـبح الضحيـة..

عـلى كل حـال يقـول العارفـون بهـذه الأمـور إن هنـاك ثلاثـة سـيناريوهات محتملـة:

السـيناريو الأول: الشـبح يشـير للسـيارة لتتوقـف.. ثـم يركـب.. لأسـباب واضحـة يكـون هـذا الشـبح مـن الجنـس الآخـر.. وإلا مـاذا سـيدفع السـائق للتوقـف؟

السـيناريو الثـاني: فجـأة تصـدم السـيارة شـخصًا.. ويـنزل السـائق

المذعـور بحثًـا عـن ضحيتـه فـلا يجـد جثـة... ربمـا يكتفـي الشـبح بالظهـور أمـام السـائق (ليفـزع الجحيـم مـن أحشـائه) كمـا يقـول الغربيـون..

السـيناريو الثالـث: نـوع مفيـد مـن الأشـباح.. يقـوم بإيقـاف السـائق في موضـع الخطـر مـن الطريـق.. أي إنـه بهـذا يحمـي الأحيـاء مـن الحـادث الـذي قـضى عليـه هـو نفسـه....

في اسـتراليا هنـاك شـبح معـروف باسـم (مـاري العائـدة للحيـاة Res-urrection Mary) وهـي فتـاة ألقاهـا صديقهـا مـن السـيارة المسرعـة بعـد مشـاجرة.. هـي طريقـة عبقريـة لإنهـاء النقـاش مـع الأنـثى لكـن النتيجـة هـي أن الأخـت (مـاري) عـادت تظهـر عـلى الطريـق بعـد خمـس سـنوات طالبـة مـن العابريـن أن يوصلوهـا إلى المرقـص.. بعـد قليـل تختفـي مـن السـيارة.. بعـض القـرى في جنـوب أفريقيـا تعلـق عـلى الطريـق لافتـة (احترسـوا مـن الأشـباح!) بنفـس المنطـق الـذي نعلـق بـه لافتـات (عبـور مـدارس) أو (عبـور ماشـية) في بلادنـا..

ثمـة نقطـة أخـرى مهمـة بصـدد الأشـباح الـتي تمـارس (الأوتوسـتوب) هـذه.. كل مـن يحكـون هـذه القصـص تجمـع بينهـم صفـة واحـدة: هـم أشـخاص لا يمكـن أن تثـق بكلامهـم أبـدًا!

***

ولـم اكـن أنـا و(عـلاء) نـدرك شـيئًا مـن هـذا ونحـن نقطـع الطريـق بسرعـة جنونيـة... جـزء مـن هـذا الجنـون يعكـس توترنـا وقلقنـا بصـدد الغـد...

عـلى ضـوء كشـاف السـيارة اسـتطعت أن أرى ذلـك الشـبح الواقـف عـلى يمـين الطريـق.. في هـذه السـاعة؟... إنـني أحسـد الشـخص الـذي امتلـك مـن الجـرأة مـا يجعلـه يمـضي راجـلاً في هـذه الفـلاة في سـاعة

كهـذه.. لكـن مـاذا عـن كـون هـذا البطـل فتـاة؟!. كانـت تقـف هنـاك وتشـير بإبهامهـا عـلى طريقـة الأتوسـتوب الشـهيرة.. وكانـت تحمـل حقيبـة عـلى ظهرهـا كأنهـا مـن السـياح.. شيء واحـد كنـت متأكـدًا منـه.. لـن نتوقـف هنـا لأي سـبب..

قلت لـ (علاء) ونحن نقترب من الشخص:

ـ «لا تتوقف.. استمر!».

ـ «إنها فتاة.. لابد أنها بحاجة لعون..».

ـ «يـا أحمـق.. هـذه المواقـف تكـون كمائـن دائمًـا.. سـوف تقـرأ اسـمينا في صفحـة الحـوادث غـدًا وربما صفحـة الوفيـــ.....آي!».

كانـت الصرخـة بسـبب ارتطـام رأسي بحاجـز التابلـوه لأن الأحمـق – فعـلاً – داس الفرملـة ليقـف بالضبـط أمـام تلـك الفتـاة..

أغمضـت عيـني متوقعًـا طلقـات الرشـاش الـتي سـيفرغها فينـا أولئـك المطاريـد المتـوارون خلـف الأشـجار.. هـذه هـي اللحظـة المناسـبة... لكـن لـم يحـدث شيء..

فتحت عيني لأسمع المحادثة.. كانت الفتاة تقول:

ـ «نفس طريقك هذا.. سأنزل عندما نصل إلى العمران».

أشـار لهـا إلى المقعـد الخلفـي لتركـب.. الآن بـدأ الأحمـق يتوتـر ولـم يعـد عـلى طبيعتـه كأي رجـل يتعامـل مـع فتـاة جميلـة.. لـم تسـتطع فتـح البـاب لأنـه لا يمكـن فتـح أي بـاب في سـيارة (عـلاء)، لـذا ترجلـت لأفتـح لهـا.. كانـت جميلـة فعـلاً وإن أدركـت عـلى الفـور مـن ثيابهـا غـير المهندمـة وشـعرها الطويـل الـذي يكسـو خصرهـا أنهـا ممـن تسربـت لهـم ثقافـة (الهيبيـز)..

انطلقـت السـيارة مـن جديـد.. ورحـت في ذهـني أفكـر في أن هـذا غـير عـادل.. لـو كان مـن يشـير لنـا رجـلاً بائسًـا في مـأزق فعـلاً لمـا توقـف

(عـلاء).. لكـن أسـلحة الأنـثى ماضيـة كمـا تعلـم..

سـوف تخـرج المسـدس الآن وتدسـه في رأسي طالبـة أن نعطيهـا مـا معنـا مـن مـال ونترجـل، ثـم تأخـذ السـيارة وتتركنـا نجـرب الأتوسـتوب بدورنـا.. هـذه هـي اللحظـة المناسـبة..

سألها (علاء) السؤال المنطقي وهو ينظر إلى معالم الطريق:

ـ «ماذا أتى بك هنا في ساعة كهذه؟».

قالت وهي تنظر من النافذة:

ـ «هي قصة طويلة..».

ـ «هل لنا أن نتشرف بالاسم؟».

ـ «هذا لا يهمك في شيء..».

وضحكـت في وحشـية في سري... إن الصفعـات غـير المرئيـة تتـوالى عـلى خـدي صاحـبي.. لكنـه يتمتـع بـكل صفـات فاتـن النسـاء وأهمهـا أنـه عديـم الإحسـاس بالمهانـة.. (مـا عنـدوش دم) باختصـار شـديد..

قال لي وهو ينظر من فوق كتفه للخلف:

ـ «ناولهـا بعـض الشـطائر.. لابـد أنهـا جوعـى.. لقـد تناولنـا العشـاء في السـيارة لكـن هنـاك شـطائر و..».

قالت بطريقتها الباردة:

ـ «انا لا آكل... أبدًا..».

هكـذا واصلنـا السـير في خـرس تـام.. غريـب أمـر هـذا الطريـق.. إنـه بالفعـل أكـثر الطـرق عزلـة في مـصر كلهـا ومنـذ سـاعة لـم أر سـيارة واحـدة.. إن وجـود هـذه الفتـاة يجعـل المـرء عصبيًـا ولا أنكـر هـذا.. دعـك مـن أنهـا تتأمـل قفـاي باهتمـام غـير عـادي.. كيـف عرفـت؟.. ألـم تشـعر قـط بتلـك النظـرات الـتي تحـرق قفـاك عندمـا ينظـر لـك أحدهـم في حـدة؟...

بعد قليل بدأ (علاء) يتململ.. ثم أوقف السيارة إلى جانب الطريق وطلب منا أن نسمح له بثانية واحدة.. لماذا يا أخ (علاء)؟.. لم يرد.. لماذا يا أخ (علاء)؟.. في النهاية نفد صبره فصاح في غضب:

ـ «أوشك على الانفجار يا أحمق!...لقد شربنا الكثير من المياه الغازية!».

هكذا فهمت.. وهكذا ترك أضواء السيارة مضاءة وانطلق إلى جانب الطريق ليتوارى خلف مجموعة من الأشجار ... جلست أرمق سقف العربة وأنا اشعر بأن الصمت ثقيل إلى درجة لا تصدق..

ـ «إنني أذكر هذا المكان جيدًا..».

سمعت الصوت من خلفي فنظرت لها.. كانت قد مالت بذقنها إلى مسند المقعد حتى صار رأسها قريبًا جدًا مني.. وكان ضوء غامض ينعكس في عينيها فبدتا لا تنتميان لعالمنا هذا.. نظرت لها طالبًا تفسيرًا فقالت:

ـ «منذ أعوام كانت هنا فتاة وحيدة.. طالبة في كلية العلوم.. قتلت ودفنت تحت شجرة جميز ولم يعرف أحد مكانها أو يسمع عنها بعد ذلك.. شجرة جميز غليظة لا تخطئها العين.. وصورة الفتاة ما زالت تتصدر نشرات (خرج ولم يعد)..».

نظرت لها وسألتها السؤال الوحيد البديهي:

ـ «وكيف عرفت هذا؟».

قالت في غموض :

ـ «أعرفه..».

ثم نظرت لي بعينيها الغريبتين وهمست:

ـ «أنت متوتر.. أليس كذلك؟... هذا لأنكما شابان مهذبان.. لو كنتما شابين آخرين لكان التوتر من نصيبي أنا.. ألم يقل لك

أحـد إنـه مـن الخطـأ أن تتوقـف لطالـبي الركـوب أوتوسـتوب؟.. أنـت تعتقـد أنـه مادمـت أنـا انـثى وأنـت ذكـر فهنـاك اتجـاه واحـد للخطـر.. الحقيقـة أن التهديـد لعبـة يلعبهـا اثنـان.. الخطـر يـسري في الاتجاهـين كتلـك الأسـهم الـتي كنـا نرسـمها للمعـادلات الكيميائيـة..».

ثـم ضحكـت ضحكـة طويلـة كريهـة.. ربـاه!.. لمـاذا لا يـأتي (عـلاء)؟.. لا يتعلـق الأمـر بإفـراغ بحـيرة السـد العـالي عـلى مـا أعتقـد ...

قالت وهي لا تتزحزح عن جلستها:

ـ «أنت قلق بشأن صاحبك؟.... لا تقلق.. إنه الآن مستريح تمامًا!».

ثم انفجرت تضحك ضحكة مستهترة قاسية..

في هـذه اللحظـة كان تحمـلي قـد بلـغ أقصـاه.. وسرعـان مـا فتحـت البـاب المجـاور لي.. إنـه لا ينفتـح.. لا يوجـد بـاب ينفتـح في سـيارة (عـلاء).. أخـيرًا... وسـمعتها تقـول:

ـ «إهدأ قليلاً..! ... أنا لن آكلك!».

لكـني غـادرت السـيارة.. وسرعـان مـا رحـت أجـد السـير نحـو صـف الأشـجار الـذي تـوارى خلفـه (عـلاء)... ربمـا هـي تعبـث بي لكـني أفضـل أن أعـرف الحقيقـة وأنـا مـع (عـلاء)..

مشـيت وسـط الأعشـاب الطريـة والظـلام أتعـثر وأصيـح مناديًـا الفـتى..

هـل ابتعـد إلى هـذا الحـد؟.. مسـتحيل.. (عـلاء).. (عـلاء)... فجـأة شـعرت بيـد غليظـة تمسـك بيـدي فصرخـت..

ـ «ماذا دهاك يا أحمق؟».

قالها وهو يحكم إغلاق سرواله.. فقلت له وأنا أرتجف:

ـ «تلك الفتاة.. إنها مجنونة..».

ـ «لكنها جميلة.. أفضلهن على شيء من الجنون..».

ـ «لم استطع البقاء معها.. إنها تقول كلامًا غريبًا..».

راح يطلـق السـباب لاعنًـا الزمـن الـذي يرتجـف فيـه الرجـال خوفًـا مـن الفتيـات الوحيـدات.. وخرجنـا مـن وراء حاجـز الأشـجار إلى حيـث السـيارة.. فلـم نجدهـا!

راح يـصرخ في جنـون.. ويتهمـني بالعتـه والحمـق.. لقـد تـرك مفاتيـح السـيارة بداخلهـا.. هـذه أذكى عمليـة نصـب في التاريـخ.. الفتـاة أثـارت رعـبي حـتى تركـت لهـا السـيارة وفـرت بهـا!.. والآن علينـا ان ننتظـر مـرور سـيارة يتعطـف صاحبهـا ويقبـل ركوبنـا معـه!..

لم اصدق براعة الفتاة.. لقد لعبتها بشكل متقن فعلاً..

هكـذا مشـينا عـلى الطريـق المظلـم.. لـم أتلـق قـط كل هـذا القـدر مـن السـباب والإهانـات في حيـاتي.. لكـني لـم أرد لأنـني اسـتحققت كل حـرف..

لابـد أننـا مشـينا نصـف سـاعة وفجـأة لمحنـا ضـوءًا عـلى جانـب الطريـق.. هتـف وهـو يركـض ركضًـا:

ـ «السيارة!!».

بالفعـل كانـت هنـاك.. متوقفـة.. مضـاءة.. الأبـواب مفتوحـة.. المفاتيـح موجـودة..ولا أثـر للفتـاة.. إذن هـي ليسـت لصـة.. إنهـا داعبتنـا مداعبـة ثقيلـة لا أكـثر..

ركـب السـيارة وأدار المحـرك فاطمـأن إلى أنهـا مـا زالـت صالحـة للسـير.. لـم تتركهـا الفتـاة لأنهـا تعطلـت بهـا إذن..

هنـا نظـرت إلى المـكان مـن حولنـا ... هنـاك شـبح عمـلاق يطـل علينـا ككابـوس مـن خلـف حاجـز الأشـجار. قلـت لـه همسًـا:

ـ «تعال معي..».

انـتزع المفاتيـح ودسـها في جيبـه هـذه المـرة ثـم ترجـل وعينـاه

تتساءلان.. مشيت وسط الأشجار إلى أن وصلت إلى شجرة الجميز العملاقة.. أشعلت عود ثقاب ونظرت أسفلها.. هذه الكومة العالية لا تريحني.. برغم كل شيء يبدو لي أنها صنعت بيد بشرية..

ـ «عم تبحث؟».

لم أرد.. أشعلت غصن شجر جافًا ليدوم الضوء أكثر، ومددت يدي أنبش الطين الجاف.. ولم استغرق وقتًا كثيرًا حتى أخرجت كيسًا بلاستيكيًا صغيرًا متسخًا.. فتحته فوجدت به كراس محاضرات لم يتلف لأن الكيس حماه.. وعلى ضوء اللهب المتراقص وعلى الغلاف الداخلي قرأت: (مي محمد وهبي.. علوم كيمياء) ... وبعد صفحتين وجدت سهمًا من (تلك الأسهم التي تسري في اتجاهين)..

نظرت له ونظر لي.. وساد الصمت برهة.. ثم سألني:

ـ «ما رأيك؟.. هل نواصل الحفر أكثر أم نفر من هنا؟».

لم أكن أملك إجابة ...

بالفعل لم أكن أملك إجابة.

هدية الأرواح

لـم أثـق قـط في أيـة تجربة تحضـير أرواح حضرتهـا في حيـاتي.. لقد رأيت الكثـير لكـن فكـرة الخدعـة لـم تتخـل عـني قـط، مهمـا كان الوسـيط بارعًـا.. لقـد كان (كونـان دويـل) مؤلـف (شـيرلوك هولمز) يؤمـن بتحضير الأرواح ودعـا المشـعوذ الأشـهر (هوديـني) إلى تجربـة لاسـتحضار روح أم الأخـير.. تمـت التجربـة وتكلمـت الأم.. لكـن (هوديـني) لـم يبتلـع التجربـة... أولاً لـم تكـن أمـه تجيـد حرفًـا مـن الإنجليزيـة.. ثانيًـا كان اليـوم عيـد ميلادهـا فلمـاذا لـم تلمـح إلى ذلـك أثنـاء الجلسـة؟.. هـذه قصـة غريبـة ترينـا كيـف أن المشـعوذ لـم يصـدق تجربـة تحضـير الأرواح، بينمـا صدقهـا المؤلـف الوقـور العبقـري..

إلا ان هـذه الجلسـات بـلا شـك تجربـة نفسـية رهيبـة، قـادرة عـلى أن تزحـزح بعـض الحجـب الـتي تغطـي أجـزاء مـن أرواحنـا.. (يانـج) العالـم النفـسي الشـهير وجـد أن خـبرة تحضـير الأرواح مهمـة لأنهـا تكشـف عـن جـزء كبـير مـن خبراتنـا المدفونـة..

***

تلـك الشـقة في العجـوزة.. يذكـرك منظـر النـاس الجالسـين والمنضـدة والإضـاءة الخافتـة بـ (برتيتـة) القمـار في الأفـلام العربيـة القديمـة.. حـتى تتوقـع أن يظهـر (سـتيفان روسـتي) في أيـة لحظـة ليقـول: «برافـو يـا إكسـلنس».. لكـن الأمـر ليـس كذلـك.. مـا كنـت لأجلـس في أي مجلـس فيـه قمـار.. لكـني بالفعـل كنـت شـغوفًا أشـد الشـغف بمعرفـة مـا يجـري في جلسـات تحضـير الأرواح تلـك.

مـدام (فريـدة).. امـرأة أرسـتقراطية مسـنة مـن الطـراز الـذي يتـم إنتاجـه عـبر خـط تجميـع.. كلهـن نحيـلات عصبيـات شـعرهن أبيـض كالقطـن، وعـلى أكتافهـن شـال أسـود.. أمـا الباقـون فهـم الأسـتاذ (محـيي) والدكتـور (فهمـي) وآنسـة (ميـادة).. هنـاك أسـتاذ أدب إنجلـيزي هـو خادمكـم المتواضـع..

تقول مدام (فريدة) بصوتها الرفيع المتهدج:

ـ «الآن نبـدأ.. لـو كان هنـاك مـن يرغـب في التهريـج فليخـرج الآن.. إن النفـوس الخبيثـة تجـذب أرواحًـا خبيثـة.».

ثـم تأمـر الخـادم البلهـاء فتضـع أصيـص أزهـار قريبًـا منـا.. وتتجه إلى الجراموفـون وتضـع عليـه أسـطوانة.. يقـال إن الأرواح تحـب موسـيقا (موتسـارت) بشـكل خـاص.. هـذا هـو تأثير (موتسـارت) الشـهير..

تقول مدام (فريدة) وهي تنظر لي بعينيها الحادتين:

ـ «لو كان هناك من لا يصدق فلا أطالبه بشيء إلا الاحترام!».

قلت لها وأنا أشعر برهبة مبررة:

ـ «صدقيـني.. أنـا لا أصـدق لكـني أرتجـف خوفًـا.. يصعـب عـلى الخائـف أن يسـخر».

إنهـا هيبـة الرمـز... أنـا لا أؤمـن بحـرف مـن الديانـة الهندوسـية لكـني كنـت أرتجـف هيبـة عندمـا دخلـت أول معبـد هنـدوسي في حيـاتي.. هنـا يؤمـن أنـاس ويبكـون ويرتجفـون ويدعـون.. يمكنـني ألا أصـدق، لكـني سـأحترم المـكان بـكل تأكيـد لأنـه ملـوث بإشـعاعات التهيـب الـتي تركهـا مـن سـبقوني...

مـدام (فريـدة) في السـبعين مـن عمرهـا.. كانـت مجـرد امـرأة أرسـتقراطية إلى ان تـوفي زوجهـا.. راحـت تقـرأ في علـم الروحانيـات وسـافرت كثـيرًا وقابلـت كل مـن يزعـم قدرتـه عـلى الاتصـال بـالأرواح،

إلى أن استطاعت أن تتصل بزوجها وحدها.. وقد خفف هذا من جزعها.. تقول إنها تشعر براحة تامة عندما تعرف أنه معها.. لن افهم النساء أبدًا.. كيف أستريح لحظة واحدة وأنا أؤمن بوجود شبح معي في كل لحظة؟

بدأت المدام تهدي خبراتها للآخرين.. أعترف بأنها لم تطلب مليمًا، لكن كل واحد ممن يتعاملون معها قرر أن يجلب هدية صغيرة.. وصار هذا عرفًا.. خمس هدايا ثلاثة أيام أسبوعيًا معناها ستون هدية في الشهر!...

الأستاذ (محي) هو بطل هذه الجلسة لأنه قد فقد ابنته الشابة منذ شهر.. حادث مروع من الطراز الذي يجيد انتقاء ضحاياه وقد انهار المسكين تمامًا برغم أنه من ذوي الأعصاب القوية، لكن معرفة أخبار تجارب مدام (فريدة) جعلته يجد هدفًا لحياته..

الدكتور هو معالج الفقيدة.. الآنسة صديقتها الوحيدة.. انا صديق الطبيب.. هذا كل شيء..

ساد صمت رهيب ما عدا موسيقا الأخ (موتسارت)... ودعتنا السيدة إلى أن نتأمل مغلقي الأعين.. ثم نظرت نحو الأب المتلهف وقالت:

ـ «أنت أبوها.. لهذا على الأرجح سوف تترك لك Apport».

قالتها بالإنجليزية فلم نفهم.. هذه الكلمة لا وجود لها في القاموس على حد علمي.. وإن كانت قريبة من فعل فرنسي يعني (الإحضار)...

قالت مفسرة:

ـ «الـ Apport هي هدية الروح.. إنها تجلبها لمن تثق فيهم من الجلوس.. قد تكون شيئًا صغيرا تافهًا أو شيئًا ثمينًا.. بعض الناس

يطلبـون مـالاً وهـذا يـترك أثـرًا بالـغ السـوء لـدى الـروح.. أنـت أبوهـا لـذا يمكنـك أن تطلـب منهـا هديـة.. لكـن لتحتفـظ بهـا في سرك..».

كان هذا خطأ جسيمًا كما ستعرف فيما بعد...

ـ «هل أنت معنا يا (هالة)؟».

نعـم.. هـذا الشـعور المفاجـئ بالـبرد ليـس وليـد الصدفـة.. بعـض الأرواح تحـدث بـردًا شـديدًا عندمـا تصـل.. بعضهـا يسـبب الحـر..

ثـم أن السـيدة بـدأت تتلـو حـروف الأبجديـة بصـوت رتيـب وكأنهـا تمـلي رسـالة شـفرة:

ـ «أ.. ب.. ت.. ث.. ج.. ح.....».

فمـا أن وصلـت إلى حـرف النـون حـتى سـمعنا دقـة جعلتنـا جميعًـا نثـب متريـن في الهـواء.. لكـن السـيدة (فريـدة) لـم تتحـرك. فقـط مـدت يدهـا في ثبـات ودونـت في ورقـة حـرف (النـون).. ثـم واصلـت القـراءة....

ـ «أ.. ب.. ت.. ث.. ج.. ح.....».

هنـا سـمعنا الدقـة عنـد حـرف العـين.. يبـدو كأن الصـوت صـدر مـن منضـدة صغـيرة جـوار البـاب.. يـا للكارثـة!. هـذه أقـدم طريقـة لتحضـير الأرواح في التاريـخ.. الـ typtology كمـا أسـماها عالـم الروحانيـات (ألـن كاردك).. وفيهـا يتلـو الوسـيط الأبجديـة كلهـا إلى أن تصـدر الـروح دقـة مـا، عندهـا يكـون اختيارهـا هـو حـرف الأبجديـة الأخـير..

يتـم تدويـن الحـروف لمعرفـة مـا تريـد الـروح قولـه.. طريقـة معقـدة أقـرب إلى شـفرة مـورس، ويمكنـك الآن تخيـل كـم مـن الوقـت سـوف تسـتغرق هـذه المحادثـة الأبويـة.. لابـد أننـا سـنعود لبيوتنـا بعـد ثلاثـة أيـام..!

قالت مدام (فريدة) وقد خمنت ما أفكر فيه:

ـ «لا وجـود للزمـن في عالـم الأرواح.. إن لديهـا كل الوقـت.. كل الأبديـة..».

لكننـا لا نملـك الأبديـة.. لـو لـم أعـد للـدار قبـل الحاديـة عـشرة لجعلتـني زوجـتي الشـبح التـالي..

استغرقنا دقيقتين حتى قالت الروح (نعم.. أنا هالة)... ثم نصف ساعة حتى سألت أباها عن حاله.. وهكذا دارت محادثة الدقات هذه... فلابد أن مدام (فريدة) تلت الأبجدية خمسين مرة..

أنت تذكر قصة الأخوات (سكوت) حين كانت الأخت الكبرى (تطرقع) أصابعها في حذائها الضخم من ثم تحدث صوت الدقات هذه.. لكني أرى أصابع قدمي المدام (فريدة) في صندلها.. لابد من تفسير ما.. أين الخادم بالمناسبة؟؟....

لكن الأب المتحمس يرتجف تأثرًا ويقول:

ـ «نادتني (موحا).. لا أحد يعرف هذا اللقب سواها وأمها..!!.. ثم إنها ذكرت (مختار) الفتى الذي كان سيخطبها.. هذا سر بيني وبينها..!!!».

غطت (ميادة) وجهها وأعلنت أنها لا تستطيع البقاء أكثر.. لذا نهضت قبل أن تسمح لها المدام بذلك.. يبدو أن هذا خطأ فادح لأنها رمتها بنظرة نارية ولم تتكلم..

بعد نصف ساعة طلبت المدام من الروح الانصراف.. وانتظرنا متوترين لدقائق.. استمر الصمت فتنهدنا الصعداء...

نظر د. (فهمي) إلى المدام متسائلاً ثم أشعل لفافة تبغ...فطلبت منه واحدة لنفسها.. نفثت الدخان كثيفًا ونظرت لي قائلة:

ـ «ما رأيك يا دكتور؟».

هـزت رأسي ولـم أعـد أدري مـا أقـول.. لقـد كان هنـاك شيء.. لا شـك في هـذا.. لكـن مـن قـال إن هـذه روح؟...

قال الأب في تأثر وهو يمسك بيد السيدة:

ـ «لا أعـرف كيـف أعـبر لـك عـن امتنـاني.. كل مـا أرجـوه هو أن تسـمحي بتكـرار التجربة..».

قالت في وقار:

ـ «طبعًـا يـا أسـتاذ (محـيي).. هـذا هـو مـا أحـاول إثباتـه.. الـروح معنـا.. أحباؤنـا قريبـون جـدًا..».

هنا سمعنا دقة..

وثبنا جميعًا للوراء.. بينما تساءل د. (فهمي) في توتر:

ـ «هل الروح ما زالت هنا؟».

اتسـعت عينـا المـرأة بمعـنى أنهـا لا تعـرف.. ثـم دوت دقـة أخـرى.. هـذه المـرة عرفنـا مصدرهـا.. إنهـا مـن خـارج الغرفـة.. مـن الشرفـة ذاتهـا..

هناك من يدق باب الشرفة المغلق...

هتف الأب في حنان:

ـ «(هالة)!».

نظرت له السيدة في جزع وقالت:

ـ «عم تتكلم؟».

ـ «عن هدية الأرواح...!.. لقد جلبتها لي!».

اتسعت عيناها أكثر وهتفت:

ـ «ويحك..!.. ما الذي طلبته؟».

ـ «طلبـت أن تعـود لي ابنـتي.. هـذه هـي الهديـة الوحيـدة الـتي

أريدهـا!».

وثبنا جميعًا بينما صاحت السيدة (فريدة) في جنون:

ـ «هـل جننـت؟.. أتطلـب طلبًـا كهـذا؟.. قلـت لـك أن تطلـب شـيئًا رمزيًـا..».

ومن وراء باب الشرفة سمعنا الصوت العميق القادم من لا مكان:

ـ «باباااااااااا!».

جرى الرجل نحو الباب ليفتحه.. هنا صرخت المدام في هلع:

ـ «يـا لـك مـن مخبـول!... هـل تتخيـل أن تراهـا وقـد عـادت لـك؟.. بعـد الحـادث الـذي مزقهـا تدخـل لـك الآن؟... وبعـد شـهر ونيـف مـن وفاتهـا؟.. لا تفتـح هـذا البـاب!».

لكنه صاح وهو يعالج المزلاج:

ـ «ابنتي هي ابنتي حتى لو كانت أشلاء!».

ـ «باباااااااااا!».

هتفت المرأة في وهن:

ـ «امنعاه!.. إن ساقي لا تتحملان أن.....».

ثـم هـوى رأسـها عـلى المنضـدة.. لقـد فقـدت وعيهـا.. وهـرع د.(فهمـي) إليهـا يتحسـس نبضهـا عـلى حـين وقفـت أنـا عاجـزًا أرقـب الأب الـذي يفتـح البـاب الآن..

أخيرًا باب الشرفة ينفتح...

أنظر ما خلفه وقلبي يتواثب في صدري..

هنا أرى (ميادة) تدخل وهي تضحك في وحشية..

وفوجئت بالأب كذلك يضحك.. لم أره يضحك منذ زمن..

قال لنا:

ـ «أقـدم لكمـا ابنـتي العائـدة!.. بالأحـرى صديقتهـا (ميـادة)...إن الشرفـة مشـتركة بـين هـذه الغرفـة والغرفـة المجـاورة لهـا.. عرفـت هـذا مـن زيـارتي السـابقة..».

قالت (ميادة) :

ـ «عندمـا اتفـق الأسـتاذ (محـيي) عـلى جلسـة تحضـير الأرواح هـذه، فوجئـت بأخـت مـدام (فريـدة) تتصـل بـكل صديقـات (هالـة) تسـألهن عـن أدق تفاصيـل الفقيـدة.. عاداتهـا.. الـخ.. وجـاء دوري في تلقـي الأسـئلة، لـذا أدركـت أن القصـة كلهـا تتعلـق بالنصـب.. مـدام (فريدة) تجمـع كل التفاصيـل عـن الفقيـدة لتسـتعملها خـلال الجلسـة..».

قال الأب:

ـ «لهـذا قامـت (ميـادة) بتسريـب أخبـار لا صحـة لهـا.. لا يوجـد مـن يدعـى (مختـار).. هـل تتصـور أن يدللـوني أنـا الرجـل المحـترم باسـم (موحـا)؟.. ابتلعـت (فريـدة) الطعـم واسـتعملت هـذه المعلومـات المغلوطـة عـلى لسـان الـروح..».

قالت (ميادة) ضاحكة:

ـ «اتفقنـا - لـو تأكدنـا مـن أن المـرأة نصابـة – عـلى أن أغـادر الغرفـة ثـم ألعـب هـذه اللعبـة المرعبـة.. كانـت قـد أعـدت كراسًـا قديمًـا مـن كراريـس (هالـة) وأخفتـه في الحجـرة ليكـون هديـة الأب.. لكنهـا لـم تتوقـع أن يتمـنى شـيئًا مخيفًـا كهـذا.. هـي وحدهـا كانـت تعـرف أنهـا نصابـة، لـذا أصابهـا الهلـع عندمـا سـمعت صـوتي خلـف بـاب الشرفة».

جلست على مقعد ألتقط أنفاسي وسألت:

ـ «وصوت الدقات؟».

ـ «سـيناريو مرتـب بعنايـة مـع الخـادم.. إنهـا في غرفـة مجـاورة تسـمع الأحـرف ثـم تـدق. والجـدار خـادع يوحـي بـأن الصـوت مـن داخـل

الغرفـة.... لقـد وجـدت الأرملـة العجـوز طريقـة لا بـأس بهـا لكسـب الـرزق.. كل مـن يزورهـا يجلـب هديـة معـه وهكـذا تحصـل عـلى نحـو أربعـين هديـة كل شـهر.. ليـس هـذا أجـرًا ضئيـلاً..».

قال الأب في صرامة:

ـ «برغـم أنـني تمنيـت أن تكـون روح ابنـتي قريبـة، فإنـني أكره أن يسـخر مـني أحـد أو يتلاعـب بمشـاعري كأب..لهـذا أعـددت هـذا الانتقـام وأنا واثـق مـن أن (هالـة) راضيـة عمـا قمـت بـه.. هـذه المـرأة لـن تخـدع أحـدًا ثانيـة..».

هنـا قـال د. (فهمـي) في أسى حيـث وقـف جـوار العجـوز المنكفئـة عـلى المنضـدة:

ـ «لن تخدع أحدًا أبدًا!!».

ونظرنـا لـه في رعـب.. فكانـت الإجابـة واضحـة.. القلـب العجـوز لـم يتحمـل هـذه الدعابـة الثقيلـة.. أمـا عـن هـذا الصـوت فهـو خشـب الأرضيـة... لا تقـل لي مـن فضلـك أنهـا دقـات جديـدة.. لا تقـل لي إن مـدام (فريـدة) ترسـل لنـا الآن رسـالتها الأخـيرة.

العشاء

دعـوتي إلى العشـاء هـذه جـاءت عـلى غـير موعـد كمـا تعـرف يـا (شريـف).. لـم أتوقـع ان أقابلـك في هـذا الحفـل.. انـت تعـرف أننـا لـم نلتـق منـذ عشريـن عامًـا عـلى الأقـل.. ثـم رأيتـك أمامـي فجـأة، ومعـك تلـك الأمريكيـة النحيلـة القبيحـة..

هنـاك نـوع مـن النضـج تبلغـه التفاحـة كلمـا تقـدم بهـا الزمـن.. في لحظـة بعينهـا تصـير التفاحـة تفاحـة كمـا أراد لهـا الله، وكمـا تراهـا في كتـب الأطفـال، وكمـا سـقطت يومًـا عـلى رأس الخواجـة (نيوتـن). هـذه هـي لحظـة الاكتمـال الـتي قضيـت حياتـك تحـاول بلوغهـا يـا (شريف).. لا أذكـرك إلا شـخصًا عاديًـا باهتًـا، لكـن لشـد مـا دب فيـك التغـير.. يمكنـني القـول إن ذروة نضـج التفاحـة هـذه هـي بدايـة النهايـة.. أنـت عـلى قمـة الهـرم الآن ولسـوف تـنزل غـدًا.. غـدًا تتغضـن وتهـرم..

أخبرتـني إنـك سـافرت إلى الولايـات المتحـدة وتزوجـت (مـاري دونـر) عالمـة الأنثروبولوجـي الأمريكيـة.. وأنهـا اصطحبتـك معهـا حـول العالـم.. كنـت طبيبًـا لكنـك لـم تعـد تذكـر شـيئًا عـن الطـب لأنـك اندمجـت بالكامـل في هـذا العالـم المبهـر: (الأنثروبولوجـي).. صرت مصـورًا ومحـررًا لمـا تقـوم بـه زوجتـك..

ـ «هنـاك فيلمـان عـن جـزر (فيجـي) اشـترتهما منـا (ناشـونال جيوجرافيكـس) بسـعر خيـالي».

كان هـذا مثيرًا.. لـم ألـق كثيريـن مـن أصدقـاء الطفولـة ممـن صـاروا يعملـون في الأنثروبولوجـي.. أكثرهـم صـاروا مراقبـين ماليـين وإداريين.. والمحظوظـون منهـم صـاروا مديـري عمـوم أو مفتـشي ضرائـب..

أذكر كيف أنك أصررت على دعوتي لدارك يا (شريف) ومعي زوجتي والأولاد.. أنت لم تتجب بعد لهذا تدعو الكثير من الأصدقاء..

أذكر كيف أنني أعددت الأولاد لهذه الزيارة وضربت هذا وركلت ذاك، ووعدت بأنني سأحطم رأس أول من يكسر طبقًا أو يدخل الملعقة في أنفه عند مضيفنا.. هذه هي مدرسة (جحا) التربوية الشهيرة: العقاب قبل الخطأ لا بعده، فهذا يجعلهم أكثر حذرًا.. خاصة أنك لن تستفيد شيئًا لو عاقبت بعد حدوث الخطأ..

وصلنا في الموعد إلى تلك الشقة التي استأجرتها في (الدقي)، ففتحت لنا الباب يا (شريف) ورحبت بالأسرة كلها.. لا تؤاخذني.. لكن زوجتي اندهشت جدًا من مرأى زوجتك.. فإذا كان المرء سيتزوج ساحرة عجفاء فلماذا يجب أن تكون أمريكية؟... إن زوجتك بالتأكيد تختلف عن صورة الحسناء الشقراء زرقاء العينين المرتبطة في أذهاننا بلفظة (أجنبية)، لكني أفهمت زوجتي أنها لا تعرف شيئًا على الإطلاق.. زوجتك فازت بك بعقلها لا بحسنها.. قالت زوجتي:

ـ «إذن لماذا لم يتزوج (أينشتاين) ويريحنا؟».

زغرت لها كي تصمت قليلاً.. بينما جاءت زوجتك تدعونا إلى المائدة...وجلسنا نتبادل أطراف الحديث.. أحكي لها كيف كنت زميلي في المدرسة وكيف اعتدت أن ألوث كراسك بالحبر، وكيف إنك كنت تختلف عنا بذلك الطموح المستعر لتجربة كل ما هو غريب. كان الحديث يتلون بين الإنجليزية والعربية إذا تعلق الأمر بزوجتي والطفلين.. ثم صار بالإنجليزية تمامًا كي تشترك زوجتك فيه...

هناك لحم.. لحم متبل بالصلصة البنية.. تذوقته وبدا لي لذيذًا فابتسمت لزوجتك.. ثم إنها جاءت بسلطانية حساء وراحت تغرف لنا منه.. عصرة ليمون هنا وهناك.. لذيذ لكنه كثير التوابل.. لم

أعـرف هـذا عـن المطبـخ الأمريـكي لـو كان عندهـم مطبـخ..

هنـا بـدأت أنـت تحـكي خبراتـك الـتي عرفتهـا عـن علـم الأنثروبولوجـي خـلال هـذه الأعـوام.. قلـت لي:

ـ «إن مـا أثـار دهشـتي هـو مـا عرفتـه عـن أكل لحـوم البـشر أو (الكانيبالـيزم)... مـن الغريـب أننـا جميعًـا نمـت بصلـة قـربى لأجـداد كانـوا يمارسـون هـذا الطقـس.. هـل تتصـور هـذا؟... بعـض الجينـات الـتي وجدهـا العلـم في خلايانـا لا تفسـير لوجودهـا إلا حمايتنـا مـن تبعـات هـذا النشـاط المرعـب.. لقـد وجـد الأثريـون عظامًـا بشريـة في أوعيـة طهـي عمرهـا نصـف مليـون عـام في الصـين..».

تذكـر أنـني نظـرت لـك في حـيرة.. مـا الـذي جعلـك تتذكـر هـذه السـيرة (المهببـة) ونحـن نتنـاول الطعـام؟.. قالـت زوجتـك لا فـض فوهـا: «كلمـة Cannibalism أي (أكل لحـم الجنـس ذاتـه) مشـتقة مـن لفظـة (كاريـب) الأسـبانية الـتي تصـف قبائـل (الانتيـل).. لقـد مـورس أكل لحـم البـشر عـبر التاريـخ في خمـس حـالات لا غـير:

١- أثناء المجاعات.. ٢- في المدن المحاصرة.. ٣- بسبب التعود..

إن بعض البدائيين كانوا يحبون مذاق هذا اللحم بالذات..

٤- كنـوع مـن المبالغـة في إيـذاء العـدو.. لا تنكـر أن هنـاك سـادية لا بـأس بهـا في هـذا الفعـل..

٥- وأحيانًـا مـورس كنـوع مـن العـلاج.. إن التهـام عـدوك ينقـل لـك قدراتـه كمـا يعتقـدون».

كنـت منزعجًـا أمـا زوجـتي فلـم تكـن تتابـع الحديـث، ولـم تبـد مهتمـة إلا بمعرفـة مـن أيـن اشـتريتم هـذه الأطبـاق الخزفيـة الجميلـة.. أمـا عـن الطفلـين فلـو فهمـا لـراق لهمـا هـذا الموضـوع بالـذات.. لا شيء يعجـب الأطفـال مثـل مواضيـع أكل لحـوم البـشر والعفاريـت وهـذه

الأمـور الرقيقـة..

قلـت وأنـت تـشرب الحسـاء بـرقي واضـح: «عـلى كل حـال يبـدو أن أكـثر قصـص أكل لحـوم البـشر في التاريـخ مختلقـة.. هنـاك إشـاعات قيلـت عـن السـوفييت أثنـاء حصـار (لينجـراد) في الحـرب العالميـة الثانية...وهنـاك إشـاعات قيلـت عـن الصينيـين أثنـاء المجاعـة والثـورة الثقافيـة. تلاحـظ هنـا أن الإشـاعات تـدور حـول شـيوعيين.. طبعًـا يمكـن أن نخمـن مصدرهـا..».

سألتك في حيرة:

ـ «هل.. هل هناك من أكل لحم البشر في العصر الحديث؟».

قلت ضاحكًا يا (شريف):

ـ «كثـيرون.. هنـاك واحـد مشـهور في الولايـات المتحـدة اسـمه (إد جـين)، هـو المـادة الخـام الـتي ألهمـت الـرواة والسـينمائيين بحشـد مـن الأفـلام منهـا (صمـت الحمـلان) و(سـايكو) و(مذبحـة منشـار الشريـط في تكسـاس).. هنـاك كذلـك الطالـب الياباني (ساجاوا) الـذي التهـم صديقتـه الهولنديـة وهمـا يدرسـان في (السـوربون).. واسـتطاع أبـوه الـثري أن ينقـذه لأنـه أثبـت أنـه مخبـول.. اليـوم هـذا الطالـب مؤلـف شـهير لـه مراجـع مهمـة عـن هـذا الموضـوع..».

رحـت أقطـع قطعـة أخـرى مـن اللحـم.. أعتقـد أنـه غريـب المـذاق فعـلاً.. لكـني أعـرف أكـثر مـن غـيري مـا يفعلـه الوهـم في النفـوس... ربـاه ,.. ليتـك تغـير هـذا الموضـوع.. قلـت لـك:

ـ «هل أحببت الحياة في جزر (فيجي)؟».

قلت لي باقتضاب (نعم) ثم واصلت الكلام:

ـ «في عـام ١٩٧٢ سـقطت طائـرة تقـل فريقًـا رياضيًـا مـن (أوروجـواي) في جبـال الأنديـز.. واضطـر الناجـون لالتهـام مـن ماتـوا.. وقـد تـم

إنقاذهـم بعـد شـهرين.. هـذه قصـة شـهيرة جـدًا كتبـت عنهـا عـدة كتـب.. وهنـاك قصـة جماعـة (دونـر) الشـهيرة عـام ١٨٤٦.. كانـوا مجموعـة تتكـون مـن ٨٧ مـن المهاجريـن الأمريكيـين سـافروا للغـرب نحـو (كاليفورنيـا)، لكـن الجليـد احتجزهـم في (أوتـاه).. مـات أربعـة وهكـذا وجـد الباقـون أن عليهـم التهـام اللحـم البـشري.. في البدايـة أجـروا قرعـة لكنهـم لـم يجـدوا الشـجاعة لتنفيـذ مـا أملتـه هـذه.. فكـروا في أكل الأدلـة الهنـود (هـذا نمـوذج واضـح لرقـة المشـاعر الغربيـة) لكـن هـؤلاء فضلـوا الفـرار وسـط الثلـوج.. هكـذا اضطـر البؤسـاء لأكل مـن ماتـوا منهـم.. بعضهـم فضـل الانتحـار وبعضهـم جـن.. ولـم ينـج إلا نصفهـم في ينايـر ١٨٤٧..».

هنا بدأت أغضب منك يا (شريف).. فعلاً.. وقلت في عصبية:

ـ «ما السبب في إصرارك على هذا الموضوع أثناء العشاء؟».

ابتسـمت أنـت في غمـوض وتبادلـت نظـرة مـع زوجتـك.. وواصلـت الـكلام:

ـ «مـن الأسـماء المهمـة كذلـك في تاريـخ هـذا الطقـس قبائـل (أناسـازي) في أمريـكا الشـمالية، والأزتـك وجـزر (فيجـي)..».

هنا قلت باهتمام:

ـ «(فيجي).. هل رأيت شيئًا كهذا في (فيجي)؟».

ـ «لا.. لـم يعـد هـذا الطقـس يُمـارس هنـاك لكـن هنـاك الكثـير مـن الحكايـات عنـه».

هنا صاحت زوجتك في حماس بالعربية المهشمة:

ـ «هل من يرغب في المزيد من اللحم؟».

تصايـح الأطفـال أن نعـم.. هـذا طبيعـي.. أنـا مـن الطبقـة المتوسـطة ومـا زال أكل اللحـم والمانجـو يحدثـان في نفـس أسرتي نوعًـا مـن

الشعور بالذنب.. فكرتي عن الثراء هي التهام اللحم والمانجو بلا حساب.. لكني زغرت لهم كي يتأدبوا قليلاً..

قالت زوجتك:

ـ «يزعم علماء التاريخ أن الكانيبالزم مورس كذلك على نطاق واسع في الصين القديمة..».

قلت لها وأنا أضع الشوكة جانبًا:

ـ «معذرة.. لكن هل هذه فكرتك عن تسلية الضيوف أثناء العشاء؟؟.. أنا لا أفهم..».

قلت يا (شريف):

ـ «الحقيقة أن هذا الطقس القديم ساحر.. إن الكلام عنه مثير فعلاً.. إنه نوع من مداعبة أكبر مخاوفنا النفسية الكامنة في مؤخرة وعينا: أن نؤكل.. تصور ان مفكرًا مكسيكيًا اسمه (ريفيرا) كتب يقول: حينما تصل الحضارة إلى مستوى معين وتتحرر من كل التابوهات والخرافات الحالية، فلسوف يسمح بالكانيبالزم بشكل قانوني..!».

ـ «إنه رجل مريض..».

ورحت أنظر إلى اللحم.. أنا كذلك مريض.. أدرك هذا جيدًا..

هنا قلت لي يا (شريف):

ـ لماذا لا تأكل؟.. انا مصر أن على المرء أن يجرب كل شيء.. كل شيء!.. أنا أيضًا تمنعت في البداية ثم بدأت أجرب.. زوجتي علمتني أن أجرب.. حينما ترى أطعمة قبائل (البوشمان) أو بعض المأكولات الهايتية، توشك على فقدان وعيك.. ثم تبدأ تتساءل عن جدوى الحياة التي تأتيها وتفارقها من دون أن تجرب كل شيء..

لقد تعلمنا من (فيجي) أشياء كثيرة، و هذا اللحم جئنا به معنا من الولايات المتحدة.. لم تفتش حقائبنا..».

هنا وضعت السيدة المزيد من اللحم في طبقي وقالت:

ـ «لاحظ أن أكل لحوم البشر لا يعتبر جريمة في الولايات المتحدة.. إن خيال المشرع لم يصل لهذه الدرجة.. المرات التي حوكم فيها أكلة لحوم بشر، أعدموا بتهمة القتل لا أكل لحوم البشر..!».

كنت أنظر للطفلين وهما يأكلان في نهم، وزوجتي تتأمل الشوك والملاعق محاولة معرفة سعرها.. وكان عقلي يسترجع هذه الكلمات.. ماذا كان اسم زوجتك؟.. ما اسم تلك الجماعة التي احتجزت في الجليد في يوتاه؟... (دونر)؟... البعض ظلوا أحياء.. البعض نقلوا ما تعلموه لأجيال أخرى.. هل من يرغب في المزيد من اللحم؟.. انا مصر أن على المرء أن يجرب كل شيء.. كل شيء!

ورفعت عيني نحوك لأجدك ترمقني في ثبات يا (شريف) وتقول لي:

ـ «أردت وزوجتي أن نجري تجربة مهمة.. هل يمكن للرجل العصري أن يتحمل هذه التجربة ويستمتع بها؟.. يجب أن تقول لنا انطباعاتك بدقة..!!».

لم أرد..

فقط نهضت في حدة وانتزعت الطفلين من مكانهما، وجررت زوجتي جرًا نحو الباب وهي تحتج:

ـ «لكن.. لم نتناول الفاكهة بعد!!... أترك لنا فرصة نغسل فيها أيدينا!.. هل جننت؟».

فعلاً كنت قد جننت..

ولم أقل لك كلمة واحدة.. لقد اتجهت إلى الباب وأقفلته ورائي

بقـوة هـزت البنايـة هـزًا.. وفي البيـت حرصـت عـلى ألا تبقـى ذرة مـن هـذا العشـاء اللعـين في معـدة أحدنـا..

***

اليـوم – بعـد شـهرين مـن تلـك الحادثـة – تلقيـت ذلـك الخطـاب منـك.. لـم أرد عـلى أيـة مكالمـة منـك وتحاشـيتك كالطاعـون.. لـو كنـت متأكـدًا ممـا أقـول لأبلغـت الشرطـة.. لكـني فتحـت رسـالتك مـن بـاب الفضـول فوجـدت نسـخة مـن مقـال نشرتـه زوجتـك في مجلـة علميـة مختصـة بـ (الأنثروبولوجـي).. وكان عنـوان المقـال هـو: «مـدى الاسـتجابة للإيحـاءات عسـيرة التصديـق لـدى عينـات منتقـاة مـن الأسر المتوسـطة في منطقـة الـشرق الأوسـط». كان العنـوان معقـدًا لكنـه واضـح.. ربمـا كنـت تتسـلى عـلي يـا (شريـف).. ربمـا كنـت توحـي لي بـشيء غـير حقيقـي لتـدرس رد فعـلي كمـا يقـول المقـال.. لكـني أفضـل أن أحتفـظ باشـمئزازي السـابق.. كيـف أعـاودك واسـم أسرة زوجتـك هـو (دونـر) فعـلاً كمـا كتـب في المقـال؟.. كيـف أعـاودك وأنـا لـم أرتـح قـط لمـذاق هـذا اللحـم؟.. كيـف أعـاودك وأنـا أعـرف غرابـة أطـوارك وولعـك بـكل مـا هـو غريـب؟.. ربمـا في مجلـة مـا يوجـد مقـال آخـر عنوانـه : « مـدى الاسـتجابة لمـذاق اللحـم البـشري لـدى عينـات منتقـاة مـن الأسر المتوسـطة في منطقـة الـشرق الأوسـط».

لكني لن أرى هذا المقال أبدًا..

أعرف أنني لن أراه أبدًا.

حكايات الظلال

قال لي (مصطفى الحمزاوي) وهو يقلب السكر في كوب الشاي:

ـ «كلها جرائم بشعة، وكلها جرائم منفذة بعناية.. هذان نقيضان لا يجتمعان إلا نادرًا.. من الصعب أن يخطط القاتل المتوحش لجريمة دقيقة.. ومن الصعب أن يرتكب عبقري جريمة بشعة.. هذا هو اهم ما يلفت نظرك في هذه الجرائم».

هل قابلت العقيد (مصطفى) من قبل؟.. إنه ابن خالي.. رجل شرطة بالمعنى الحرفي للكلمة.. إنه يكره المجرمين فعلاً وينحاز للضعفاء بالكامل.. أنت تعرف أنني موضوعي ولن اجعل منه ملاكًا لمجرد أنه ابن خالي.. فقط أقول إنه رائع لسبب واحد هو أنه رائع..

كنا صديقي طفولة، وكان يحب شقيقتي منذ سن المراهقة وإن لم يعترف بهذا إلا عندما صار في سن الزواج.. وهكذا صار زوج أختي.. صحيح أن داء السكر متفش في الأسرة وزواج الأقارب سوف.. لكن هذا ليس موضوعنا على كل حال.. لقد دخل هو كلية الشرطة بينما اهتممت أنا بالأدب الإنجليزي..وقد اعتاد أن يحكي لي عن القضايا الغامضة التي تحيره ليعرف كيف أفكر.. أحيانًا يكون رأيي عبقريًا وأحيانًا هو الغباء ذاته..

عاد (مصطفى) يقول:

ـ «مثلاً هناك ذلك المحاسب الذي اختنق في مكتبه.. من الواضح أن المحاسب قد خدر، ثم شغل أحدهم المدفأة في شهر أغسطس وأغلق الغرفة بإحكام.. ثم غادر المكتب وبطريقة ما أحكم غلق

الأبـواب مـن الداخـل.. ميتـة بشـعة لكنهـا متقنـة كذلـك.. خـذ عنـدك أيضًـا الموظـف الـذي تـم تعديـل جرعـات الإنسـولين الـتي يحقـن بهـا نفسـه لعـلاج السـكر.. كان يعيـش وحيـدًا وقـد تسـلل أحدهـم إلى شـقته واسـتعمل نوعًـا مـن الإنسـولين بـه مائـة وحـدة بـدلاً مـن الأربعـين الـتي كان يسـتعملها..».

قلت في كياسة:

ـ «هذا خطأ شائع لدى المرضى..».

ـ «ليس مع من يُعالج من السكر منذ ثلاثين عامًا بالله عليك».

وعاد (مصطفى) يعد على أنامله:

ـ «هنـاك امـرأة قـام أحدهـم بتعريـة سـلك غسـالتها الكهربيـة، وتـرك الطـرف العـاري عائمًـا في الميـاه الـتي تبلـل بـلاط الحمـام.. المشـكلة هنـا أنهـا كانـت وحيـدة في البيـت ولـم يكـن بوسـع أحـد اتهـام زوجهـا لأنـه مسـافر منـذ أسـبوع.. لكـن مـن فعلهـا؟... التقاريـر الفنيـة تؤكـد أنـه مـن المسـتحيل ان يحـدث هـذا قضـاء وقـدرًا..».

قلت في نفاد صبر:

ـ «يا أخي من السهل أن يفعل الزوج ذلك ثم يسافر..».

قال بذات لهجتي:

ـ «مسـتحيل لأن أختهـا زارتهـا قبـل الحـادث بسـاعات.. وكانـت الزوجـة تغسـل الثيـاب في ذات الظـروف مـن حفـاء القدمـين والبـلاط المبتـل والغسـالة لكـن شـيئًا لـم يحـدث.. هـذا السـلك تـدلى ليلمـس الأرض في وقـت مـا بعـد رحيـل الأخـت..».

هكـذا راح يعـدد لي حـوادث مـوت.. لا أعرف إن كان بوسـعي أن اعتبرها جرائـم قتـل.. لكـن مـن الممكـن أن تكـون هـذه نمـاذج فريـدة عـلى اجتمـاع الإهمـال بالغبـاء البـشري المعتـاد مـع بعـض الحـظ السـيئ..

قلت له رأيي فقال وهو يحك رأسه:

ـ «كان هذا رأيي وحياتك حتى أسبوع مضى..».

ثم مد يده في كيس ورقي يحمله، وأخرج كومة من روايات صغيرة لها ذات حجم صفحة الفلوسكاب لو ثنيتها على نفسها مرتين.. وقال لي:

ـ «(سعيد وهبي).. هل سمعت هذا الاسم من قبل؟».

هززت رأسي أن لا.. وأمسكت بروايتين تحملان عنوان (حكايات الظلال).. هذه سلسلة إذن... قصص بوليسية على ظهر كل منها صورة لمؤلفها الذي له وجه فأر مذعور وشارب يذكرك بالأخ (هتلر).. كان هذا النوع من الأدب منتشرًا بين الشباب، لكنه لأسباب يطول شرحها غير محبب لدى أصحاب السنين من امثالي، ربما لأننا لم نعتد إلا الأدب الواقعي أو الرومانسي أو السياسي..

قلت له:

ـ «لا أعرفه.. على كل حال لا أعتقد أن سوق الروايات البوليسية رائج في مصر..».

ـ «وهو كذلك.. لكني وجدت هذه الروايات عند ابني فقررت أن أسلي وقتي بها.. إنها ليست تحفة أبدية وبالتأكيد ليس هذا الرجل أخا (أجاثا كريستي)... لكن أنظر إلى قصة (شبح الوحدة) صفحة ١٥٤.. تجد أن القاتل قام بتعرية سلك الكهرباء في الغسالة ككمين لزوجته..والآن افتح قصة (أشباح الماضي) صفحة ٨٨ تجد أن القاتل العبقري استبدل نوع الإنسولين الذي يستعمله خصمه المبتز...قصة (الابتزاز) بدورها تحكي عن عملية خنق بالمدفأة.. ثم..».

قلت في لا مبالاة:

ـ «إنـه يسـتلهم صفحـات الحـوادث في الصحـف كأي أديـب آخـر.. هـذا أسـلوب معـروف».

ـ «هـذه الحـوادث لـم يُكتـب عنهـا حـرف في الصحـف.. وهـل تريـد معرفـة مـا هـو أكـثر؟».

ثم فتح الصفحة الأخيرة لرواية من هذه الروايات وقال:

ـ «رقـم الإبـداع يـدل عـلى أن القصـص كتبـت منـذ ثلاثـة أعـوام.. أي قبـل أن تحـدث أول جريمـة بعامـين..!».

***

هكذا وجد (مصطفى) نفسه على بداية الخيط...

سـوف يجـد هـذا المؤلـف نفسـه في مـأزق عويـص.. عليـه إثبـات أنـه مُلهـم إلى حـد لا يصـدق.. هنـاك فيلـم أجنـبي شـهير كان المؤلـف يكتـب فيـه قصـص جرائـم ثـم تقـع حرفيًـا، وقـد قدمتـه السـينما المصريـة تحـت اسـم (بطـل مـن ورق)، لكـن التفسـير كان سـهلاً هـو أن هنـاك مجرمًـا حقيقيًـا يسـتلهم جرائـم المؤلـف.. سـيكون عـلى المؤلـف إثبـات هـذا كذلـك..

فيما بعد حكى لي (مصطفى) الموقف كاملاً..

كان الرجـل في الأربعـين مـن عمـره، وكان بالفعـل أقـرب لفـأر مذعـور.. لقـد كانـت الصـورة صادقـة.. أصابـه الهلـع حينمـا عـرف أن الشرطـة تهتـم بقصصـه، وأثـار هلعـه أن يعـرف أن علامـات اسـتفهام تحيـط بـه.. كان - كمـا بـدا لـ (مصطفى) - مجـرد رجـل بائـس لا يملـك الكثـير مـن الموهبـة أو الخيـال، وهـو بالقطـع عاجـز عـن قتـل دجاجـة، وكان يكتـب ليظفـر بالأربعمائـة جنيـه الـتي يدفعهـا لـه النـاشر عـن كل كتـاب.. لا أكـثر ولا أقـل..

(مصطفى) يميل إلى أن الرجل بريء.. لكن ما تفسير هذه المصادفة العجيبة؟

قال له (مصطفى) إنه لا يشك فيه، لكنهم يريدون أن يساعدهم بمخيلته.. من عساه يستطيع أن ينفذ جرائم القتل تلك مستوحيًا القصص؟.. لا إجابة.. إذن ما هي جريمة القتل التالية؟.. لا إجابة..

كانت حلقات الاتهام تحيط بـ (سعيد وهبي) لكن أحدًا لم يجد أدلة كافية، وكان هذا عندما وقعت جريمة القتل التالية.. جرى (مصطفى) يتصفح كل النسخ التي لديه ثم توقف عند صفحة بعينها وهتف بانتصار:

ـ «ها هي ذي.. معالجة المصعد كي يتوقف بين طابقين.. فتح الباب وإخراج رأس الأستاذ (محمود) منه، ثم تشغيل المصعد ليطير الرأس.. بعدها يفر القاتل من فوق سطح البناية.. لا تقل إن هذه مصادفة من فضلك.. فقد كبرت على هذا».

لم أجد ما أقول.. فعلاً لا يوجد تفسير.. ومن جديد نعود لفكرة (بطل من ورق)..

بعد أيام اتصل (سعيد وهبي) بـ (مصطفى) يخبره بأن جريمة القتل التالية سوف تحدث خلال يوم أو يومين.. القتيل محام شهير سوف يجدونه مدفونًا في الصحراء حتى العنق.. هكذا سيترك عشرة أيام كاملة حتى يقتله الجوع والظمأ والخوف وحرارة الشمس...

الآن بدأ الاتصال.. هكذا سأله مصطفى في حماس عن مصدر معلوماته.. فقال (سعيد):

ـ «قصصي.. هذه جريمة قتل ابتكرتها أنا.. لقد آمنت بأن قصصي مصدر إلهام لقاتل مخبول».

ـ «ولماذا اخترت هذه الطريقة بالذات الآن؟.. قصصك مليئة بالقتلة والقتلى ولله الحمد..».

ـ «لا أستطيع تفسير ذلك لكن يجب أن تصدقني..».

لكن كيف يمكن حماية كل محام في مصر ومنعه من أن يدفن في الصحراء؟.... استعمل (مصطفى) الطريقة السهلة الوحيدة بأن يراقب (سعيد وهبي) جيدًا.. عشرات الرجال ضخام الجثة غليظي الشوارب شوهدوا يقرءون الصحف في الشارع الذي يقيم فيه ولمدة يومين، لكن الجريمة تمت بدقة.. وبعد أسبوعين وجد أحد البدو تلك الجثة..

جن جنون (مصطفى).. وكان السؤال المنطقي الأول الذي وجهه للمؤلف البائس هو:

ـ «ما الذي يربط بين هؤلاء القتلى؟».

ـ «لا أستطيع التفسير..».

هكذا كان صبر (مصطفى) قد نفد.. قرر أن يكشف عن انيابه لهذا المدعي.. جره جرًا إلى قسم الشرطة وأبقاه هناك ربما للأبد.. فقط كان يستدعيه ثلاث مرات يوميًا ليسمع القصة ذاتها..

في النهاية انهار الرجل وقدم اعترافًا كاملاً..

ـ «إنهم قتلة قصصي.. لقد تحرروا!...».

يمكنك الآن فهم رد فعل (مصطفى)... لقد أمسك بالمؤلف من تلابيبه وعاد يستعيده القول..

ـ «قتلة قصصي تحرروا وهم يقتلون الناس بذات الترتيب والطرق التي قمت بتأليفها.. إنهم لم يعودوا مجرد شخصيات على ورق.. إنهم الآن حقيقيون!».

عرضوه على الطبيب النفسي... فكان رأيه الذي قدمه لـ (مصطفى)

ولي لأنني كنت هناك بالصدفة هو:

ـ «أحيانًا تكون الكتابة عملية إعلاء نفسي.. هذا المؤلف يعاني عدة عقد نفسية ومحبط بشكل واضح، لهذا راح يمارس على الورق ما كان يمكن أن يمارسه في الواقع.. يقتل ويسرق وينال أجمل النساء.. كل قتلته نموذج للشخص الذي كان يتمنى أن يكونه بنفس المنطق الذي يجعل الناس يحبون قصص (آرسين لوبين) التي تحكي عن لص لا يشق له غبار..».

قلت له بلهجة الأدب:

ـ «هذا إذن هو التطهير الأرسطوطالي».

ـ «بالضبط.. ما كان يكتبه على الورق حماه من أن يصير وحشًا.. لكن هذا الإعلاء لم يعد يكفي.. هكذا خرج إلى العالم ينفذ بالفعل ما ارتكبه قتلته على الورق.. هذا هو الفصام».

قال (مصطفى):

ـ «نظرية جميلة لكن الرجل لا يملك هذه القدرات الخارقة.. يتسلل إلى الشقق المغلقة وبفلت من رقابة مخبرينا.. الخ..».

ـ «إنه ذكي.. لا أحد ينكر هذا.. وأعتقد أنه قادر على إيجاد السبل..».

عندما جلسنا مع (سعيد وهبي) بدا مصرًا على نظريته.. وقال لي:

ـ «هناك من القتلة الذين ابتكرتهم (راغب) الذي يجيد القتل باستخدام طرق طبية.. إنه طبيب فاشل شطبت النقابة اسمه لأنه كان يمارس الإجهاض..وهناك (مختار) الذي يقتل بالكهرباء.. كل جرائمه لها طابع كهربائي... كل هؤلاء خرجوا من قصصي... كنت انام ليلاً فأسمعهم يتكلمون في الصالة.. كنت اخرج فلا أجدهم لكني أعرف يقينًا أنهم كانوا هنالك.. (راغب) يهوى رسم

الأسـهم عـلى قطـع الأثـاث بمديتـه.. (منصـور) الـذي يحـب قطـع رءوس ضحايـاه بالمصعـد يسـعل ويبصـق كثـيرًا.. في الصبـاح كنـت اجـد آثـاره في الصالـة، كمـا كنـت أجـد أعقـاب السـجائر تـشي بـأن هنـاك نحـو خمسـة رجـال كانـوا في داري ليـلاً».

قال الطبيب النفسي:

ـ «بضعة ايام في المصحة مع الملاحظة..».

هكذا أودعوه غرفة انفرادية في مصحة عقلية.. وأغلقت القضية.....

بعد أيام اتصل بي (مصطفى) قائلاً:

ـ «أريدك معي».

كان يريـد أن يصحبـني إلى المصحـة... هنـاك أدخلونـا إلى غرفـة يقـف عـلى بابهـا حـارس مذهـول، وعـلى الفـراش كان (سـعيد وهـبي) بمنامتـه الخاليـة مـن الخيـوط والأزرار ينظـر في ذهـول إلى السـقف.. لقـد مـات.. وعـلى الأرض جثـة كوبـرا مصريـة قتلهـا الحـراس بالأحذيـة بعـد مـا لدغـت (سـعيد)..

ـ «أنـا لـم أفـارق مـكاني ومـن المسـتحيل أن يدخـل أحـد هـذا الثعبـان مـن النافـذة الموصـدة.. لقـد سـمعت صوتًـا مـن داخـل الغرفـة، كأن عـددًا مـن الرجـال يتناقشـون.. هنـاك مـن يسـعل ويبصـق وهنـاك مـن يضحـك.. ثـم سـمعت مـن يقـول: حـان الوقـت لننهـي علاقتنـا بك..قلـت لنفـسي إنـني أحلـم لأنـه لا يمكـن أن يدخـل إنسـان هـذه الغرفـة، ثـم سـمعت صرخـة فهرعـت أقتحـم المـكان لأجـد الرجـل ميتًـا والثعبـان يتلـوى حـول سـاقه..».

كانـت هنـاك أعقـاب سـجائر في كل صـوب عـلى الأرض ومعهـا بقـع مـن البصـاق.. واتجهـت إلى إطـار النافـذة فوجـدت تلـك الخطـوط الـتي رسـمها أحدهـم بمديـة.. إنهـا أسـهم.. لا شـك في هـذا...

وجـدت (مصطفـى) يمسـك بروايـة صغـيرة في يـده ويقلـب صفحاتهـا حـتى بلـغ موضعًـا.. وقـال لي:

ـ «أحضرتهـا معـي لأنهـا الروايـة الوحيـدة الـتي يقتـل فيهـا نزيـل في مصحـة».

ثم راح يقرأ بصوت عال:

ـ «وبمجـرد مـا اسـتطاع (درويـش) أن يتسـلل إلى جـوار الفـراش، أخـرج هديتـه الخطـرة مـن الكيـس الـذي يحملـه غـير مبـال بفحيحهـا الغاضـب.. وألقاهـا عـلى جسـد النائـم لتتلـوى فوقـه قبـل أن تغـرس نابيهـا في لحمـه.. هنـا تنهـد (درويـش) وبيـد ثابتـة أشـعل لفافـة تبـغ وأحـرق غطـاء الفـراش عـلى شـكل حـرف D».

نظرنـا معًـا إلى المـلاءة تحـت جسـد (سـعيد) الخامـد، فرأينـا حـرف D واضحًـا هنـاك..

هـل نحـن واقفـان أمـام لغـز آخـر مـن ألغـاز الكـون؟، أم يتعلـق الأمـر بكاتـب واسـع الحيلـة اسـتطاع أن يهـرب ثعبانًـا إلى داخـل المصحـة لينتحـر بطريقـة تثـير العجـب؟.. كلا الاحتمالـين عسـير التصديـق.. فقـط نعـرف أن الظـلام يدنـو وأن سرًا آخـر سـينضم إلى حكايـات الظـلال.

تأثير الفراشة

يطلق عليه العلماء اسم (تأثير الفراشة) نسبة لقصة (راي برادبوري) الشهيرة عن الرجل الذي عاد إلى الماضي ليقتل الديناصورات.. لقد تم ترتيب كل شيء والديناصورات التي سيقتلها هي فقط تلك التي تم وضع علامة مضيئة عليها لأن هذه ساعة موتها على كل حال؛ أي أن قتلها لن يحدث أي تغيير في مجرى الزمن.. هكذا عاد الرجل وراح يتسلى بإطلاق الليزر على تلك الوحوش، لكن حدث خطأ ما جعله يطأ فراشة وسط الأوحال، وبدا هذا تافهًا.. حينما يعود لزمننا يكتشف أن كل شيء تغير وحتى شكل المباني ولون السماء.. إن الفراشة التي سحقها ربما كانت ستتطور إلى شيء أكبر.. وتراكمت التغيرات على مدى ملايين السنين لتصير هائلة..

يطلقون عليه اسم (تأثير الفراشة) وهناك فيلم سينمائي شهير بذات الاسم، فلا تعتقدوا أنني سرقت قصته من فضلكم.. إن مصطلح (تأثير الفراشة) لم يحتكره أحد..

يطلقون عليه اسم (تأثير الفراشة) لكنه يتمشى مع تعبيرنا العربي الخالد (ومعظم النار من مستصغر الشرر)..

***

كنت منطلقًا بسيارتي على الطريق السريع.. تعرفون أنني أسوأ سائق في العالم ربما بسبب ضعف البصر أو لأنني تعلمت القيادة في سن يفضل الناس أن يموتوا فيها.. إنه الليل وصوت أم كلثوم ينبعث من قناة إذاعية مجهولة.. هذا يجعل وزن جفنيك طنًا...

هكذا نمت.. ليس بوسعك أن تقسم أنني نمت لكني أعرف أن هذا حدث لجزء من الثانية ثم فتحت عيني على الجحيم..

فتحت عيني لأجد أن الطريق زلق.. زلق اكثر من اللازم.. وضغطت الفرملة فقط لأكتشف ان هذا مستحيل.. السيارة تواصل طريقها بحماس مشبوب... رحت أضغط وأرفع قدمي.. ذلك العمل الذي يصفه الميكانيكية بأنه (المكاركة).. لكن (المكاركة) كالعادة تفلح معهم ولا تفلح معي..

وداعًا د. (محفوظ).. كانت معرفتك لطيفة وكان وجهك في مرآتي يطمئنني على أن الكون بخير..

السيارة تنقلب مرة.. ثم مرة.. ثم وجدت أنها ملقاة على جانبها الأيمن، وأنني أتحسس الباب وأنا أشعر أن هناك من يدق مخي بيد (الهاون)..

هناك شخص متحمس ما فتح الباب وشدني للخارج.. وفي النهاية وجدت انني ملقى تحت جذع شجرة وأن حوالي خمسة اشخاص يسكبون على وجهي الماء.. ربما يبصقون أيضًا..

قال لي أحدهم:

ـ «حصل خير والحمدلله.. لقد كان الطريق مبتلاً.. سيارات المطافئ أغرقت كل شيء والمشكلة هي ان حرائق البنزين صعبة..».

رحت أحاول استجماع ما حدث.. مطافئ وحرائق بنزين؟.... لم أر شيئًا من هذا.. ثم نهضت.. إنني سليم لم يتحطم شيء.. فقط هي الصدمة العصبية لا أكثر.. أعتقد أن أنفي نزف بغزارة لكن هذه الأشياء لا تستمر.. ونظرت لبعيد..بالفعل هناك محطة بنزين عند الأفق.. ومن الضوء الراقص أقدر أن هناك حريقًا.. سيارات إطفاء.. فوضى عارمة.. صراخ..أنظر للوراء فأرى كافتيريا وصيدلية عند ذلك الجسر الذي يستخدمه من يعبرون الطريق

السريـع راجلـين..

مشيت مترنحًا إلى حيث كان الزحام في محطة البنزين..

القصـة واضحـة... توجـد سـيارة لـوري عملاقـة تقـف وسـط المحطـة والدخـان ينبعـث منهـا لعنـان السـماء.. واضـح ان جهـود السـيطرة بـدأت تفلـح، لكـن النتيجـة كانـت فـوضى عارمـة.. الطريـق كلـه زلـق مبتـل والدخـان يجعـل مـن الصعـب أن تـرى يـدك.. وهنـاك عـدد مـن المـارة المتطوعـين ورجـال الشرطـة يقفـون حاملـين الكشـافات ليجعلـوا السـيارات القادمـة عـلى الطريـق السريـع تهـدئ سرعتهـا.. طبعًـا هـذه الأسـاليب تنجـح مـع الجميـع مـا عـداي..

دنـوت أكـثر وبرغـم الفـوضى العامـة وضعـت يـدي عـلى كتـف أحـد عمـال محطـة البنزيـن وسـألته عمـا حـدث..

كان شـابًا أسـمر مذعـورًا قـال وهـو يجفـف عرقـه ويسـعل مـن فـرط الدخـان:

ـ «السـيارة اللـوري كانـت مشـتعلة.. كانـت محملـة بأجولـة القطـن.. وقـد وثـب سـائقها منهـا هاربًـا.. عندهـا واصلـت طريقهـا لتقتحـم المحطـة.. لـولا رحمـة الله لتحولنـا إلى بخـار..».

ثم اشار إلى رجل يقف وسط الزحام وقال:

ـ «هو ذلك الأحمق.. لن يتركوه».

وعـلى بعـد خطـوات وجـدت السـائق البـاكي ممـزق الثيـاب متـورم الوجـه مـن كـثرة الـضرب، يقـول لضابـط متشـكك متحمـس:

ـ «أقسـم بـالله يـا باشـا.. لـم اعـرف كيـف حـدث هـذا.. فقـط نظـرت في المـرآة فوجـدت ان حمولـتي كلهـا تحـترق.. هكـذا وثبـت مـن السـيارة ولـم أعـرف أنهـا سـتدخل المحطـة.. لـم أفكـر وقتهـا إلا في النجـاة..».

هنـا تدخـل رجـل قصـير القامـة يضـع عوينـات سـميكة ليقـول:

ـ «الحق ما قال يا حضرة الضابط.. لقد مرت سيارته تحت الجسر هناك.. أنا كنت في سيارتي وراءه ورأيت المشهد.. رأيت رجلاً يقف فوق الجسر يلقي بلفافة تبغ مشتعلة ... ثم اشتعلت النيران في القطن بسرعة وساعد الهواء على ذلك.. حتى لما بلغ هذا الموضع كانت حمولته كلها تحترق.. لقد أصيب المسكين بالذعر ووثب من السيارة غير مقدر خطورة الأمر..».

قال الضابط في غيظ:

ـ «ومن المخبول الذي يلقي لفافة تبغ على أجولة قطن؟».

ـ «ومن الذي لا يفعل ذلك؟... إن الاستهتار هو الموضة هذه الأيام..».

بالفعل من العسير اليوم أن تجد ذلك الرجل التقي الحكيم الذي يرى سيارة لوري محملة بالقطن فلا يلقي لفافة تبغ على حمولتها..لو قابلت هذا الرجل يا ابنتي العزيزة فلا تتركيه للأبد.. إن القصة قد انتهت وهي موجعة أليمة، وهذه الأجسام المتفحمة الواقفة وسط الدخان هي نصب تذكارية للاستهتار.. لكن لنحمد الله على انه لا توجد جثث..

نهضت مفكرًا في سيارتي البائسة.. لابد من إعادتها إلى وضعها الطبيعي فهل تتحرك عندئذ؟.. ما مدى ما أصابها من دمار؟.. تمكنت مع بعض المتطوعين من تقويمها وأدرت المحرك فسرني أنه ما زال يعمل.. حتى ام كلثوم لم تنه أغنيتها بعد.. هناك أشياء طيبة في هذا العالم برغم كل شيء.. هكذا انطلقت بسرعة السلحفاة أبتعد عن المشهد..

مشيت بسيارتي بضعة أمتار حتى بلغت الجسر العرضي الذي يصعد له من أراد عبور الطريق السريع.. وهنا شعرت بأنني بحاجة إلى قدح قهوة قبل ان اواصل رحلتي الرهيبة.. لا مزيد من النوم

خلف عجلة القيادة..هكذا دخلت الكافتيريا شبه الخالية الغافية تحت أقدام الجسر، وطلبت من النادل قهوة سوداء مركزة.. رأى حالي فأحضر لي منشفة متسخة مبتلة أزيل بها الدم عن صدر قميصي، وسألني عما إذا كنت قد أصبت في حادث الحريق فقلت له إنني أصبت لكن بشكل غير مباشر.. أصبت بسبب الماء لا النار.. فقال:

ـ «يقولون إن هناك رجلاً ألقى لفافة تبغ على اللوري..».

ـ «هذا ما يقال..».

قال النادل وهو ينظر حوله:

ـ «هذا صحيح على الأرجح.. بيني وبينك يا سيدي.. أنا رأيت ذلك الرجل..».

ـ «رأيته؟».

ـ «نعم.. كانت هناك فتاة حسناء تجلس هنا ...في كافتيريا كهذه وساعة كهذه لابد أنها تنتظر رجلاً.. ظلت تنتظر طويلاً...ربما ساعة او اكثر.. قلت لنفسي من الأحمق الذي يعطي موعدًا لهذه الفاتنة ثم لا يأتي قبلها بشهر؟.. ثم ظهر رجل طويل له شارب كث وجلس معها.. يبدو انهما كانا يتشاجران.. واضح أنه تأخر كثيرًا على موعدها وهي لم تقبل أية أعذار.. وفي النهاية نهضت في عصبية وألقت بورقة مالية على المنضدة وغادرت المكان أما هو فظل جالسًا بعض الوقت.. بعدها اشعل لفافة تبغ في عصبية.. انصرف فلم اعترض لأن الفتاة دفعت.. رأيته يصعد درجات الجسر ومن الواضح أنه وقف فوقه يرمق الطريق شاردًا بعض الوقت..».

ـ «هل تعني أنه؟».

ـ «ضـع نفسـك مكانـه.. متضايـق حزيـن.. ينهـي لفافـة التبـغ ثـم يتخلـص منهـا غـير عالـم ان مـا يمـر تحتـه هـو سـيارة لـوري محملـة بالقطـن..».

كانـت القهـوة سـيئة.. كمـا احبهـا بالضبـط.. هكـذا نقـدت الفـتى مالـه ودسـت قرصـين مـن الأسـبيرين في فمـي كي أقـضي عـلى هـذا الصـداع، ثـم شـكرته واتجهـت إلى البـاب , وفجـأة سـمعته يصيـح :

ـ «هذا هو يا أستاذ!».

هـذا رجـل طويـل القامـة شـاحب الوجـه لـه شـارب كـث.. لا يوجـد كثـيرون بهـذه الأوصـاف.. لقـد دخـل إلى الكافتيريـا فهـرع النـادل نحـوه وصـاح وهـو يمسـك بتلابيبـه:

ـ «هل تعرف ما سببته؟».

بـدا الرجـل محـاصرًا.. مـن الواضـح أننـا لـن نتركـه.. ولـم يبـذل أي جهـد لينكـر أو يكـذب.. إنـه يعـرف بالضبـط حـدود الـضرر الـذي سـببه عـن غـير عمـد وهـو يحـترق ندمًـا.. هكـذا طلـب أن نسـمح لـه بالجلـوس ثـم بـدأ يتكلـم.. قـال:

ـ «لنقل إن المودة كانت تربط بيني وبين تلك الآنسة التي....».

قال النادل في نفاد صبر:

ـ «كنـت تحبهـا.. وكان هـذا موعـدًا بينكمـا.. دعـك مـن الحذلقـة فلسـنا طفـلي الأمس..».

نظـر لـه الرجـل وابتلـع ريقـه وقـال لنـا إنـه كان ينتظـر هـذا الموعـد منـذ دهـر، لكنـه تأخـر عنـه.. وهكـذا رحلـت حبيبتـه.. لقـد كان متجهًـا إلى موعدهـا قبلـه بنصـف سـاعة، لكـن تعطلـت سـيارته.. والسـبب هـو أن بنزينهـا نفـد.. هكـذا اضطـر إلى المـشي حـتى يلحـق بالموعـد وقـد بلغـه متأخـرًا سـاعة كاملة..الأمـر الـذي لـن تغفـره أيـة فتـاة في العالم..

ـ «لقـد ظلـت جالسـة كل هـذا الوقـت كي تنفـث غضبهـا في وتهينـني وترحـل..».

قلت له متمهلاً:

ـ «مـا دام الأمـر مهمًـا بالنسـبة لـك لهـذا الحـد فلمـاذا لـم تسـتقل سـيارة أجـرة؟.. لا يبـدو لي وقتًـا مناسـبًا لتتحـلى بفضيلـة الاقتصـاد..».

قال في خجل:

ـ «لأنـني لـم أكـن أملـك أجـر التاكسي.. وبالطبـع لـم أكـن أملـك مـا يكفـي ثمـن البنزيـن».

قلت مغتاظًا:

ـ «إذن مـاذا كنـت تنـوي عملـه في موعـدك؟.. تطلـب كوبـين مـن المـاء؟.. مـن حسـن حظـك أنهـا غضبـت وألقـت بثمـن مـا شربتـه وإلا لقضيـت ليلتـك في المطبـخ».

ـ «لـم يكـن هـذا ضمـن خطـتي.. كان معـي مـا يكفـي مـن مـال.. وخرجـت مـن داري مفعمًـا بالأمـل، ثـم شـممت رائحـة الشـواء تنبعـث مـن مطعـم.. كان عنـدي متسـع مـن الوقـت وأنـا لـم آكل شـيئًا طيلـة اليـوم مـن فـرط الترقـب واللهفـة.. هكـذا قـررت أن أتنـاول وجبـة سريعـة.. لكـني حينمـا دخلـت المطعـم لـم أسـتطع التحكـم في شـهيتي وأكلـت كثـيرًا جـدًا.. وفوجئـت بـأن مـا معـي مـن مـال يكفـي فاتـورة الحسـاب بالضبـط ويبقـى جنيهـان ربمـا يكفيـان لنفقاتهـا.. هكـذا دفعـت وخرجـت وأنـا آمـل أن يكـون في السـيارة مـا يكفـي مـن بنزيـن.. طبعًـا اتضـح ان أمـلي كاذب.. لقـد تعطلـت السـيارة في أسـوأ وقـت.. هكـذا قـررت أن أمـشي.. ويبـدو لي أنـني مشـيت قرونًـا..»

رحـت أفكـر في الأمـر.. يـا للعاشـق الـشره المفلـس!.. فيمـا مـضى كنـت احسـب أن الحـب يملأ المعـدة حـتى بـدأت أحسـب المعـدة والقلـب

يشتركان في تجويف واحد، لكن هذه القاعدة لا تنطبق هنا في مصر.. الحب يفتح الشهية، وقديمًا تكلم الساخر العظيم (أحمد رجب) عن (الغدة الأكلوغرامية) التي تفرز هرمون (الطفاسين) وقت اللقاء العاطفي..

تأثير الفراشة.. هذا هو ما يمكن ان نسمي به هذا التفاعل المتسلسل من الأحداث.. هو جاع فأكل كالمحرومين فنفد ماله.. هكذا نفد البنزين وتأخر عن موعده.. من ثم فقد حبيبته.. في غل ألقى بلفافة تبغه من فوق الجسر.. اشتعلت السيارة.. اقتحمت محطة البنزين.. انزلقت سيارتي على الأسفلت المبتل..

كل هذه السلسلة الجهنمية كان يمكن قطعها بتغيير واحد.. لو لم يأكل الكباب.. لو بقى بعض البنزين في السيارة.. لو لم تسقط اللفافة على اللوري.. لو لم يختر اللوري وجهته بدقة.. لو لم أنم أنا...

قلت له في شيء من سخرية لم يفهمها:

ـ «لو لم تغلبك رائحة الكباب لما تهشم أنفي أنا.. هل تتصور هذا؟».

لكنه نظر لي في غباء ولم يستوعب حرفًا.. أعتقد أنه لم يسمع قط عن تأثير الفراشة.

كتاب ديزان

(ك) كنت طالب دراسات عليا في ذلك الوقت، عندما سمعت للمرة الأولى عن ذلك الكتاب، وكان هذا عن طريق أستاذي الدكتور (مختار). لقد لاحظ اهتمامي البالغ بتاريخ السحر القديم ومحاولات البشر الوصول إلى أسرار الكون.. كنت أدرس بعض النصوص الإنجليزية العتيقة التي تعود لزمن كان السحر فيه دينًا.. وكانت المسيحية تكافح لتبقى وسط الشمال الأوروبي العاصف برياحه وأمواجه وقبائله الجرمانية المتوحشة.. لما رأى أنني مهتم فعلاً، دعاني إلى بيته وكان يحمل لي قنبلة ما..

(ت) تأملت وجه الدكتور (مختار) وهو يصب لي الشاي.. كان شيخًا قصير القامة أصلع فيه كل ما ينفر الحسان ويجذب طالبي العلم، وكنت اعرف أنه لم يتزوج قط، وأنه يعيش وحده حياة كئيبة لا يشعر بأنها كذلك لأنه راهب علم حقيقي.. وكنت من الطراز التقليدي الذي لا يصدق أنه يمكن أن يرى معلمه في الشارع أو البيت، لذا ظللت منبهرًا متهيبًا لا اصدق أنني هنا في بيته..

قال لي وهو يفتش بين رفوف المكتبة:

ـ «أنت تعرف أنني لم أتزوج.. وبالتالي لم أنجب.. لكن العمر يدنو من نهايته وعلى المرء أن يرتب أموره..».

أردت أن اقول له ما معناه إن عمره مديد إن شاء الله لكني وجدت أن في هذا لونًا صريحًا من الزيف والنفاق.. فعلاً هذا الرجل قد بقى حيًا حتى اللحظة بمعجزة ما..هو نموذج حي لمقولة: الأعمار

بيـد الله..

قال الأستاذ:

ـ «هل سمعت عن قارة (ليموريا)؟».

هززت رأسي في غباء فقال:

ـ «إنهـا القـارة الـتي قيـل إن أهـل (أطلنطـس) جـاءوا منهـا، ولا تقـل لي مـن فضلـك إنـك لـم تسـمع عـن (أطلنطـس)...».

ثم أردف:

ـ «الليمـور هـو حيـوان يعيـش في أفريقيـا وماليزيـا.. كيـف يتواجـد في هذيـن المكانـين المتباعديـن فقـط ؟ مـن هنـا افـترض العلمـاء أن هنـاك قـارة كانـت تربـط أفريقيـا بماليزيـا قديمًـا وقـد أطلقـوا عليهـا اسـم هـذا الحيـوان.. (ليموريـا).. غاصـت هـذه القـارة في البحـر يومًـا مـا.. كان الإغريـق يسـمونها (حقـول الفـردوس) والفراعنـة يسـمونها (حقـول العشـب) أو (حقـول الأسـلاف).. ثـم غرقـت فأطلقـوا عليهـا (أرض المـوتى) حيـث لا يجـسر بحـار عـلى الاقـتراب».

(ا) ابتسـمت في حـيرة لأنـني لا اعـرف مناسـبة هـذا الـكلام.. هـل عبثـت فـئران الشـيخوخة بالأسـلاك الدقيقـة داخـل هـذا العقـل الجبـار؟... فهـم سـبب حـيرتي فواصـل الـكلام:

ـ «(هيلينـا بيتروفنـا بلافاتسـكي)... اسـم شـهير في عالـم الغـرب.. هـل سـمعت عنهـا مـن قبـل؟».

هززت رأسي كالعادة أن لا، فقال:

ـ «توقعـت هـذا.. إنهـا عرافـة شـهيرة روسـية الأصـل تزوجت في شـبابها ثـم فـرت مـن زوجهـا وارتحلـت إلى بـلاد الـشرق، حيـث عاشـت في التبت وقابلـت الرهبـان البوذيـين وعرفـت منهـم الكثـير مـن الأسرار.. بعـد

هـذا ذهبـت إلى الولايـات المتحـدة عام ١٨٧٣، حيث اشـتهرت كوسـيطة روحانيـة وقارئـة أفـكار... وقـد كتبـت كتبًـا شـهيرة أهمهـا (الكشـف عـن لغـز إيزيـس) و(العقيـدة السريـة).. إن كتبهـا قـد انقرضـت تقريبًـا ويعتـبر العشـور عـلى أحدهـا نـصرًا مهمًـا.. هنـاك فصـول كاملـة لـدى بعـض المشـتغلين بهـذه الأمـور، ولكـن يصعـب أن يتبجـح أحـد قائـلاً إن لديـه كتابًـا كامـلاً مـن كتبهـا..»

(هيلينـا بيتروفنـا بلافاتسـكي)... امـرأة وضعـت أناملهـا عـلى سر الكـون.. ودونـت مـا عرفتـه لكنـه ضـاع..

(ب) بـدت عـلى الحـيرة.. مـا دخـل هـذا بقـارة (ليموريـا)؟.. ومـا دخـل الدكتـور (مختـار) بهـذا؟

قال وهو يفتح بابًا سريًا في المكتبة:

ـ «زعمـت (بلافاتسـكي) أنهـا وجـدت خـبر قـارة (ليموريـا) لـدى رهبـان التبـت في كتـاب شـهير عندهـم يدعـى (كتـاب ديـزان).. وقـد اعتمـدت عـلى هـذا الكتـاب بشـدة في كتابهـا (العقيـدة السريـة).. إن الكتـاب يحـكي قصـة الكـون منـذ البـدء.. والقصـة تصطـدم مـع الأديـان في أكـثر مـن نقطـة، لـذا كان مـن الأسـهل أمنيًـا أن تحتفـظ بطـنّ مـن المفرقعـات وطنـين مـن المخـدرات مـن أن تحتفـظ بهـذا الكتـاب..».

وفي اللحظـة التاليـة وجـدت كتابًـا غليظًـا قديمـا في يـده.. وقبـل أن أسـأل قـال:

ـ «هـو ذا كتـاب (العقيـدة السريـة)... لقـد قضيـت عمـري كلـه أبحـث عنـه حـتى وجدتـه وحققتـه.. إنـني الآن اضـع يـدي عـلى سر أسرار الكـون.. لكـن لـم يبـق مـن عمـري شيء تقريبًـا.. لـذا صممـت عـلى أن يرثـه ابـن لي.. لا ابـن لي لكـني احبـك ولطالمـا اعتبرتـك ابـني الروحـي.. لهـذا أريـد أن تحتفـظ بـه..».

شعرت بالهلع.. بعد كل ما قاله لي صار الكتاب ملتهبًا كالديناميت.. ليست لدي أية نية للاحتفاظ بهذا الشيء.. لكن كيف ترفض هذا بعد ما عرفت كل ما عرفت؟

قال لي د. (مختار) وهو يلف الكتاب في كيس ورقي:

ـ «إن الكتاب من مائة فصل.. معقد جدًا لا يصبر عليه إلا قليلون.. معاني الأسماء.. الف باء السحر.. كتاب (إينوخ)... القبالة.. سحر الأعداد.. الأسلحة الخفية.. سر الشمس.. تاريخ المسيحية.. الجزويت.. سحر الفراعنة.. الماسونية.. عبدة النجوم.. بعلزبول.. كل شيء..».

ثم التمعت عيناه وقال في حماس:

ـ «هذا كتاب كالبارود.. لا يجب أبدًا ان يقع في أيد غير مسئولة.. والآن يا (محفوظ) أنا أنتظر القسم..».

ـ «أي قسم؟».

ـ «أن يظل هذا الكتاب معك سرًا.. وأن يبقى في حرز مكين حتى تورثه!!».

واتسعت عيناه أكثر وهتف:

ـ «أقسم!!».

(د) دموع كثيرة سالت من عيني وأنا اقف مع الحانوتي الذي قام بتغسيل جثة الدكتور (مختار) الذي لم يكن له اقارب، لذا حضرت غسله باعتباري ابنه الروحي.. وسط رائحة البخور والعطر والبلل العام، تساءلت في سري: ترى هل آمن بتلك العقيدة السرية؟.. هل كان مسلمًا حقًا أم أن الشيطان دفعه لتلك المتاهات الكابوسية؟.. ليس هذا شأني وإنما هو شأن أرحم الراحمين.. فقط

كنت أعرف أنني لن افتح هذا الكتاب أبدًا.. مهمتي محددة هي أن اوصله لجيل آخر..

كنت اقف جوار الحانوتي في غرفة النوم وكانت هناك أوراق على الكومود.. مددت يدي لا شعوريًا أقلبها فوجدت مذكرة بخط اليد كتب فيها: «كان هذا خطأ... (محفوظ) كان الشخص الخطأ.. سامحوني.. لا تفتكوا بي!».

هنا انتصب شعر رأسي.. لا توجد طريقة أخرى لفهم الكلمات المكتوبة.. لقد وصل لي الكتاب الرهيب بطريق الخطأ.. فهل يجب أن اتخلى عنه؟.. هل وفاة د. (مختار) طبيعية؟.. من العبث والسخف أن تبحث عن سبب آخر لوفاة من كان في سنه وسوء صحته.. لكن هل هذا هو الجواب فعلاً؟... نوبة قلبية.. لكن النوبات القلبية قد لا تأتي من تلقاء نفسها.. ماذا رآه وسمعه قبل وفاته؟..

نظرت لوجهه المتقلص في قناع الموت، وتذكرت كيف بذلوا جهدًا أي جهد كي يغمضوا عينيه الشاخصتين الخائفتين.. هل هذا ذعر الاحتضار أم.....؟

(ي) يوم زواجي حرصت على ان أخفي الكتاب الرهيب خلف خزانة الثياب.. الخزانة ثقيلة لن تتحرك إلا يوم أن نعيد طلاء البيت - وهو ما لن يحدث - أو نفارقه.. وهذا جعلني انسى الكثير عنه.. فقط ذات مرة قامت زوجتي بتحريك خزانة الثياب بمساعدة البواب وكانت تريد أن تفعل شيئًا ما وراءها.. شيئًا مما تصر النساء على عمله ولا يفهمه الرجال أبدًا.. كأن البيت لن يصير نظيفًا ما لم ننظف ما وراء خزانة الثياب.. ودخلت الغرفة لأجدها ممسكة بالمكنسة تحت إبطها وهي تحاول فتح الكيس الورقي..

فجريت وانتزعت الكيس منها غاضبًا.. نظرت لي في حيرة فقلت إنها اسرار يهمني ألا تعرفها.. هكذا تركتها تعتقد ان هذا الكيس يحوي.. إحم.. ربما مجلات مشينة أو ما هو ألعن.. لا بأس.. أستطيع التعامل مع هذا.. المهم ألا تفتح كتاب الأخت (بلافاتسكي)..

لقد عشت حياة كاملة أخفي هذا السر عن الجميع.. أخفيت الكتاب في كل موضع من البيت تقريبًا، وظل السؤال الأبدي يؤرقني: إلى من أعهد بالكتاب بعد وفاتي؟... إلى اولادي؟.. مستحيل.. لن احمل احدهم بسر كهذا.. وإذا اخترت تلميذًا من تلاميذي فهل هو الاختيار الأصوب؟... أعتقد ان الدكتور (مختار) دفع حياته ثمنًا لسوء اختياره فكيف احسن الاختيار أنا؟

(ز) زميل شاب متحمس استلفت نظري لفترة لا بأس بها، وفطنت إلى أني أمارس معه ذات ما مارسه د. مختار معي.. أراقبه في صمت.. إنه مدرس أدب إنجليزي لكن لديه ولعًا شديدًا بالمخطوطات.. شاب في الثلاثينات مرح مولع بالحياة يصعب علي أن احمله بهذا السر الثقيل.. لكن هل لدي خيار آخر؟.. وماذا لو تركت السر ينتهي معي؟.. ثمة احتمال أن تلحق اللعنة بذريتي.. وثمة احتمال ان يجد الكتاب من لا يستحق..

في هذه الفترة وجدت صورة الأخت (هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي)... إنها تناسب بالفعل انطباعي عن الوسيطات.. قصيرة قبيحة لها نظرة خمول شريرة.. صورة قديمة تعود لعهد كانت الصور تسمى فيه (فوتوغرافيا).. ذات الطابع الكابوسي الذي تراه في صور (كراولي) و(هوديني) وسواهم.. هؤلاء قوم اقتربوا من الشيطان.. اقتربوا اكثر من اللازم..

(ا) العمر يقترب من نهايته.. اعرف هذا وأفهمه.. كنت اسخر ممن يعتقدون أن الحجاب منكشف عنهم وأنهم يتمتعون بشفافية خاصة.. الحقيقة انني أمر بهذه الشفافية الآن وأدرك أن الفترة التي تفصلني عن القبر لا تتجاوز بضعة أشهر.. ربما عامًا على الأكثر..

هذا لا يضايقني.. لكني أحمل هم هذا الكتاب الرهيب الذي صاحبني أربعين عامًا.. من سيجده؟.. إلى من اعطيه؟... مسئولية ثقيلة ألقاها د. (مختار) على عاتقي وعلي أن القيها على عاتق أحدهم، لذا قمت بدعوة زميلي المتحمس الشاب إلى بيتي.. اسمه (محمود) وقد سرني هذا التوالي المستمر لحرف الميم.. لابد أن لهذا معنى ما.. مختار.. محفوظ.. محمود..

قلت له كلامًا فارغًا كثيرًا عن المسئولية وعن حاجة بعض الأسرار إلى أن تظل مبهمة، ثم قلت إن لدي امانة يجب ان يحملها معه ويحافظ عليها.. لكن ليأخذ الحذر لأنها تختلف عن جريدة الصباح.. إنه كتاب يستحق أن يموت الملايين بسببه..

كان ينظر لي في رعب عندما نهضت لأحضر الكتاب من آخر مخبأ له.. أي من تحت منضدة الصالون الرخامية حيث قمت بتثبيته أسفلها بشريط لاصق..

مددت يدي تحت المنضدة فلم أجده!... لقد غادر مكانه أو اخذه أحدهم!!.. كتاب (العقيدة السرية) الذي جاء من كتاب (ديزان) سر أسرار رهبان التبت لم يعد لدي!!.. ورحت افتش عنه كالملسوع في كل ركن من البيت.. وفي النهاية سألني ابني المراهق عما ابحث عنه فقلت إنه كتاب.. قال ضاحكًا:

ـ «ذلك الكتاب السخيف!.. العقيدة السرية؟».

ـ «هل.. هل قرأته؟».

وضع يده على رأسه وقال:

ـ «ليس لدي بال رائق لهذا الكلام الفارغ.. إن إنجليزيته ألعن إنجليزية يمكن تخيلها.. ثم إن عندي طبعة كاملة أنيقة منه.. لا حاجة بي لقراءة هذه النسخة البالية!».

(ن) نوبة صرع كادت تصيبني وهو يمد يده في درج مكتبه ويخرج لي كتابًا سميكًا براقًا على غلافه عنوان (العقيدة السرية) بقلم (هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي).. وعلى الغلاف الأخير صورة تلك العجوز الشمطاء.. نظرت له في غباء فقال:

ـ «اشتراه صديق لي عبر شبكة الإنترنت.. إنه كلام فارغ لكنه مسل.. لقد قرأه وحسب انه سيروق لي.. والآن لماذا تخفيه في غرفة الصالون يا بابا؟».

كان عقلي يدور.. إذن الكتاب معروف وموجود ومتداول!.. كل هذا التكتم والسر الذي اضناني كل هذه الأعوام يباع الآن على شبكة الإنترنت.. ذات شعور عابد الأصنام الذي يفاجأ بأن الصنم الذي كان يعبده يُباع على قارعة الطريق: اشتر ثلاثة وخذ الرابع مجانًا... احتفظ بالكوبون لكي تدخل السحب وتكسب (بلاي ستيشن)..!

(هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي) لم تكن سوى نصاب أجاد عمله، والنتيجة كتاب يتبادله المراهقون على سبيل الدعابة، بينما أنا قضيت حياتي مذعورًا أحسب أنني أعرف سر الأسرار..

وانفجرت أضحك.. أمام عيني ابني وعيني د. (محمود) اضحك.. وما زلت اضحك حتى اليوم.

الموتى لا ينهضون

نعـم.. المـوتى لا ينهضـون.. تحـدث عـن أي شيء مـن فضلـك، لكـن لا تقـص عـلي تلـك القصـص السـخيفة عـن المـوتى الذيـن يفتحـون عيونهـم في ظـلام القـبر.. يتحسسـون الغبـار مـن الداخـل، ثـم ينشـبون مخالبهـم في التربـة الهشـة إلى أن يخرجـوا للسـطح.. مـن ثـم يمشـون مترنحـين في ضـوء القمـر.

إن الفكـرة غـير مقبولـة دينيًـا.. دعـك مـن أنهـا سـخيفة.. ألا تـرى هـذا معي ؟

ولكن لماذا أقول هذا الكلام الآن؟...

لأنـني تذكـرت تلـك القصـة الرهيبـة الـتي مـررت بهـا يومًـا عندمـا كنـت أقـضي الصيـف في قريـتي بعـد انتهـاء امتحـان الصف الثـاني الإعـدادي.. أمسـية طالـت مـع أصدقـائي امتـلأت بالمـزاح والدعابـات وبعـض لفائف التبـغ.. كنـا مراهقـين فلـم نـر في الحيـاة إلا ضحكـة عاليـة مدويـة، وإن قطـع عـلي نشـوتي أنـني تأخـرت.. إن عصـا أبي ليسـت أداة للزينـة لـو كنـت تفهـم قصـدي، وكان رحمـه الله يـضرب أولاً ثـم يسـمع الأعـذار لأنـه يؤمـن أن المراهقـين أوغـاد يجـب سـلخهم أحيـاء..

هكـذا فارقـت الرفـاق عـلى موعـد للقـاء الغـد.. ومضيـت أجـد السـير عـبر طرقـات القريـة المظلمـة الـتي أحفظهـا كظهـر يـدي.. لـو رأيتـني لمـا عرفتـني بذلـك الجلبـاب الأبيـض والخفـين وتلـك المشـية الرشـيقة الأقـرب إلى الهرولـة..

هنـاك طريقـة مختـصرة للعـودة هـي أن اجتـاز المقابـر ... نعـم.. مـا الغرابـة في هـذا؟... القمـر ليـس بـدرًا لكنـه يجعـل الرؤيـة ممكنـة.. ثمة

قصة قصيرة لإبراهيم المازني يحكي فيها كيف اضطر في مراهقته للسير وسط المقابر بعد سهرة مع أصدقائه، فلم ير في ذلك بأسًا، بل أنه لعب دور الشبح مع أحد عابري السبيل.. وكان رأيه هو ذات رأيي: ليس من شيء كالمقابر أبعد عن اهتمام مراهق سكران تفعمه الحياة.. لم أكن سكران مثله لكن الحياة كانت تفعمني بالفعل، وكانت عصا أبي أكثر واقعية وتخويفًا من هذه الأجساد المتحللة الراقدة تحت الصخور..

هكذا رحت أثب بين الشواهد وبدأت اغني لأخفف من توتري، ثم قررت أن اخرس لأن صوت الغناء كان غريبًا مقلقًا.. ثمة كلب برز لي ونبح لكني ألقمته حجرًا.. كل كلاب القرية كانت تكرهني وتخافني.. الحق إنني كنت شيطانًا..

توقفت جوار شجرة غليظة ألتقط أنفاسي..وفجأة رأيت ما جعل الشعر ينتصب في مؤخرة عنقي..

لقد كان حوش (أبو عيسى) ينفتح.. الباب الحديدي يفتح ببطء – وكل باب حديدي له صرير - ثم أرى ذلك الشيء الملفوف في القماش يخرج منه.. يمشي متعثرًا وهو يمد يديه أمامه على طريقة الخواجة (كارلوف) في فيلم المومياء ... من بعدها صار كل الموتى العائدين يمشون بالطريقة ذاتها وكأنهم رأوا الفيلم..

رأيت هذا الشيء يبتعد.. وفجأة شعرت بشيء يتحرك عند قدمي.. نظرت إلى مصدر الصوت فرأيت يدين تشقان الغبار في قبر منخفض المستوى عن سطح الأرض.. ورأيت شيئًا يخرج في الظلام متحاملاً ثم ينهض بصعوبة على قدميه..

نظرت ورائي فرأيت مدفن (الفطاطري) ينفتح.. ورأيت شيئًا مشابهًا يخرج.. لو لم تخدعني عيناي فلابد أن هناك نصف دستة من هذه الأشياء تجول من حولي الآن..

كنت قد وصلت لحالة من الهلع تكفي لقتلي لو كان قلبي أوهن من هذا، لكن الآلة الفتية العفية آنذاك ظلت تضخ الدم في صدري بلا توقف.. وسيطرت علي فكرة واحدة: يجب ان افر من هنا.. كانت مدافن قريتنا ترتفع قليلاً عن سطح الأرض مطلة على حقل محروث فوثبت وثبة واحدة ألقت بي وسط الأوحال.. وبوثبة أخرى رحت أركض وأنزلق.. أركض وأقف.. أركض وألهث.. حتى ابتعدت ميلاً عن هذا المكان المفزع..

وفي الدار تلقيت التوبيخ الضروري لكن العصا لم تؤد عملها، وكان شحوبي مقلقًا لهم لكني لم أتكلم.. لسبب ما شعرت بأن هذه المسوخ أخذت علي عهد الصمت، فلو تكلمت لجاءت لي..

وقضيت الليل كله أتوقع أن أفتح عيني لأجدها تحيط بي في غرفتي الضيقة ذات السقف المدعم بألواح الخشب.. أنت تكلمت.. ستدفع الثمن.. لم أتكلم.. والله العظيم لم أتكلم..

بدا لي كل هذا وهمًا في الصباح، ورحت أمارس حياتي العادية. على أنني بعد أسبوع سمعت أقاويل عن (بسم الله الرحمن الرحيم).. وهذا هو معادل (الذي لا اسم له) في قصص لافكرافت.. أي انهم يتحدثون عن عفاريت.. هناك أشياء ما تمشي في القرية.. البعض رآهم عند الجسر.. البعض رآهم عند المطحن ... يبدو أنهم أقرب إلى أشخاص يمشون وقد التفوا بالأكفان.. هناك من رآهم من بعيد في ضوء القمر يلتفون حول الكتاب.. لا احد يجسر على الاقتراب منهم مهما بلغ من شجاعة.. حتى الخفير ببندقيته الثقيلة وشاربيه الصالحين مرتعًا للصقور لم يستطع إلا أن يفر ليتوارى بين ذراعي زوجته البدينة.. الكلام يكثر ويكثر.. النسوة يخرجن من ديارهن عند ميلاد الليل ويضعن رغيفًا من الخبز وبعض الملح على عتبة الدار ...

هناك نوع من التوتر العام مع سؤال لا يجسر أحد على التفوه به: ماذا لو كانت هذه الأشياء هي الموتى أنفسهم؟... مستحيل.. لكن هات تفسيرًا أفضل.. ماذا لو ...؟

ـ «النتيجة جاءت من البندر..».

وهكذا انتهت إجازتي عند هذا الحد لأني رسبت في مادتين.. لعله انتقام الأشباح مني لأني عرفت أكثر من اللازم.. وعدت للمدينة مشيعًا باللعنات، ونسيت كل شيء عن هذه القصة وسط متاعبي الخاصة.. متاعب شهر سبتمبر الذي عرفت لماذا يطلقون عليه (أيلول الأسود)..

كبرت.. وتعلمت أن أتعامل مع الأمور بعقلية نقدية.. وفي ضوء هذه العقلية أدركت أنني كنت أخرف.. القرية كلها تخرف.. ربما خرفت القرية فتسلل الخرف إلى ذكرياتي.. أي أنني كونت ذكريات لم تكن.. برغم كل شيء يصعب أن تتيقن من حدث وقع منذ أربعين عامًا..

قرأت عن الزومبي في جزر الهند الغربية، فبدا لي الأمر مألوفًا.. لفظة (زومبي) في حد ذاتها مشتقة من (نزامبي) وهي كائن يشبه الأفعى من آلهة غرب افريقية الوثنية، على أن لفظة زومبي دخلت عدة لغات غربية للدلالة على الشخص فاقد الإرادة والشخصية الذي يأتمر بأمر شخص آخر. حسب المعتقد التاهيتي يكون الزومبي أناسًا فقدوا وعيهم وذاكرتهم نتيجة لأن ساحرًا سرق هذه الأشياء.. أحيانًا يحول الساحر فتاة أرادها وامتنعت عنه إلى زومبي لتكون تحت أمره للأبد. يقال أيضًا أنه يجعلها تبتلع مسحوقًا به سم عصبي مستخرج من نوع من السمك. وهذا يخدر الضحية لتصير في حالة أقرب إلى الموت، ويتم دفنها في المقابر.. من ثم يسرق الساحر الجسد ويعيد تحريكه... يقال كذلك إن الساحر يسرق

أرواح من ماتوا لأسباب طبيعية.. ذلك بأن يخطف الروح فور مغادرتها الجسد فيظل الجسد خاليًا.. ما يفعله الساحر الشرير هو إنه يركب حصانه بالمقلوب ويتجه إلى بيت الضحية المحتضرة فيمص روحها عبر ثقب الباب، ويضعها في زجاجة ويسدها، ثم يذهب للقبر بعد الدفن ويجعل الجثة تشم الزجاجة فتفيق.. هكذا صارت ملكًا له تأتمر بأمره للأبد وتمشي وراءه.. هنا لابد أن يمر أمام بيتها ليتأكد من أنها لم تعد تذكره... أهل هايتي يسمعون الزومبي عندما يمشون ليلاً ويضعون امام بيوتهم أرغفة الخبز والملح على سبيل التقية كي لا يتعرضوا للأذى..

(وليام سبروك) في كتابه (جزيرة السحر) عام ١٩٣٦ وصف عيون الزومبي الجامدة ووجوههم الحجرية المفزعة.. حكى كذلك عن خطأ جعل الزومبيين يأكلون بسكويتًا مملحًا فأفاقوا من عبوديتهم وعادوا للقبر ليتحولوا إلى عظام نخرة... إن هذه هي الحرية الحقيقية بالنسبة لميت.. تحدث عنهم كذلك (فرانسيس هكسلي) عام ١٩٥٩.. قال إنهم كانوا يفيقون بعد شرب الماء والملح..

كانت هناك دراسات علمية رصينة على ثلاثة من هؤلاء الزومبي.. وجدوا أن أحدهم يعاني السكيزوفرنيا.. نوع خاص منها يجعل المرء يتصرف كآلة.. أحدهم كان مصابًا بخلل في دورة المخ.. أما الثالث فقد أودى الكحول الذي تعاطته أمه أثناء الحمل بعقله.. عندما يجول شخص بهذه الحالة يسهل عليك أن تتصور أنه زومبي.. بالنسبة لعلماء النفس والمجتمع يعتبر الزومبي موجودًا فعلاً.. لكن هؤلاء العلماء يتحدثون عن الخواء الداخلي للشخص.. هذا شخص يتلقى المؤثرات الحسية جيدًا لكنه غير قادر على استيعابها.. فالسلوك قد يوجد بلا وعي والوعي قد يوجد بلا سلوك..

بـدت لي القصـة مألوفـة.. لمـاذا كانـت نسـاء قريـتي يضعـن الخـبز والملـح خـارج ديارهـن؟.. أتراهـن تلقـين الرسـالة بالسـليقة؟..

ثـم مـاذا؟.. هـل أصـدق هـذا الهـراء عـن السـاحر الـذي يركـب حصانـه بالمقلـوب؟.. ولـو صدقتـه فهـل أصـدق أن يحـدث هـذا في الريـف المـصري؟... مسـتحيل..

عـدت لقريـتي بعـد أعـوام وقـد صرت كهـلاً أشـيب الشـعر والـروح.. أمضيـت عـدة أيـام هنـاك اسـترجع ذكريـات الصبـا وابحـث عـن رفـاقي الذيـن ظلـوا هنـاك.. وخطـر لي عـلى سـبيل الدعابـة أن أسـأل كبـار السـن عـن تلـك القصـة الرهيبـة الـتي كانـت حديـث المجالـس في ذلـك الوقـت، لكـني - لشـدة العجـب - لـم أجـد مـن يتذكرهـا.

هكـذا عدلـت عـن السـؤال حـتى لا يظنـوا بعقـلي الظنـون.. وهـذا مـن حقهـم لأني بـدأت أشـك بـدوري في قـدراتي العقليـة.. يبـدو أنـني كنـت مخبـولاً فـلا أندهـش لكـوني رسـبت في مادتـين في ذلـك العـام..

اخـترت سـاعة الغـروب لأزور المقابـر بعيـدًا عـن عيـون الفضوليـين، فرأيـت بعيـني ان حـوش (أبـو عيـسى) ومدفـن (الفطاطـري) لهمـا بابـان حديديـان أغلقـا بإحـكام بالجنزيـر والقفـل.. لـو صدقنـا وجـود زومبـي فكيـف نصـدق أنـه يسـتطيع فتـح القفـل مـن دون مفتـاح؟

وقفـت أتلـو الفاتحـة لموتانـا.. وتهيـأت للانـصراف لـولا أن رأيـت مـا أنعـش ذاكـرتي..

هنـاك تلـك الغرفـة الصغـيرة جـوار بـاب المقابـر.. دنـوت منهـا فوجـدت ذلـك العجـوز الطيـب الـذي حسـبته مـات مـن زمـن.. عـم (بسـيوني) الحانـوتي الـذي يعيـش في المقابـر والـذي كان يطاردنـا بغصن شـجرة كلمـا حاولنـا ان نلعـب الكـرة هنـا..

دنـوت منـه.. وركعـت عـلى ركبـتي أمامـه.. كان يعـد الشـاي وقـد هـرم جـدًا.. حاجبـان كثـان أشـيبان يغطيـان عينيـه بالكامـل ويوشـكان عـلى

لقاء شاربه الكث.. (متوشالح).. هذا هو الاسم الذي تذكرته في هذه اللحظة.. يملأ كفه بالشاي ويسكبه في البراد الأزرق القذر، ثم يضع السكر بصعوبة في كوب صغير.. استغرق بضع دقائق حتى يدرك وجودي لكنه لم يرني على الأرجح..

ـ «السلام عليكم يا حاج».

ـ «وعليكم السلام.. من أنت؟».

هذا الرجل يصعب ان يتذكرك ما لم تذكر له موتاك.. بالنسبة له كل الناس موتى مع وقف التنفيذ.. بدأت أثرثر معه ثم سألته عن تلك القصة القديمة التي تثير رعبي منذ أربعين عامًا..

لم يذكر شيئًا من ذلك.. الموتى يغادرون القبور؟.. مستحيل يا دكتور.. لو كان المتكلم مجنونًا فليكن المستمع عاقلاً..

وناولني كوب الشاي فرددته في رفق لأسباب واضحة، ثم أخرجت بعض المال ودسسته في يده..

الآن أنا اعرف يقينًا انني كنت مخرفًا على أكبر نطاق.. معلومة جديدة عن نفسي أضيفها للأشياء التي ما زلت أكتشفها بعد هذه الأعوام..

بعد يومين.. كنت على وشك الرحيل عندما توفي أحدهم.. يبدو أنه زوج ابنة ابن عم خال والدتي أو شيء من هذا القبيل.. المهم إنهم أمروني بالذهاب وإلا فالويل لي.. وهكذا خرجت في تلك الجنازة البطيئة المزدحمة وسط الحقول الترابية في طقس شديد الحرارة..

وهناك عند المقابر وقفت أجفف عرقي المعجون بالغبار، وأرقب ذلك الشاب مفتول العضلات يضع الجثة في القبر، ثم يهيل عليها التراب، ويبلل الأسمنت ويسد الفتحة التي صنعها..

سالت أحد الواقفين:

ـ «هو ابن الحاج بسيوني على ما أظن؟».

ـ «بسيوني من؟».

ـ «الحانوتي.. إن صحته لا تسمح له بأي شيء..».

نظر لواحد جواره وتبادلا بضع كلمات ثم قال لي وهو يسعل من فعل الغبار:

ـ «كان هناك حانوتي اسمه بسيوني.. لكنه مات منذ عشرين عامًا.. إنه مدفون هنا..هذا الفتى يدعى (جابر)..».

ابتلعت ريقي وآثرت الصمت...

الموتى لا ينهضون.. تحدث عن أي شيء من فضلك، لكن لا تقص علي تلك القصص السخيفة عن الموتى الذين يفتحون عيونهم في ظلام القبر.. إن الفكرة سخيفة.. ألا ترى هذا معي؟

إن هذه المقبرة شريرة.. إنها تخدعك وتملأ عالمك بالرؤى.. لقد خدعت القرية كلها منذ أربعين عامًا وهاهي ذي تخدعني أمس.. ربما كانت تملأ عالمك بالهلاوس.. ربما تملؤه بالأشباح... بالشياطين..

لكن الموتى لا ينهضون يا صديقي.. أعرف هذا يقينًا كما تعرفه أنت.. الموتى لا ينهضون..

جاثوم

سألني محدثي في البار الصغير:

ـ «هل تؤمن بالجاثوم؟».

قلت إنني لا أؤمن به.. لكني لم أعط نفسي الفرصة كي أقرر.. لربما لو فكرت في الأمر مليًا لبدا لي منطقيًا..

***

في البداية أجد نفسي مضطرًا لأن أشرح لك كيف حدث هذا كله.. لا علاقة لي بأي بار إلا في الأفلام العربية، لكن هذه القصة حدثت عندما كنت أدرس في عاصمة الضباب، وخطر لي ذات ليلة أن أرتاد منطقة (إيست إند).. تلك المنطقة البائسة التي تقع شمال نهر (التيمز) حيث تسكن الطبقة العاملة المطحونة.. ذات الطبقة البائسة التي وصفها (ديكنز) في قصصه.. نفس المباني الفكتورية التي تهاوى أكثرها في غارات النازيين أثناء الحرب العالمية الثانية..

هنا الناس الذين ينطقون Today هكذا: (توضاي) وينطقون Sir (صاير).. ولا ينطقون حرف الهاء أبدًا.. ذات اللهجة المضحكة التي سخر منها (شو) في مسرحية (سيدتي الجميلة)..

أقول إنني رحت أجوب هذه الشوارع، ثم قررت العودة.. هنا فطنت لحقيقة مريعة هي أنني ضللت الطريق.. ضللت الطريق في المساء تحت الأمطار حيث تكفلت العواصف والسيول بطرد كل كائن حي يمكن أن تهتدي به.. لا توجد سيارات أجرة.. وكل الشوارع تشابه بشكل مزعج.

أمضيت بعض الوقت أتلقى السيول وأحاول إقناع نفسي بأن الأمور ليست بهذا السوء، حتى بدأ الذعر والخوف والجوع يدبون في روحي، وقدرت أنهم سيجدونني جثة متجمدة في الصباح على الأرجح..

هنا لمحت تلك الحانة التي تحمل شعارًا متفائلاً (حانة السادة) فأسرعت نحوها.. دفعت الباب الخفاشي لأجد نفسي وسط قاعة دافئة تناثر فيها أربعة أو خمسة أشخاص على المناضد.. يبدو أنهم دخلوا حالة السكر التي تجعل كلاً منهم لا يعي أنه هنا.. لتكن حانة أو بارًا.. المهم انها مكان ذو أربعة جدران وفيه بشر..

مشيت إلى حيث البارمان البريطاني الملول، وطلبت قهوة مركزة.. هز رأسه ثم أشار لي إلى منضدة لأجلس عليها..

جلست وأنا أرتجف كديك كمبتل.. نزعت معطفي ورحت أحاول تجفيف عويناتي.. أخيرًا جاءت القهوة فرحت أرشفها في نهم بيد ترتجف، وسألت الساقي عن طريقة الخروج من هذه المتاهة فراح يصف لي الاتجاه بتلك اللهجة التي لم أفهم منها حرفًا..

هززت رأسي موافقًا وجلست أنتظر.. فلا أعرف متى جاء ذلك الرجل وجلس إلى مائدتي حاملاً كأسه وزجاجته.. لست مستجدًا هنا كي لا اعرف طباع السكارى.. إنهم يفرغون كل ما بداخلهم على العالم الخارجي.. يفرغون ما في بطونهم من طعام وما في قلوبهم من أسرار، وقد قدرت أن هذا الرجل جاء ليفرغ روحه على ثيابي وقد أقنعته الخمر أنني أخوه الروحي..

لم يكذب ظني.. إذ سألني أولاً عما إذا كنت باكستانيًا فقلت إنني مصري..

ـ «بلد جميل.. لابد أنك تزور (تاج محل) كل يوم..».

هززت رأسي أن نعم.. (تاج محل) ليس في مصر ولا باكستان..

لكـن لـو صححـت المعلومـة فلـن تبقـى في ذهنـه ثانيـة أخـرى.. كان رث الثيـاب يعـاني الفاقـة بشـكل واضـح.. وكان في الأربعـين مـن عمـره نصـف أصلـع نصـف ملتـح نصـف بديـن.. قـال لي:

ـ «هل تعتقد أن زوجتي تخونني؟».

فقلت إنني لا اعتقد هذا نظرًا لأخلاق السيدة المتينة.. قال:

ـ «أنـا كذلـك لا أعتقـد هـذا.. أنـا أدعـى (جـون برادفـورد) وأقيـم في الشـارع الخلفـي لهـذا البـار قـرب المقـبرة.. أنـا أعمـل في ورديـات ليليـة.. لي طفـلان وزوجـة لطيفـة.. (لـيز) زوجـة طيبـة لطيفـة.. لكنهـا تخـرف.. دعـني اؤكـد لـك أنهـا تخـرف..».

ثـم بـدأ يحـكي لي القصـة الـتي لا اريـد أن أسـمعها.. منـذ حـوالي الشـهر يعـود للبيـت صباحًـا فتسـأله زوجتـه عـن سـبب قضائـه الليـل في الـدار بـدلاً مـن العمـل.. ليلـة وليلتـان ثـم بـدأ يقلـق.. لقـد أقسـم لهـا أنـه لـم يغـادر العمـل الليـلي لكنهـا كانـت مـصرة عـلى أنـه جـاء في الليـل ونـام في فراشـه بشـكل معتـاد، عـلى أنهـا حينمـا تصحـو نهـارًا لا تجـده جوارهـا..

ـ «الملاحـظ أنهـا كانـت تصحـو عـلى كابـوس في كل مـرة أبيـت فيهـا جوارهـا».

أصابـه القلـق.. لربمـا كان هنـاك لـص اعتـاد التسـلل للـدار عندمـا لا يوجـد رجلهـا فيهـا.. وقـرر صاحـبي أن يعـدل موعـد عملـه الليـلي.. هكـذا بـات ليلـة كاملـة في البيـت.. في الثالثـة صباحًـا شـعر بحاجـة لدخـول الحمـام فغـادر الفـراش.. لا يعـرف كيـف ولا مـتى غلبـه النعـاس في الحمـام فنـام جالسًـا عـلى المرحـاض.. عـلى انـه عندمـا صحـا وعـاد للفـراش وجـده دافئًـا برغـم أنـه تركـه منـذ سـاعة.. سـألته زوجتـه بصـوت مرهـق عـن سـبب اسـتبدال منامتـه.. لقـد كان نائمًـا هنـا بجوارهـا مـن دقيقـة واحـدة لكـن بمنامـة أخـرى غـير الـتي دخـل

بهـا الفـراش.. وأضافـت أنهـا صحـت عـلى كابـوس مريـع...

جـن جنونـه وفتـش كل مـكان في البيـت فلـم يجـد شـيئًا.. الزوجـة لـم تكـن قلقـة لأنهـا تعـرف زوجهـا ولـن تخطـئ التعـرف عليـه.. لقـد كان هـو الـذي نـام جوارهـا.. لا شـك في هـذا..

أصابـه الهلـع.. ذهـب لطبيـب شركتـه يسـأله عمـا إذا كان مـن الممكـن أن يجـول ليـلاً.. هـل يذهـب إلى عملـه الليـلي ثـم يجـول في شـوارع المدينـة حـتى يعـود لفراشـه وينـام فيـه؟.. هـل نـام في تلـك الليلـة في الحمـام.. ثـم غـادره دون أن يـدرك ذلـك، وأغفـى في فراشـه قليـلاً ثـم نهـض وعـاد للحمـام ثانيـة؟

ـ «قـال لي الطبيـب الـذي لـم يفهـم حرفًـا مـن نظريـاتي إن مـرض الجـوال الليـلي ليـس بهـذا التعقيـد.. قـال لي إنـني عـلى الأرجـح واهـم أو زوجـتي واهمـة.. لربمـا كان عليهـا أن تخضـع لفحـص نفـسي..».

لكـن القصـة تكـررت.. في كل ليلـة يدخـل صاحبنـا الحمـام ليغلبـه النعـاس بالداخـل.. ذات مـرة دخـل غرفـة الطفلـين ليطمـئن عـلى نومهمـا فغلبـه النعـاس هنـاك ونـام.. وعندمـا عـاد للفـراش أخبرتـه زوجتـه أنـه كان معهـا طيلـة الوقـت..

أصابه الجنون.. كان متأكدًا من انها تعابثه بشكل ما..

- «في هـذا الوقـت بـدأت الصحـف تكتـب عـن المخبـول الـذي يـسرق المقـبرة الموجـودة خلـف دارنـا.. قيـل إنـه غـول لأنـه يـسرق بعـض قطـع اللحـم مـن الجثـث.. لحـم الوجـه واليديـن ثـم يـترك الجثـة في حالهـا.. هـذا غريـب.. مـا أعرفـه أن هنـاك طريقتـين للتعامـل مـع الجثـث: سرقتهـا كاملـة أو تركهـا كاملـة.. لكـن الصحـف وجـدت أن الخـبر مثـير يرفـع التوزيـع، وخاصـة نظريـة الغـول هـذه.. إن الـكلام عـن أكلـة لحـم البـشر ممتـع دائمًـا ويجـذب القـراء».

وجرع جرعة كبيرة من الزجاجة مباشرة وتجشأ...

لـم يربـط الرجـل بـين قصتـه وتلـك القصـة الرهيبـة.. لكنـه قابـل قـس الحـي وحـكى لـه كل شيء.. الأب (جونـز) كان رجـلاً مثقفًـا واسـع الخيـال لـذا بـدأ يفكـر في الأمـر بشـكل مختلـف.. سـأله عمـا إذا كان قـد سـمع عـن الجاثـوم Incubus... يقولـون إن الجاثـوم تعـني لغويًـا الكابـوس أو الشـخص الثقيـل كالكابـوس.. كلمـة ‹incubus› اشـتقاق لاتيـني مـن معـنى (الثقـل).. ولهـا ارتبـاط شـديد بإحسـاس الثقـل عـلى الصـدر المـلازم للكوابيـس.. يقـول الـتراث الكنـسي الغـربي إن الجاثـوم كان مـلاكًا طـرد مـن الفـردوس بسـبب شـهوانيته. وبمـا أن الجاثـوم كائـن غـير مـادي فـإن الأسـطورة تفـترض أنـه يحـيي جثـة آدميـة أو يغطـي نفسـه بلحـم بـشري يسرقـه مـن مقـبرة قريبـة ويـزور النسـاء النائمـات ليمنحهـن الكوابيـس.. أي أنـه يتدثـر باللحـم البـشري كمـا تتدثـر أنـت بعبـاءة في ليلـة بـرد.. أحيانًـا يتخـذ شـكل رجـل معـروف للمـرأة.. ربمـا زوجهـا.. كانـوا ينصحـون المـرأة بـأن العلامـة الـتي تفـرق الجاثـوم عـن الشـخص الحقيقـي الـذي تعرفـه هـي غـرق كل سـكان البيـت في نعـاس عميـق لحظـة ظهـور الجاثـوم.

أضاف الرجل وهو يجرع المزيد:

ـ «هكـذا تجـد أن القصـة صـارت أكـثر تعقيـدًا.. لكنهـا تفـسر نفسـها.. هـذا الجاثـوم يتسـلل إلى المقـبرة في كل ليلـة فيـسرق مـن اللحـم البـشري مـا يكفـي ليغطـي نفسـه، فيصـير نسـخة مـني ثـم يتسـلل إلى داري.. لهـذا أغفـو كلمـا جـاء ولهـذا لـم يسـتطع شيء أن يوقـظ أطفـالي.. إنهـا العلامـة الـتي تعـرف بهـا المـرأة أن الـذي أمامهـا جاثـوم.. ولهـذا تصحـو (لـيز) غارقـة في العـرق بسـبب كابـوس زارهـا، لكـن القصـة غريبـة جـدًا لهـذا لا تشـك في شيء.. تكتفـي بالشـك في قـواي العقليـة لا أكـثر..».

أمـا مـا أضافـه القـس فهـو أن طقـوس طـرد الأرواح لا تعمـل مـع

الجاثـوم كمـا ينبغـي.. باختصـار لا توجـد طريقـة للخـلاص منـه..

ثم نظر لي (برادفورد) بعينيه الحمراوين وقال:

ـ «ما رأيك؟».

فكـرت قليـلاً في هـذه القصـة الرهيبـة، وقـررت أنهـا تحتـاج لليقـين على جبهتـين: الرجـل وزوجتـه.. ربمـا هـو يخـرف بفعـل الخمر وربمـا زوجته تكـذب عليـه وربمـا الاحتمـالان قائمـان... لكـن في جميـع الحـالات التفسـير قريـب وسـهل..

قلت له:

ـ «أولاً يسـهل أن تعـرف مـن أيـن جـاءت قصـة الجاثـوم هـذه.. بعـد وجبـة ثقيلـة يتقلـب النائـم عـلى ظهـره، فيرتفـع الحجـاب الحاجـز وهكـذا يجـد عـسرًا في التنفـس.. كأن هنـاك مـن يجثـم عـلى صـدره، وفي الوقـت ذاتـه يقـل الـدم الذاهـب للمـخ فـتزوره الكوابيـس..».

ثم أفرغت ما بقى من قهوتي في جوفي وقلت:

ـ «أيضًـا هنـاك تفسـير الكبـت.. إن الكبـت يتخـذ صـورًا غريبـة.. مثـلاً في وطـني..».

ـ «تعني باكستان؟».

ـ «أعـني أي بلـد يـروق لـك.. في وطـني تحلـم فتيـات كثـيرات بـأن عفريتًـا مـن الجـن مـتزوج منهـن.. ونفـس الـشيء يحـدث مـع الرجـال الذيـن يزعمـون أنهـم متزوجـون مـن ابنـة ملـك الجـان.. إن تفسـير هـذا بالكبـت سـهل وقريـب للأذهـان..».

سألني وهو يضع الزجاجة على المنضدة:

ـ «ليكن الجاثوم أو الكبت.. بم تنصحني؟».

ـ «الطبيـب النفـسي.. أنـت وزوجتـك.. وأرجـو أن تكـون متمتعًـا بالتأمـين الصحـي..».

هـرش رأسـه قليـلاً كأنمـا لـم يعجبـه هـذا التفسـير، ثـم نهـض بـلا كلمـة وداع متجهًـا لبـاب الحانـة.. وتـوارى وسـط الظـلام المطـير بالخـارج..

ليـس هـذا أغـرب مـا رأيـت مـن هـؤلاء السـكارى.. لكـن قصتـه لا بـأس بهـا ويمكـن أن اكتبهـا يومًـا مـا.. إن فيهـا شـيئًا وحشـيًا سـاحرًا.. لـه رائحـة محاكـم التفتيـش ومطرقـة السـاحرات وقـداس الشـيطان..

لكن أين الساقي؟..

نظـرت حـولي فلـم أر إلا الرجـال الجالسـين عـلى مناضدهـم وقـد ناموا جميعًـا.. إنهـا الواحـدة صباحًـا فـلا ألومهـم كثـيرًا.. أنـا نفـسي أحلـم بفـراشي كأنـه أرض الميعـاد.. نهضـت قاصـدًا البـار لأنـادي السـاقي كي يأخـذ حسـابه.. دهشـت عندمـا دنـوت لأراه راقـدًا عـلى الأرض وقـد توسـد ذراعـه.. حسـبته قـد مـات أو فقـد الوعـي.. ثـم ناديتـه بصـوت أعـلى فنهـض مذعـورًا..

ـ «كم الساعة الآن؟».

قلـت لـه إنهـا الواحـدة صباحًـا فخـرج إلى النيـام يهزهـم هـزًا غـير رفيـق، وهـو يتسـاءل عمـا دهاهـم كي ينامـوا جميعًـا في الوقـت ذاتـه.. مـن الواضـح أنـني كنـت الشـخص الوحيـد الـذي احتفـظ بوعيـه في الحانـة كلهـا.. لابـد أن يرحلـوا كي يغلـق المـكان.. لا يعـرف سر هـذا الإرهـاق الـذي يشـعر بـه، فلربمـا أفادتـه العـودة لـداره حـالاً..

أخرجـت ورقـة وقلمًـا وانتظرتـه حـتى يفـرغ مـن إيقاظهـم كي يرسـم لي طريقًـا كروكيًـا للخـروج مـن (إيسـت إنـد)..

سمعته يناديهم واحدًا واحدًا إلى أن سمعته يوقظ احدهم صائحًا:

ـ «هلـم يـا (برادفـورد).. لقـد تأخـر الوقـت.. إن (لـيز) سـتوبخك بشـدة..».

نظـرت بسرعـة إلى (برادفـورد) هـذا فوجـدت رجـلاً يفتـح عينيـه مـن سـبات عميـق.. لقـد كان يجلـس عـلى هـذه المنضـدة في ركـن القاعـة منـذ جئـت أنـا لكـني لـم ألحـظ وجهـه إلا الآن.. كان رث الثيـاب يعـاني الفاقـة بشـكل واضـح.. في الأربعـين مـن عمـره نصـف أصلـع نصـف ملتـح نصـف بديـن.

استبصار

إسكندرية.. وليلة رأس السنة...

الليـل والشـتاء البـارد وذلـك الشـعور العـام بالشـجن.. لقـد رحـل المصطافـون منـذ ثلاثـة أشـهر تاركـين لهـا ذلـك الشـعور الممـض الرقيـق بالوحشـة.. إسـكندرية تشـعر بـه وأنـا أشـعر بـه.. ونحـن نحـاول أن نخفـف عـن بعضنـا تلـك اللحظـات..

كنـت جالسًـا في ذلـك الكازينـو مـع صديـق لي.. هكـذا اعتدنـا أن نمضي أكـثر وقتنـا هنـا، وجـاء السـاقي الـودود فتبـادل بعـض عبـارات المـزاح معنـا. كنـت أرقـب الكورنيـش البـادي مـن بعيـد وأسـمع الموسـيقا الـتي تعـزف عـلى أوتـار روح أو نيـاط قلـب.. رغبـة عارمـة في البـكاء تسـتبد بـك ولا تعـرف لهـا سـببًا.. الألـم الشـخصي العبقـري الـذي تكفـي لمسـة كي تجعلـه ينفجـر، وانفجـاره يبلـل المناديـل دائمًـا..

كان الكازينـو يقـدم بعـض الفقـرات الرديئـة الـتي ضاعـف في بؤسـها عـدم وجـود جمهـور.. لهـذا لـم يكـن أي الطرفـين متحمسًـا. لا الفنـان ولا المتلقـي.. لكـن الفقـرة التاليـة كانـت جديـدة:

ـ «الآن مع قارئ الأفكار العجيب.. الدكتور (موروو)...».

كان كل هـذا موحيًـا بالشـفقة.. الموسـيقا السـوقية الـتي تصاحـب العبـارة، وصـوت المذيـع نفسـه القـادم مـن مولـد (أبـو طاقيـة)، دعـك مـن اسـم (مـورو) نفسـه.. لـم يجـد الرجـل اسـمًا سـوى هـذا الاسـم المسـروق مـن روايـة (هــ. ج. ويلـز) الشـهيرة.. طبعًـا هـو لـم يقـرأ الروايـة لكـن رأى الفيلـم..

أمـا عـن الدكتـور (مـورو) هـذا الـذي يقـف وسـط الأضـواء الراقصـة

فرجل أسمر اللون يلبس سترة لامعة من الطراز الذي كان (ثلاثي أضواء المسرح) يقدمون به استكتشاتهم.. وعلى رأسه منشفة حمام عالية المفترض أنها عمامة..

فقط لاحظت أن عينيه شيطانيتان بكل ما في الكلمة من معان..

يمشي الدكتور وسط الناس.. ليس هناك الكثير منهم.. لكنه يقترب من سيدة متأنقة تجلس مع زوجها.. يقف أمامهما وبعينيه الناريتين يقول لها:

ـ «هل معك أي شيء يمكن أن ألمسه؟... منديل أو قلم او أي شيء؟».

كانت المرأة مذعورة، لذا نفذت طلبه بسرعة كي تتخلص منه.. ناولته منديلاً حريريًا فأمسك به ثم أغمض عينيه وقال:

ـ «مدام (شيرين السمان).. ربة بيت.. (ستانلي).. طفلان.. هل هذا صحيح؟».

ضحكت المرأة في مزيج من الذهول والانبساط... وصفقت فتعالى التصفيق..

مال علي صاحبي يهمس:

ـ «متفقان.. أليس كذلك؟. اعني أنها كومبارس..».

قلت في عدم يقين:

ـ «ربما.. لكن حاسة القياس النفسي Psychometry حاسة معترف بها.. إنها الحاسة التي تتيح لك أن تلمس الشيء فتعرف معلومات عنه وعن صاحبه.. قد يكون هذا الرجل موهوبًا او نصابًا..».

دنا الرجل من مجلسي وصاحبي، ووقف أمامنا.. قال لصاحبي:

ـ «هل لديك شيء من متعلقاتك؟».

قبل أن يمد صاحبي يده أخرجت أنا حافظتي وناولتها للرجل..

لكنـه أعادهـا لي في اشـمئزاز كأنهـا ملوثـة وكـرر طلبـه لصاحـبي:

ـ « شيء من متعلقاتك..».

قلت في عصبية:

ـ «ظننت أنه لا فارق عندك بين واحد وآخر..».

لـم يـرد وتنـاول عوينـات صاحـبي الـتي أخرجهـا مـن جيبـه وأغمـض عينيـه وقـال:

ـ «(مروان محمد).. من الجيزة.. أربعون عامًا.. و...».

أصابنـا الذهـول.. معلومـات دقيقـة فعـلاً ومـن العسـير أن نجـد مفـرًا مـن هـذه الحقيقـة.. نحـن فـأران في مصيـدة الآن.. لقـد صـار التشـكك مستحيلاً..

ثـم اغمـض عينيـه أكـثر... مضـت دقيقـة عـلى ذلـك، ثـم فتحهمـا ونظـر لصاحـبي تلـك النظـرة الناريـة وقـال وهـو يمسـك بيـده:

ـ «خذ الحذر!... أنت في خطر داهم!».

حبسنا نفسينا في توتر.. ما معنى الجزء الأخير من كلامه؟..

لم يفسر.. فقط انطلق يقرأ طالع واحد آخر.. ومرت الأمسية..

اليـوم – بعـد خمسـة أشـهر- لا اعـرف لمـاذا قـرر صاحـبي أن عليـه أن يرجـع إلى الجـيزة الليلـة بالـذات.. نصحتـه بـأن يقـضي الليـل معـي لكنـه كان مـصرًا.. قـال إن غـدًا الجمعـة وهـو لا يتخيـل أن يصحـو يـوم جمعـة في غـير فراشـه.. يحلـق ويسـتحم ثـم يفطـر ويذهـب لصـلاة الجمعـة.. هـذه طقـوس لا يسـتطيع تغييرهـا..

الليـل والظـلام والقيـادة بذهـن أرهقـه السـهر.. كنـت قلقًـا عليـه بحـق.. كان بوسـعي أن أجـبره عـلى البقـاء.. لكـني تكاسـلت عـن ذلـك..

خمسـة أشـهر مـرت وذلـك السـؤال يعذبـني ويرهقـني.. خمسـة أشـهر وأنـا أتسـاءل عمـا حـدث في تلـك الليلـة.. لمـاذا لـم اصـدق ما سـمعته؟

واليـوم أعـود إلى الاسـكندرية... أدخـل ذات الكازينـو.. أنـا بطبعـي لا أثـق في موضـوع العرافـين هـذا.. العـراف الحقيقـي لـن يـؤدي فقـرات أمـام الجمهـور ليكسـب ملاليـم.. العـراف الحقيقـي يمكنـه أن يكـون أقـوى شـخص في العالـم لـو أراد..

سـألت السـاقي المسـتجد عمـن يدعـى د. (مـورو) فلـم يعرفـه، ثـم طلـب رأي مـن هـو أقـدم منـه الـذي قدمـني إلى الكابـتن (خميـس)، وكابـتن هـذه رتبـة مـن رتـب السـقاة تختلـف عـن معناهـا الريـاضي المعـروف.. كان الكابـتن (خميـس) رجـلاً نوبيًـا أشـيب الشـعر معتـدًا بنفسـه.. قـال لي إن د. (مـورو) يعمـل في مـكان آخـر.. ووصفـه لي..

هكـذا ذهبـت إلى هنـاك ورأيتـه.. رأيـت فقرتـه ذاتهـا وإن كان يقـوم هـذه المـرة بقـراءة أفـكار الشـخص إذا امسـك بيـده.. قـرأ أفـكار سـيدة تجلـس وحدهـا إلى منضـدة فصاحـت انبهـارًا..

بعـد العـرض نقـدت أحد السـقاة مـالاً وطلبت منـه أن يقـودني إلى ذلك الدكتـور (مـورو).. اقتـادني عـبر مـرات ضيقـة كريهـة الرائحـة إلى غرفـة ضيقـة في أفقـر حـال.. لـم تكـن تشـبه في شيء تلـك الكواليـس الـتي نراهـا في السـينما.. الدكتـور (مـورو) نفسـه كان خارجًـا مـن الغرفـة وهـو يعـرج بشـكل ملحـوظ، وقـد نـزع ثيابـه فبـدا أقـرب إلى عامـل فقـير بثيابـه الرثـة وشـعره الأشـيب.. فقـط ظلـت عينـاه ناريتـين ثاقبتـين.. كان يحمـل حقيبـة مـن القمـاش فيهـا أدواتـه وثيابـه وفي اليـد الأخـرى منديـلاً عملاقًـا يبـدو انـه يلـف بقايـا طعـام.. واضـح انـه نـال أجـره مـن بقايـا (المـزات) والأطعمـة وكان يتأهـب للانـصراف عندمـا رآني..

قـال إنـه متعجـل لأنـه يريـد الانـصراف.. فطلبـت منـه في إلحـاح أن يكلمـني لنصـف سـاعة.. لا أريـد إلا نصـف سـاعة.. سـوف أدعـوه إلى العشـاء.. هنـاك كبابجـي قريـب لا بـأس بـه..

لمعـت عينـاه وابتلـع ريقـه.. العـراف العظيـم جائـع وقـد تداعـت

كبريـاؤه عندمـا تكلمـت عـن الكبـاب..

وهكـذا نحـن نجلـس في ذلـك المطعـم.. أمامي طبـق بـه بعـض قطـع اللحـم لكـني فقـدت شـهيتي، بينمـا هـو يفتـك بطبقـه فتـكًا.. هكـذا قربـت منـه طبقـي ليجهـز عليـه وسـألته:

ـ «منـذ أشـهر قـرأت طالـع صاحـب لي وقلـت إنـه في خطـر داهـم.... هـل لديـك تفسـير؟».

قال وهو يلوك الطعام:

ـ «لا أذكـر الواقعـة لكـن هـذا يحـدث كثـيرًا جـدًا.. لا أحـد يصـدق كلامـي إلا بعـد فـوات الأوان..».

ـ «ما الذي تراه بالضبط ويقنعك بوجود خطر؟».

قال في شرود وعيناه الناريتان ترمقانني:

ـ «صدقـني انـا لا أعـرف.. كنـت موظفًـا في بدايـة حيـاتي ثـم شـعرت بـأن ذلـك الـشيء أقـوى مـني وأنـني أريـد أن تخـرج هـذه الموهبـة للعالـم.. إن لـدي حزمـة كاملـة مـن المواهـب الـتي لـم أسـمع أنهـا اجتمعـت عنـد شـخص.. التقمـص العاطفـي empathy أي أنـني أسـتطيع أن أشـعر بمـا تشـعر بـه.. الحـدس precognition أي رؤيـة مـا سـيحدث في المسـتقبل.. الاسـتبصار clairvoyance أي رؤيـة أشـياء غـير موجـودة أمامـي.. دعـك مـن القـدرة عـلى قـراءة الأفـكار والتخاطـر telepathy.. في البدايـة أصابـني الذعـر وحسـبت انني موشـك عـلى الجنـون، ثـم قـرأت قصـة سـيدنا (عمـر بـن الخطـاب) عندمـا كان يخطـب عـلى المنـبر فـرأى بعـين الخيـال قائـده في نهاونـد (سـارية بـن زنيـم) يوشـك عـلى الوقـوع في فـخ نصبـه الكفـار.. هكـذا صـاح وسـط الخطبـة: يـا سـارية.. الجبـل!!.. سـمعه (سـارية) في العـراق وفهـم أن عليـه أن يحتمـي بالجبـل كي يتجنـب الهجـوم.. هـذه القصـة تحـكي عـن تخاطـر واسـتبصار معًـا وهـي قصـة موثقـة لـم يشـك فيهـا أي

مـؤرخ..».

قلت في دهشة:

ـ «لا تؤاخـذني.. اعتقـادي أن هـذه المواهـب تجلـب الـثراء لصاحبهـا.. لكـن حالـك.. لا تؤاخـذني..».

قال ببساطة:

ـ «هـذه المواهـب لا تطيعـني دومًا..أحيانًـا تتخـلى عـني.. لهـذا أعمـل في مـكان إلى أن يتكـرر فشـلي فأطـرد وأبحـث عـن مـكان آخـر.. الآن ليـس بوسـعي معرفـة مـا تفكـر فيـه.. ربمـا أسـتطيع هـذا بعـد يـوم أو يومـين.. إن الموهبـة الـتي لا تـأتي حسـب الطلـب لا تخـدم صاحبها..».

ثم أبرز ساقه من تحت المنضدة وقال:

ـ «هـذا دليـل عـلى كلامـي.. حـادث سـيارة مـروع منـذ أشـهر.. فلـو كانـت موهبـتي تطيعـني دائمًـا لمـا ركبـت تلـك السـيارة اللعينـة.. لقـد كـدت أمـوت في المستشـفى..».

كلام منطقـي ولا شـك.. لا يمكـن أن يـثري عـازف الكمـان الـذي لا يعـرف في أيـة ليلـة يجيـد العـزف وفي أيـة ليلـة يفشـل.. سـألته:

ـ «في تلك الليلة رفضت بشدة أن تقرأ أفكاري..فلماذا؟».

ـ «لا أذكـر. لكـن لابـد أنـني شـعرت وقتهـا بأنـك متشـكك.. المتشـككون أسـوأ مـن يمكـن قـراءة أفكارهـم لأن موجـات أدمغتهـم تضر عمـلي..».

ثـم راح ينـتزع آخـر بقايـا اللحـم مـن الريشـة الـتي أمامـه.. لابـد أنـه يتمـنى لـو كان لسـانه خشـنًا كالقطـط ليـنزع المزيـد....

فجـأة مـد يـده إلى الملعقـة الـتي أمسـك بهـا.. لمسـها ونظـر لي بعينيـه الحادتـين وهمس:

ـ «الآن أذكـر كل شيء.. أذكـر صديقـك... أنـت أيضًـا في خطـر داهـم هـذا الشـهر.. خـذ الحـذر..».

ثم التمعت عيناه أكثر.. ونهض وغادر المكان...

وقفت خارج المطعم أرمقه وهو يبتعد، فدنا مني (مروان) وربت على كتفي وسألني:

ـ «ظللت أنتظرك طويلاً.. ماذا توصلت إليه؟».

قلت في شرود:

ـ «لا أدري.. في تلك الليلة عندما قرأ طالعك شعرنا بدهشة...ثم تذكرنا الساقي الثرثار الذي يمزح معنا كل ليلة.. لقد كان يعرف كل شيء عنك.. بالطبع اشار لنا من وراء الكواليس وأخبر (مورو) باسمك وعنوانك وسنك..ولنفس السبب لم يقرأ طالعي لأنني لم أخبر الساقي بأي شيء عني.. لكني ما زلت لا أفهم السبب الذي جعله يحذرك من خطر داهم..».

قال (مروان) ضاحكًا:

ـ «لابد أنه ينصح الجميع بالشيء ذاته.. هل ترى ما أراه؟».

وهناك عند المنعطف البعيد رأينا (مورو) يمشي مترنحًا مع امرأة..امرأة رأيتها مرتين من قبل.. مرة كانت متأنقة تجلس مع زوجها واسمها مدام (شيرين السمان).. ومرة هذه الليلة بالذات.. وطبعًا هي زوجته وقد نزعت ثياب الشغل وعادت لثيابها الرثة..

القصة واضحة الآن ولا تحتاج إلى تساؤلات.. لكن السؤال ظل يؤرقني: عندما استعاد (مروان) عويناته ولمس يد الرجل شعر برؤيا تسيطر عليه.. كان يرى الدكتور (مورو) ينزف بعد حادث مروع.. سيارة مقلوبة وشجرة ساقطة.. قال لي (مروان) هذا بعد العرض فسخرت منه.. اقترح أن نحذر الرجل كما حذرنا لكني انفجرت في الضحك.. كيف يسمح النصاب لنا أن ننصب عليه؟.. لكن (مروان) كان واثقًا مما رآه.. صحيح أنه عاد للجيزة في الليلة

ذاتهـا لكنـه ظـل راغبًـا في معرفـة الحقيقـة.. هـل هـو يملـك موهبـة الاسـتبصار؟

اليـوم جاءتنـا الفرصـة إذ عدنـا لنعـرف مـا حـدث.. وإنـني لأتسـاءل: مـاذا سـيقوله (مـروان) لـو لمـس يـدي الآن؟!

لماذا فعل ذلك؟

قالت (هدى):

أنا رأيت الدكتور (عدنان) وهو يفعلها.. كنت واقفة في شرفة دارنا في تلك الساعة المتأخرة من الليل أرمق الشارع الهادئ المظلم، وأحلم بألف شيء وشيء.. عندما رأيت ظلاً يقف في الشرفة المقابلة.. تلك الشقة الخالية التي يؤجرها أصحابها.. استطعت دون جهد أن أخمن أن هذا هو د. (عدنان) بالذات.. لماذا؟.. لأنه لا يوجد أحد معه في الشقة..

أعرف أنه متزوج وأن له أطفالاً، لكنه استأجر هذه الشقة منذ شهر مبعثرًا علامات الاستفهام في الحي كله.. صاحب العقار افترض أنه يريد أن يفتتح عيادة هنا خلسة، وهذا ببساطة لأنه افترض كالعامة أن (دكتور) معناها (طبيب).. بالطبع هو لا يعرف أن د. (عدنان) حاصل على دكتوراه في علم النفس من جامعة بريطانية ما.. لكنه ليس طبيبًا نفسيًا..

أبي افترض أن الرجل يريد أن يحيل الشقة وكرًا للملذات.. هذا هو السبب الوحيد الذي يجعل رجلاً يستأجر شقة مفروشة يقيم فيها وحده في رأي أبي.. وقد راح أبي يحذرني من الوقوف في الشرفة أو إلقاء أية نظرة على تلك الشقة، على أساس أن الفجور معد.. ولو أغمض عينيه لحظة لضعت من يديه وبدأت التدخين ومعاقرة الخمور..

طبعًا كانت تكفيه نظرة واحدة على وجه د. (عدنان) الكئيب الرزين الحزين ليعرف انه مخطئ.. مستحيل أن يفكر هذا الرجل الموشك على الوفاة في شيء مشين.. وبالطبع مر الشهر دون أن

نسمع أو نرى أو نشم شيئًا يريب من هذا الرجل..

ثم جاءت تلك الليلة التي رأيت فيها ذلك الظل يخرج إلى الشرفة.. وفي ثبات وبحركات كأنما تم التدريب عليها من قبل، رأيته يرفع ركبته على السور ثم يثب إلى الشارع..

لقد احتبس الكلام في حلقي فلم أستطع أن استغيث أو أقول شيئًا.. أعتقد أنني سقطت مغشيًا علي.. وعندما أفقت كان أول سؤال سألته للآخرين ونفسي هو: لماذا فعل ذلك؟

قال (عبد الغفار):

لا أعرف لماذا فعلها د. (عدنان) لكني كنت أشعر منذ البداية أن هذا الرجل يداري لغزًا.. أنا بواب هذه البناية، وقد رايته في المرة الأولى يبحث عن شقة مفروشة في المنطقة.. كان يحمل حقيبة كبيرة وقد بدا عليه الارتباك والتوتر.. أعتقد أنه جفف عرقه عشر مرات وهو يكلمني..

لكن لم يكن من شأني أن أحقق في امره.. لقد قابلنا الحاج (جوده) صاحب البناية، وكانت أوراق الدكتور تقول إنه رجل محترم، ونقوده جاهزة.. هكذا حصل على الشقة بالطابق الخامس...

الحقيقة إنني لم أر منه ما يريب، وهذا في حد ذاته مريب.. أين أهله؟.. عرفت أنه متزوج وله أطفال فهل هو (طفشان) من زوجته؟.. لم استطع أن أتبادل معه أكثر من عشر جمل منذ سكن هنا ولم يكن يطلب أي شيء.. ولم يزره أي شخص باستثناء رجل يشبهه نوعًا وقد مكث عنده نصف ساعة في اليوم السابق للوفاة..

حادثة واحدة تستحق الذكر هي تلك التي انقطع فيها التيار الكهربي في شقته، وطلب مني أن أحضر له كهربائيًا.. هكذا دخلت مع الحرفي إلى الشقة.. وجدت أنه لم يغير فيها شعرة.. أعتقد

أنـه احتفـظ بالغبـار الـذي كان فيهـا..

وقفـت أراقـب الرجـل وهـو يعمـل في لوحـة توزيـع الكهرباء..ثـم حانـت مـني نظـرة إلى غرفـة داخليـة تضيئهـا شـمعة فوجـدت ان بهـا كتبًـا وجهـاز حاسـب آلي.. لكـن مـا أثـار دهشـتي هـو أن هنـاك جماجـم بشريـة.. نعـم.. جماجـم بشريـة عددهـا نحـو ثـلاث موضوعـة عـلى المكتـب حـول الشـمعة..

أنـا أعـرف ان الدكتـور ليـس طبيبًـا.. السـبب هـو أنـني طلبـت منـه فحـصي فاعتـذر.. إذن مـاذا يفعلـه بهـذه الجماجـم؟.. الحقيقـة أن هـذا المشـهد جعلـني أتقـزز منـه.. لمـاذا يحتفـظ المـرء غـير الطبيـب بجماجـم بشريـة في داره إن لـم يكـن ملعونًـا أو سـاحرًا؟

الكهربـائي قـال إن هنـاك تيـارًا عاليًـا جـدًا تـم اسـتخدامه فسـبب احـتراق المنصهـر.. وسـأل الدكتـور عـن الأجهـزة الـتي لديـه فأنكـر هـذا الأخـير وجـود شيء مـن هـذا..

عندمـا شـكر الكهربـائي ونقـده أجـره أراد أن يعطيـني بعـض المـال، لكـني رفضـت في إبـاء.. لـن آخـذ هـذا المـال الدنـس...

هكـذا كونـت نظريـتي الخاصـة عـن الرجـل ولمـاذا يعيـش وحـده ومـاذا يفعلـه بالضبـط.. توقعـت عـلى كل حـال أن نهايتـه سـتكون مريعـة.. لكـني مـا زلـت أتسـاءل: لمـاذا فعـل ذلـك؟

قالت مدام (عصمت):

لا أعـرف السـبب.. لكـن الرجـل كان مريبًـا بحـق.. كان يمـضي في شـقته أيامًـا كاملـة دون أن يخـرج.. ولمـا كانـت ظـروف إقامتـه لا تسـمح إلا بـأن يكـون مجـرد زوج (طفشـان) أو ماجنًـا رقيعًـا أو مجنونًـا، فـإني رحـت أراقـب كل صغـيرة وكبـيرة تحـدث عنـده.. إن شـقتي تقـع امـام شـقته ويمكنـني مراقبـة المدخـل مـن عدسـة البـاب.. زوجـي في العمـل لسـاعات طويلـة والأولاد في المدرسـة لـذا صـار هـذا الرجـل تسـليتي

الوحيـدة.. لـم لا؟.. تأمـل نهـم النـاس لمشـاهدة المسلسـلات التلفزيونيـة.. ليـس هـذا ولعًـا بالدراما كما تعتقـد، بـل هـو ولـع بما تتيحـه المسلسـلات مـن تلصـص محكـم عـلى بيـوت الآخريـن!

لا توجـد دلائـل عـلى أنـه ماجـن رقيـع.. هـم لا يبـدون هكـذا.. ولا يبـدو زوجًـا هجـر بيتـه.. هـؤلاء يكونـون قلقـين لا يبقـون في بيوتهـم لحظـة.. إذن هـو مجنـون..

كنـت في بعـض الليـالي أسـمع هديـرًا غريبًـا مـن الشـقة وكان تيـار الكهربـاء يضعـف.. لا اعـرف السـبب.. لـم يحـدث هـذا معـي إلا عندما كانـت غسـالتي (الفـول اوتوماتيـك) تالفـة، لكـني أعـرف أنـه لـم ينقـل أيـة أجهـزة للشـقة.. لـم أر أي شـخص يـزوره باسـتثناء رجـل يشـبهه نوعًـا ولـم يبـق عنـده إلا نصـف سـاعة قبـل الوفـاة بيـوم..

ذات مـرة وضـع كيـس قمامتـه عـلى البـاب فانتهـزت الفرصـة اثنـاء تظاهـري بكنـس الـدرج، واختلسـت نظـرة إلى الكيـس.. كان يحـوي ورقًـا ممزقًـا كتـب عليـه بالإنجليزيـة.. لا أعـرف كيـف أقـرأ هـذه اللغـة لكـن هنـاك رسـومًا كثـيرة تمثـل رأس الإنسـان.. كأنـه رأس مفتـوح عليـه علامـات..

في ليلـة الحـادث قلـت لزوجـي أكـثر مـن مـرة إنـني أسـمع صـوت بـكاء، لكنـه أعتقـد أنـني مجنونـة.. ثـم سـمعت الضوضـاء في الشـارع فخرجت إلى الشرفـة.. وجـدت زحامًـا يلتـف حـول جسـد راقـد عـلى الأسـفلت.. ناديـت البـواب فأخـبرني أن الرجـل وثـب مـن شرفتـه..

كنـت أتوقـع نهايـة غريبـة لهـذا الموقـف، لكـني مـا زلـت أتسـاءل: لمـاذا فعـل ذلـك؟

قال د. (محفوظ):

عندمـا عـاد د. (عدنـان) صديقـي القديـم مـن الخـارج، كانـت قـد اسـتحوذت عليـه فكـرة قـراءة الجماجـم Phrenology الـذي كـف

الغربيـون عـن اعتبـاره علمًـا منـذ زمـن طويـل.. ذلـك الفـن الـذي ابتكـره العالـم الألمـاني (فرانتـس جـال) حـوالي عـام ١٨٠٠.. يفـترض هـذا العلـم أن كل صفاتنـا وراثيـة ومصدرهـا المـخ.. وبمـا أن المـخ موجـود في الجمجمـة فـإن شـكل الجمجمـة قـادر عـلى كشـف أدق أسرارنـا النفسـية..

لقـد اسـتخدمت هـذه الفكـرة بإفـراط لـدى كل نظـام فـاشي أو عنـصري.. شـكل الجمجمـة يحـدد مسـارك الأخـلاقي منـذ لحظـة ولادتك وربمـا يحـدد تفوقـك العـرقي كذلـك.. هـذا بالطبـع ينـافي أبسـط قواعـد الإنسـانية، فلسـت مسـئولاً عـن شـكل رأسي كي أحاسـب عـلى هـذا الأسـاس.. ثـم إنـني كائـن حـر أختـار وأُحاسـب عـلى اختيـاراتي.. لـو صرت مجرمًـا غـدًا فلأنـني اخـترت ذلـك وليـس لأن شـكل جمجمـتي أرغمـني عـلى هـذا..

انتقلـت الفكـرة بسرعـة إلى الولايـات المتحـدة، وسرعـان مـا أنشـأ الأمريـكي (أورسـون فاولـر) شركـة ودار نـشر للتعامـل مـع قـراءة الجماجـم.. وفي القـرن العشريـن عـادت الفكـرة تلـح بقـوة مـع نظريـة (سـيزار لامـبروزو) عالـم الإجـرام الـذي زعـم أن ملامـح المجرمـين يسـهل تمييزهـا..

لـو كان شيء قـد بقـي مـن هـذا العلـم، فهـو حقيقـة أن كل جـزء مـن المـخ البـشري مسـئول عـن نـوع مـن المشـاعر أو الأفـكار.. وهـذا مـا درسـه علمـاء وظائـف الأعضـاء بدقـة وبراعـة..

هنـاك فـن آخـر اسـمه الـميتوبوسكوبي Metoposcopy.. يقـوم عـلى قـراءة تجاعيـد الجبهـة.. وهـو علـم تعصـب لـه أرسـطو وأبقـراط ومـا زال يمـارس في آسـيا..

عندما عاد (عدنان) من الخارج متحمسًا قلت له:

ـ «أنـت كمـن يعيـد اكتشـاف الحديـد.. هـذا الفـن قديـم جـدًا.. دعـك

مـن أن كل هـذه الفنـون تلعـب حـول فكـرة القيافـة الـتي يعرفهـا العـرب منـذ دهـور.. لقـد اشـتهر أفـراد قبيلـة (بـني سـليم) بقيافـة الأثـر وهـي تتبـع أثـار الأقـدام والحوافـر، وقيافـة البـشر وهـي معرفـة النسـب عـن طريـق هيئـة الشـخص الخارجيـة.. دعـك مـن فـن الفراسـة الـذي بلغـوا فيـه شـأنًا عظيمًـا.. كانـوا قادريـن عـلى معرفـة طباعـك مـن شـكل وجهـك..».

قال (عدنان):

ـ «إنـني أعيـد زيـارة هـذا الفـن مـن جديـد، وأطبـق عليـه أسـاليب علميـة حديثـة.. مثـلاً صرت أسـتعمل الأجهـزة للقيـاس.. وقـد ربطـت النتائـج بالكمبيوتـر..».

قـضى الكثـير مـن وقتـه يقيـس الـرءوس فلـم يـترك جمجمـة لـم يجـر قياسـها، وكان يأخـذ ٣٧ قياسًـا، وفي الوقـت ذاتـه كان يجمـع معلومـات عـن صاحـب الـرأس.. شـخصيته. عقـده.. وفي سـبوع ابنـة إحـدى قريباتـه ضبطتـه الأم يقـوم بقيـاس رأس وليدتهـا.. بالطبـع كان موقفـه بالـغ السـوء..

وفي النهايـة قـام بمقارنـة مـا عرفـه مـع مـا تعلمـه في مـدارس غامضـة بالخـارج.. مـدارس مـا زالـت تعتـبر (جـال) و(مسـمر) عالمـين.. يبـدو أنـه كـون خبراتـه الخاصـة عـن الموضـوع وصـار واثقًا مـن نفسـه تمامًـا.. كنـت أنـا مـن أوائـل الـرءوس الـتي قـام بقياسـها لكنـه لـم يخـبرني برأيـه في سـلوكي الإجرامـي.. فقـط قـال لي: «أنـت تتمتـع بغبـاء أصيـل تداريـه بالتظاهـر بالوقـار والإفـراط في اسـتعمال المصطلحـات..»!

ـ «شكرًا».

لـم أعـرف أنـه تـرك بيتـه وأسرتـه إلا عندمـا اتصلـت بي زوجتـه تسـألني إن كنـت أعـرف مكانـه.. قالـت إنـه قـام بقيـاس رأسـها ورأس أولاده الأربعـة ثـم أصيـب باكتئـاب شـديد.. عندمـا عـادت مـن عملهـا وجدت

أنـه جمـع حاجياتـه وأجهزتـه وكتبـه وتـرك البيـت...

قلـت لهـا إنـني أعتقـد أنـه يريـد الانفـراد بأبحاثـه لفـترة.. سـوف يعـود.. كل الأزواج الفاريـن يعـودون.. اسـتطعت بكثـير مـن الجهـد البوليـسي معرفـة عنوانـه الجديـد وقمـت بزيارتـه..

كان يعيـش في شـبه رهبنـة منعـزلاً عـن العالـم.. طعامـه المعلبـات ونومـه سـاعات معـدودات.. وكانـت هنـاك بالإضافـة لكتبـه بعـض الأجهـزة المعقـدة تذكـرك بالمصبـاح الشـقي – بكـسر الشـين - الـذي يسـتعمله أطبـاء العيـون.. سـألته عـن السـبب الـذي هجـر البيـت مـن أجلـه فقـال:

ـ «إنهـم مجموعـة مـن الأوغـاد.. كلهـم مشـاريع مجرمـين وسـوف يفتكـون بي يومًـا مـا..».

ـ «تتحدث عن الأولاد والمدام؟».

ـ «طبعًـا.. أنـا صرت قـادرًا عـلى معرفـة المجـرم مـن مجـرد نظـرة وبضعـة قياسـات.. دعـك مـن أن اثنـين مـن الأطفـال لا يمتـان لي بصلـة!..».

هنا انفجرت فيه:

ـ «هـل تعـرف أن القيافـة ليسـت دليـلاً لنفـي البنـوة؟.. نحـن في عـصر الحمـض النـووي يـا صاحـبي فكـف عـن هـذه الخزعبـلات.. بصفتـك عالمًـا نفسـيًا كنـت أرغـب في أن تـشرح لي معـنى البارانويـا، وهـذا لا علاقـة لـه بمحادثتنـا».

ـ «البارانويا هي أي شيء غير الذي أقوله لك الآن!».

ابتلعت غيظي، ثم سألته:

ـ «هل جربت قياساتك العبقرية هذه على نفسك؟».

ـ «لا لـم أفعـل.. أردت أن أكـون متجـردًا علميًـا.. لكـني سـوف أفعـل

ذلـك غـدًا.. والآن لـو سـمحت..».

وهكـذا وجـدت نفـسي أحمـل حمـلاً إلى البـاب، ثـم أطـرد طـردًا.. لقـد كانـت نهايـة معرفـتي بـه عنيفـة بعـض الـشيء..

وبعـد يومـين قـرأت خـبر وفاتـه في الصحـف.. يمكنـني إذن أن أتصـور مـا حـدث في اليـوم السـابق لوفاتـه.. الرجـل الذي يشـك في نسـب ابنين ويعتقـد أن زوجتـه والأطفـال مجموعـة مـن الأشرار الذيـن يتربصـون بـه.. الرجـل الـذي قـضى شـهرًا وحـده في شـقة مظلمـة قـذرة مـع فكـرة واحـدة.. الرجـل الـذي قـرر أن يجـري قياسـات جمجمتـه ليعـرف مـن هـو حقًـا.. هـذا الرجـل قـد فتـح الشرفـة في سـاعة متأخـرة ووثـب إلى الشـارع مـن الطابـق الخامـس.. فمـا الـذي عرفـه عـن نفسـه؟.. هـل عـرف أنـه سـينتحر؟

تبـدو القصـة منطقيـة، لكـن لا تنـس أنـني (أتمتـع بغبـاء أصيـل أداريـه بالوقـار والإفـراط في اسـتعمال المصطلحـات) لهـذا مـا زلـت أتسـاءل: لمـاذا فعـل ذلـك؟

فتيش

عندما جنت (إلهام) لم يجد أبواها أحمق آخر سواي ليعنى بها.

لماذا؟.. لأني دكتور في الأدب الإنجليزي.. هذا يفسر لك الأمر.. ما علاقة الأدب الإنجليزي بالطب النفسي؟.. هي علاقة واضحة جدًا بالنسبة لأبويها.. على الأقل هناك لقب (دكتور) قبل اسمي فلابد أنني أفهم في هذه الأمور..

كانت (إلهام) في العشرين من عمرها وفي السنة الأخيرة من كلية العلوم، وكانت جارتي.. فجأة أصابها ذلك المرض المعروف.. الصمت.. الامتناع عن الأكل والمذاكرة.. البكاء بلا انقطاع.. وقد طلب الأب رأيي فأخبرته أن عليه أن يطلب رأي طبيب نفساني.. هذه سن يلعب فيها الكبت دورًا لا بأس به.. أحيانًا أعتبر (فرويد) حمارًا لكني أثق به ثقة تامة عندما يؤمن أن الاضطرابات الجنسية لها دور هائل في العصاب.. وفي مجتمعنا أعتقد أن كل اضطراب نفسي لدى شاب له جذور فرويدية ما..

قلت هذا للأب المدير العام في الرقابة الإدارية فقال إنني حمار.. قلت له إن فرويد هو الذي قال هذا فقال إن فرويد حمار كذلك..

-»ابنتي مهذبة حسنة التربية ولا يمكن أن تفكر في هذه الأشياء..»

طبعًا من المستحيل أن تشرح له أن هذا لا علاقة له بقلة الأدب بل الهرمونات التي تمرح في دم الشاب قبل أن يستعد عقله ونضجه لها.. وكما يقول العظيم (صلاح جاهين): الواد يادوب دخل ثانوي.. ليه خده ينطر شوك بدا المنظر؟

هكذا ذهب إلى أطباء نفسيين لا بأس بعددهم وكالعادة اصطحبني معه في كل مكان.. الطريف أنه لم يعط علاج أي منهم الفرصة كي يؤتي ثماره.. يبدأ بكبسولة أو قرص ثم يعلن أن هذا الطبيب أحمق ويذهب لآخر.. هذا بالطبع من منطق أن الطبيب البارع سيعطي الفتاة كبسولة واحدة فتطير فرحًا وتبدأ في الرقص تعبيرًا عن سعادتها..

في النهاية جاء دور الشيخ (عزام) الذي جلبته الأم.. لابد أن مدام (نازلي) أخبرتها بروعته وبراعته..

لم أعرف بهذا إلا عندما صعدت الدرج فشممت رائحة البخور تهيج صدري.. وجدت باب جاري مفتوحًا وهذا الشيخ (عزام) يقف هناك.. لم يكن يلبس كالمشعوذين وإلى درجة ما شعرت بأنه محترم إلى أن عرفت كم تقاضى من اجل هذه الزيارة المنزلية..

نزل الشيخ ونحن معه إلى مدخل البناية فرأيته ينقب هناك.. لم يكن البلاط يغطي عتبة البيت كلها، بل كانت هناك بقعة ترابية انتزع بلاطها منذ زمن..

رأيته يقف هناك ويتشمم الهواء، ثم انحنى وراح يحفر بأظفاره.

ـ «جرب هذا..».

قالها الأب وهو يناوله مطواة صغيرة فأمسك بها وواصل الحفر بينما وقف البواب وجار أو جاران ينظران للمشهد في دهشة.. في النهاية أخرج الشيخ كيسًا من الخيش أقرب إلى لفافة..

نظر لنا في انتصار نظرة معناها (تم) ثم قال في رضا:

ـ «هذا العمل وضع هنا بحيث تضطر إلى أن تخطو فوقه عندما تدخل أو تخرج.. والحمد لله أننا وجدناه ولسوف نبطله».

سألته في فضول وأنا أتحسس هذه اللفافة:

ـ «ماذا فيها؟».

أبعدها عني بحذر حتى لا تؤذيني هذه الأمور التي لا أفهمها، ومد يده داخلها وأخرج قطعة صغيرة من عظم.. شظية مغطاة بالغبار وقال:

ـ «طبعًا لابد من تراب مقابر وجزء من عظم ميت.. هناك شعر كذلك لابد أنه شعر الفتاة.. من صنع هذا العمل حصل عليه بشكل ما.. في الغالب يتفق مع خادمة أو كوافير أو شيء من هذا القبيل».

ثم أخرج ورقة صغيرة لم أتبين فيها إلا عبارة (إلهام بنت فوقية).. أما الباقي فكان كتابة أقرب إلى نبش الدجاج.. كتابة عفاريتي جدًا.. صحت بلا حذر:

ـ «فوقية؟.. من فوقية؟».

صاح أبو (إلهام) في تحفظ حانق:

ـ «هذا اسم المدام!... لا تكرره من فضلك!».

هكذا انصرف الرجل مشكورًا منتفخ الجيب مع تعليمات صارمة للأب أن يتخلص من هذه اللفافة في الماء الجاري.. ربما يلقيها في النيل إذا لم يكن حريصًا على البيئة..

ظللت أنظر له وهو يبتعد ثم سألت الأب :

ـ «كيف عرف اسم فوق..... أعني المدام؟».

قال في ضيق:

ـ «من عمل هذا العمل لابنتي ودفنه هنا يعرف..».

ـ «لكنك تعرف كما أعرف أنه هو من دفن هذا العمل هنا.. هكذا يفعلون دومًا.. وهكذا يفعل الرفاعية الذين يجدون الثعبان بسهولة لأنهم هم من وضعوه..».

ثم أضفت في حماس:

ـ «وما الهدف من هذا العمل؟.. لماذا يريد أي شخص شيئًا من ابنتك؟».

ـ «الانتقام!».

قالها في عمق وحنكة كأنه عرف الجواب اليقين، ثم اتجه إلى مدخل البناية حاملاً غنيمته.. لم يدعني للدخول فقررت أن أنصرف..

***

قال د. (مصطفى) أستاذ علم النفس وهو يتحسس صلعته اللامعة الأنيقة:

ـ «سوف تجد هذه القصة تتكرر دائمًا.. إنها في النهاية ليست سوى ذلك الزواج السعيد بين أسلوبين للسحر وصفهما (فريزر) في كتابه (الغصن الذهبي): السحر بالاقتران والسحر بالمحاكاة..».

ثم أشعل غليونه. كان يكره دخان الغليون لكنه مضطر لذلك كي يبدو مثل فرويد.. وأردف:

ـ «السحر بالاقتران يرمز فيه الجزء إلى الكل.. الشعر أو الأظفار أو قطعة من الثياب ترمز للشخص كاملاً.. الرجل البدائي يعتقد أن ما يحل بشعره يحل به هو.. ولهذا تجد الطبقات الشعبية تحرص على التخلص من بقايا الحلاقة أو قص الأظفار في الحمام.. السحر بالمحاكاة يستعين بدمية (فتيش) تشبه الشخص موضوع السحر.. غرس إبرة في بطن هذه الدمية يعني أن يصاب صاحب الدمية بألم في بطنه.. الخ.. طبعًا من الواضح أن السحر المصري يستعمل النوعين معًا.. كان الفراعنة يعتقدون أن التمساح (إبيبي) يمنع (رع) من الظهور باعتباره قرص الشمس.. لذا كانوا يصنعون

دميـة للتمسـاح ثـم يغلفونهـا بـورق الـبردي، ويطعـن الكاهـن هـذه الدميـة ويدوسـها ثـم يلقـي بهـا في النـار.. كان في بـلاط فرنسـا منجـم مشـهور اسـمه (روجـيري) كان مختصًـا بصنـع هـذه الدمـى الشـمعية.. قيـل إنـه صنـع دميـة للملـك شـارل التاسـع وجـه لهـا ضربـات في الـرأس.. وقـد مـات الملـك بعدهـا وهـو يعـاني ألمًـا في الـرأس.. هنـاك محاكمـات لا حـصر لهـا لسـحرة مارسـوا هـذا الـضرب مـن السـحر الأسـود وكلهـا انتهـت بالإعـدام طبعًـا.. أمـا في انجلـترا فقـد حدثـت حالـة ذعـر عندمـا وجـدوا تمثـالاً شـمعيًا للملكـة إليزابـث وفي صدرهـا دبـوس كبـير.. الخلاصـة أن هـذا النـوع مـن السـحر قديـم جـدًا.. مـا حـدث في حالـة فتاتـك هـذه هـو أن هنـاك مـن صنـع لهـا محـاكاة تتمثـل في عظـام ميـت وتـراب مقابـر مـع اسـمها.. ثـم أضـاف شـعرات المفـترض أنهـا منهـا للاقـتران.. بهـذا صـار مـا يحـدث لهـذه اللفافـة يحـدث للفتـاة..».

قلت في غيظ:

ـ «لكننـا نعـرف أن ذلـك المشـعوذ لـم يجـد اللفافـة.. لقـد دفنهـا هنـاك بنفسـه».

ـ «هـذا مؤكـد.. لكـن لـو كان هنـاك طـرف ثالـث أراد أن يـؤذي الفتـاة لمـا فعـل غـير هـذا.. لاحـظ أن الأطفـال والطبقـات الشـعبية يتصرفـون ويفكـرون مثـل الرجـل البـدائي..».

قلت له في استمتاع:

ـ «لابد أن تقرضني كتاب الغصن الذهبي هذا..».

اتجـه إلى أرفـف المكتبـة فانتقـى مجلـدًا ضخمًـا بالإنجليزيـة ناولـه لي، ثـم أخـرج شـيئًا صغـيرًا مـن عـلى الـرف تأملتـه فوجـدت أنـه دميـة خشـبية قبيحـة المنظـر.. دميـة بدائيـة لا تشـبه (بـاربي) بالتأكيـد..

ـ «هـذه مـن إندونيسـيا.. هنـاك جـزر كاملـة تعتنـق الوثنيـة فليـس كل

الإندونيسيين مسلمين لو كنت تعتقد هذا.. وهذا الفتيش اشتريته من هناك..».

أمسكت بالدمية في تقزز.. قبيحة فعلاً..

قال وهو ينفض الغليون:

ـ «يمكن أن تضع فيها شعر أو أظفار الشخص الذي تريد أن تؤذيه.. ما يحدث للدمية يحدث للشخص أو هذا ما يؤمنون به.. قل لي.. هل تجرب؟».

نظرت ليده فوجدت ذلك المقص الصغير.. قلت مراوغًا:

ـ «بالطبع لن أفعل..».

ـ «لمه؟.. أنت رجل علم تؤمن أن هذا هراء..».

ـ «لكن هذا أقوى مني.. أنت تكلمت عن الوجدان الجمعي.. هناك جزء في عقلي يرفض هذا بقوة.. ما زلت أغطي قدمي أثناء النوم كي لا يمسك بها ذلك الشيء تحت الفراش.. أنا أؤمن أنه لا وجود له لكني أؤمن كذلك أن علي أن أغطي قدمي كي أحميها منه!».

ابتسم في ثقة، ثم اتجه إلى الحمام فعاد بفرشاة شعر.. انتزع منها بضع شعيرات ثم فك جزءًا من الثوب الخشبي البدائي المحيط بالدمية ودس الشعرات تحته ثم أعاد تثبيته بقطعة خيط..

قال ضاحكًا:

ـ «الآن ما يحدث لهذه الدمية سيحدث لي..».

ومد يده بحثًا على مكتبه حتى وجد فتاحة ورق.. أعطاني إياها وقال:

ـ «هلم.. أرني براعتك!».

ـ «متأكد؟».

ومـددت النصـل بحـذر ليوخـز قلـب الدميـة.. رفعـت رأسي نحـوه فوجدتـه يبتسـم في ثقـة.. هكـذا غرسـت النصـل أكـثر.. ورحـت آتي هـذه المـرة بحـركات لا حـصر لهـا تـدل عـلى سـادية واضحـة كأنـني أبرهـن لـه عـلى أنـني لا أخـاف.. لكنـه كان واقفًـا يبتسـم وأسـنانه عـلى الغليـون ويـداه في جيـبي الـروب.. لـم يعـو مـن الألـم ولـم يمـت..

ـ «هـل تـرى؟.. منطـق العلـم لا يهـزم.. حـتى لـو كانـت قـرون مـن الخرافـات تنعـس في أعمـاق وجداننـا الجمعـي».

ابتسـمت ثـم رددت لـه الدميـة.. ونصحتـه أن يحافـظ عليهـا جيـدًا.. وجلسـنا نثرثـر ربـع سـاعة..

كنـت عـلى بـاب شـقته عندمـا دق الهاتـف فأشـار لي أن أنتظـر ثـم رفـع السـماعة وسـمعته يقـول في قلق:

ـ «مـاذا؟.. أثنـاء المحـاضرة؟... كيـف؟.. لا يعرفـون؟.. مستشـفى (عيـاد)؟.. الـدور الرابـع؟... سـآتي حـالاً..».

ثـم نـزع الـروب في ثانيـة فوجدتـه أمامي بالثيـاب الداخليـة الـتي تتنـافى مـع وقـاره خاصـة أن الغليـون ظـل بـين أسـنانه.. جـرى لغرفـة النـوم وعـاد وهـو يـزرر الـسروال ويرتـدي السـترة في الوقـت ذاتـه وقـال لاهثًـا:

ـ «زوجـتي.. دكتـورة (غـادة).. كانـت تلقـي محـاضرة عندمـا أصيبـت بألـم حـاد في الصـدر والبطـن.. لا أحـد يعـرف مـا دهاهـا.. يقـول الأطبـاء إنهـا أغـرب نوبـة قلبيـة رأوهـا.. أيـن هـذا الجـورب اللعـين؟.. هـل معـك سـيارة؟».

كان يركـض عـلى الـدرج وهـو يواصـل ارتـداء ثيابـه، بينمـا أنـا ألحـق بـه.. نظـرت إلى رأسـه الأصلـع وتسـاءلت عـن حاجـة رأس كهـذا لفرشـاة شـعر؟... الشـعيرات الـتي انتزعهـا مـن فرشـاة الشـعر لـم تكـن تخصـه... كانـت تخـص شـخصًا آخـر لـه شـعر طويـل يصففـه عـدة مـرات كل يـوم!

ربـاه!... وأنـا الـذي رحـت أغـرس النصـل بإخـلاص كأنـه آخـر عمـل مفيـد أقـوم بـه في حيـاتي!

هـل لهـذا معـنى مـا؟.. هـل هـي المصادفـة؟.. هـل تعمـد اسـتعمال شـعرات زوجتـه؟.. هـل فعـل ذلـك ليؤذيهـا أم لأنـه لـم يجـسر عـلى التجربـة بنفسـه؟

أسـئلة كثـيرة لا وقـت لهـا.. فقـط لنـسرع إلى المستشـفى ولنـدع الله أن تتحسـن الأمور..

صرخات في الظلام

عندما أطفأ (عوني) نور غرفته دوت الصرخة شنيعة طويلة..

كان فيها شيء مريع غير آدمي ولا أرضي، لكنه لم يبال بهذا قدر مبالاته بحقيقة أن الصرخة تأتي من حجرته ذاتها.. إنها معه هنا والآن.. وقد أضاء النور ووقف فوق الفراش مذعورًا ينظر ذات اليمين وذات اليسار.. لا يوجد شيء..

جثا على ركبتيه تحت الفراش - حيث تنبعث رائحة الأثاث العتيق الكريهة - ليلقي نظرة، لكنه كان يعرف يقينًا أنه لن يجد شيئًا.. فهذا السيناريو تكرر أربع مرات من قبل على مدى ثلاثة أشهر.. لو أن (علاء) ذلك الأحمق لم يقرر أن الإقامة في شقة مفروشة لا تناسبه لكانت الحياة أهون.. رحل (علاء) ومعه رحل نصف الأمن..

قام بجولة في الغرفة فلم يجد شيئًا ذا بال..

خرج إلى الصالة المظلمة وجلس يلتقط أنفاسه.. أشعل لفافة تبغ.. هذا ما قاله لي فيما بعد ولم يحكه لأهله طبعًا لأنهم لن يبتلعوا أبدًا فكرة أن يرتكب ابنهم هذه الجريمة الشنعاء..

عندما انتهت لفافة التبغ كان قد وصل إلى قراره النهائي: لن يبقى في هذه الشقة أبدًا.. لو تمسك أهله بها فلسوف يفارق كلية الهندسة ذاتها..

وهكذا نزل إلى الشارع البارد المظلم.. على الأقل كان أكثر دفئًا وأمانًا من تلك الشقة التي لم يعد يطيقها.. أخرج البطاقة البلاستيكية ودسها في جهاز هاتف عمومي وطلب رقم (٠٤٠) الذي يعني أنه يطلب الغربية، وانتظر حتى جاء صوت الأب المتسائل

المذعـور يسـأله عمـا هنالـك.. إن مكالمـة نـداء مبـاشر في الثالثـة صباحًا لا تعـني إلا شـيئًا واحـدًا..

ـ «أنـا لـن أبقـى في هـذه الشـقة ليلـة أخرى..سـوف أعـود لكـم صباحًـا..».

ـ «هـل تمـزح؟.. إن الامتحانـات عـلى الأبـواب.. لا وقـت لهـذا الهـراء، ولـن تجـد أبـدًا شـقة شـاغرة الآن..».

ـ «قلـت لـك يـا والـدي إن هـذه الشـقة ليسـت عـلى مـا يـرام.. إنهـا مسـكونة.. أفضـل أن أسـافر مـن وإلى طنطـا يوميًـا..».

ـ «مستحيل!..».

قالهـا الأب في إصرار ثـم قـدم عرضـه: لـن يقـدم الفـتى عـلى شيء مجنـون، لكـن الأب قـادم في الصبـاح لمعرفـة مـا هنالـك..

هكـذا لـم يجـد (عـوني) مناصًـا مـن أن يمـضي ليلتـه في الشـقة، لكنـه أمضاهـا بطريقـة متوتـرة بعـض الـشيء.. الأنـوار كلهـا مضـاءة وهـو جالـس عـلى أريكـة الصالـة العتيقـة مفتـوح العينـين وفي يـده المصحـف.. لـم تكـن هنـاك صرخـات لكنـك تسـتطيع أن تـدرك بسـهولة أن خشـب الأثـاث كائـن حـي.. الحـشرات صاخبـة فعـلاً.. حـتى صـوت أنفاسـك أعـلى ممـا يجـب..

في الصبـاح جـاء الأب ومعـه صديـق حميـم.. طبعًـا مـا كان ليسـتطيع الوصـول إلى هـذا العنـوان مـن دون صديـق قاهـري، وكان هـذا المسـكين هـو أنـا طبعًـا.. المهنـدس (جـودة) المديـر العـام عـلى المعـاش هبـط عـلى داري ليصحبـني معـه إلى تلـك الشـقة المفروشـة الـتي يقيـم فيهـا ابنـه..

كان (عـوني) شـابًا مهذبًـا تمـت تربيتـه جيـدًا.. الطـراز الـذي تتركـه في شـقة مفروشـة وحـده في القاهـرة متأكـدًا مـن أنـه لـن يملأهـا بالغانيـات

وزجاجات الخمر وسجائر البانجو، وكان له صديق يدعى (علاء) من ذات المدينة يدرس الطب ويقيم معه في ذات الشقة، لكنه فضل أن يسافر يوميًا لأنه لم يعتد الحياة بعيدًا عن (ماما).. هذا يدلك على أخلاق (علاء) هذا.. إنه خجول أقرب للفتيات ذوات الخفر، ولا شك أن الأب تضايق لدى رحيل هذا الشاب الذي كان بلا شك صمام أمان بالنسبة لابنه.. الحقيقة انه كان سيجن لو عرف أن ابنه يدخن وقد تعلم هذه العادة من (علاء)..

في العاشرة صباحًا كنا في الشقة المفروشة، وقد راح الفتى يحكي لنا قصته.. الصرخات التي تدوي في بعض الليالي من غرفته بالذات.. يقوم بالبحث في كل ركن لكن لا شيء.. صرخات مريعة يمكن أن تجمد الدم في عروقك بلا أية مبالغة، لكنها ككل تلك الظواهر (الفورتية) لا تحدث أبدًا عندما تنتظرها..

كان الأب واضحًا.. نحن في نهاية العام الدراسي ولا وقت لهذا الهراء.. لو أن كل عفاريت العالم السفلي يقيمون في هذه الشقة، ولو أن القبور تفتح ليلاً لتقذف سكانها في غرفة نوم الفتى، فلا وقت للفرار.. لابد للفتى أن ينجح أولاً.. لا توجد شقق مفروشة في هذه الآونة، والفتى لن يستطيع أن يعتاد السفر في هذا الوقت القصير قبل نهاية العام.. إذن ضاع العام وضاع مستقبل (عوني) وضعت أنت يا (جودة) ولا حول ولا قوة إلا بالله..

ـ «عندما كنت في الجيش كنا نمشي قبل الفجر ثلاث ساعات في الصحراء، وكنا نسمع أطفالاً يصرخون على جانبي الطريق فلا نبالي بهذا السخف.. أنتم شباب مدلل..».

ـ «وأنتم كنتم تفتقرون للخيال..».

قلت وأنا أحاول أن أكون واسطة خير:

ـ «اعتقد أنه بوسعنا فهم ما يحدث.. لكن لابد من أن نمضي

ليلـة معـك..».

ـ «قلت لك إن هذه الظواهر لا تأتي أبدًا عندما تريدها..».

لكنـني صممـت عـلى أن نجـرب.. هكـذا جـاء المسـاء ونحـن في الشـقة المفروشـة نلتهـم بعـض شـطائر الجـبن الرومـي والمخلـل مـن (سـعد) البقـال الـذي يقـع متجـره تحـت الشرفـة - وهـو عشـاء الفـتى الدائـم- ونـشرب الشـاي الثقيـل الـذي أعـده لنـا.. ثـم جلسـنا في حجرتـه.. أبـوه عـلى الفـراش وأنـا والفـتى عـلى مقعديـن خشـبيين.. طبعًـا مـر الليـل بطيئًـا سـمجًا ثقيـل الظـل.. الأب تمـدد عـلى الفـراش، وأنـا أرحـت رأسي عـلى حافتـه وأنـا جالـس عـلى مقعـدي، بينمـا (عـوني) راح يطالـع كتابًـا ثقيـلاً أتحـدى أن يكـون قـد وعـى حرفًـا ممـا فيـه.. وقـد غـادر الغرفـة مرتـين.. فيمـا بعـد عرفـت أن هـذا كان ليدخـن عـلى عجلـة وخلسـة لفافـة تبـغ في الشرفـة بعيـدًا عـن عيـني الأب....

عند الثالثة صباحًا دوت الصرخات وياله من حظ!..

تجمـد الـدم في عروقنـا، ونهـض الأب وهـو يـردد : بسـم الله الرحمـن الرحيـم.. بينمـا ظـل (عـوني) صامتًـا وهـو يرمقنـا وعـلى وجهـه شـبح ابتسـامة مـن طـراز (ألـم أقـل لكـم؟)..

صرخـات عاليـة جـدًا.. مسـتحيل أن يكـون هـذا مزاحًـا أو تكـون هنـاك لعبـة.. لـولا أن توصيـل الصـوت سـيئ جـدًا في هـذه الشـقة لوجـدت كل الشـارع يقـف عـلى بابنـا متسـائلاً عمـن يذبـح مـن..

وثبـت مسرعًـا بحثًـا عـن مصـدر الصـوت الـذي تـلاشى عـلى كل حـال.. لا يوجـد.. اتجهـت إلى خزانـة الثيـاب العتيقـة وفتحتهـا فلـم أر بهـا إلا كيسًـا بلاسـتيكيًا ضخمًـا مـع مجموعـة مـن الأحذيـة العتيقـة..

أكاد أقسم أن الصراخ يأتي من هنا.. لكن كيف؟

مـددت يـدي إلى الكيـس وعبثـت بمحتـواه ثـم قلبتـه عـلى الأرض.. لـم

يكـن فيـه إلا أدوات تشريـح صدئـة وجمجمـة آدميـة صغـيرة الحجـم وبعـض كتـب التشريـح الباليـة..

قال (عوني):

ـ «أنـا جربـت هـذا قبلـك.. لا يوجـد جهـاز راديـو منـسي ولا لعبـة أطفـال ولا فـأر جريـح. هـذه الأشـياء مـن بقايـا (عـلاء) عندمـا تـرك الشـقة ولـم يـأت لاسـتردادها قـط..».

ـ «لماذا ترك الجمجمة؟».

ـ «لأنـه لـم يعـد يحتـاج إليهـا في دراسـته.. هـذه الأشـياء تظـل في حـوزة طالـب الطـب إلى أن يقرضهـا لطالـب آخـر..».

عـدت إلى الجلـوس ونظـرت إلى الأب والفـتى، ثـم قلـت وأنـا أنظـر إلى الجمجمـة:

ـ «يبـدو كلامـي غريبًـا لكـن اعتقـد أنـني عرفـت التفسـير.. إن ظواهـر الجماجـم الصارخـة معروفـة في العالـم الغـربي لكننـا لا نعـرف عنهـا الكثـير.. لقـد وصفـت في أكـثر أجـزاء إنجلـترا، والقصـة دائمًـا هـي قصـة جمجمـة تصـدر صرخـات مريعـة ليـلاً لأن هنـاك مـن حـاول نقلهـا مـن موضعهـا، أو لأنهـا أبعـدت عـن أجسـادها.. هنـاك قصـة عـن سـيد إنجليـزي عـاد مـن الإنديـز بعبـد رقيـق.. وقـد أوصى هـذا العبـد لـدى موتـه بـأن يدفـن رأسـه في وطنـه في إحـدى جـزر الكاريـبي.. لكـن بالطبـع لـم يقـم أحـد بتنفيـذ هـذا الوعـد.. النتيجـة أن صرخـات مريعـة كانـت تنطلـق مـن القـبر الـذي دفـن فيـه العبـد.. ثـم نقـل أحدهـم الجمجمـة إلى داره.. عندهـا بـدأت الصرخـات تنبعـث مـن هـذه الجمجمـة.. هنـاك كذلـك قصـة اخـرى مريعـة مـن القـرن السـادس عـشر عـن جمجمـة الأب (أمـبروز بارلـو) الـتي يجدهـا النـاس تنظـر لهم مـن أعـلى الـدرج وتـصرخ.. وقصـة عـن (ويليـام كـوردر) البريطـاني الـذي قتـل عشـيقته فشـنق.. حصـل احـد الأطبـاء مـن هـواة جمـع

الجماجم على هذه الجمجمة واحتفظ بها بعد ما قام بصقلها.. خلال أيام صارت الصرخات تدوي في بيته حتى اضطر للتخلص من الجمجمة.. المالك الجديد لها أصابه الهلع من الصرخات حتى أنه قام بدفن هذه البقايا..هناك اعتراضات كثيرة على هذه النظرية لكن لا اعتراض على مغزاها الأخلاقي: من حق المرء أن يموت وهو يعرف أن أحدًا لن يعبث بعظامه».

نظر لي الأب بوجهه الممتقع وقال:

ـ «هل تريد أن أصدق هذا؟».

ـ «لا أريد أي شيء.. فقط أنا أرجح أن (علاء) حصل على هذه الجمجمة عن طريق أحد اللحادين.. طبعًا ما يفعله كثير من هؤلاء هو سرقة المقابر.. هناك قصص مريعة في إنجلترا عن لحادين قتلا ستة عشر شخصًا فقط ليوفرا عظامًا طيبة لطلاب الطب.. ما حدث هو أن اللحاد سرق جمجمة ما كان ينبغي لها أن تسرق.. جمجمة تكره الانفصال عن جسدها..».

قال الأب وهو يقف حافي القدمين ينظر للبلاط المتسخ:

ـ «بيني وبينك.. لا أصدق حرفًا.. لكني متفق على أن عظام الميت يجب أن تكرم.. هذه الجمجمة يجب أن تحظى بدفن لائق..».

نظرت إلى (عوني) مبتسمًا وقلت:

ـ «هكذا سوف تحل مشكلتك.. سوف نأخذ هذه الجمجمة ونعيدها إلى (علاء) كي يدفنها..».

ـ «ولماذا لا ندفنها نحن؟».

ـ «أعتقد أنها يجب أن تعود لقبرها الأصلي.. هذا هو تصوري للموقف..».

قال (عوني) وهو يرتجف:

ـ «وهـل تعتقـد أن خـلاصي مـن هـذه الجمجمـة يحـل المشـكلة؟.. بعـد هـذا أنـام في شـقة أعـرف أنـه كانـت فيهـا جمجمـة صارخـة؟».

قال الأب وقد احتقن وجهه:

ـ «سـتفعل ذلـك أيهـا المدلـل وتنجـح وتحصـل عـلى تقديـر عـال.. عندمـا كنـت في الجيـش كنـا نمـشي قبـل الفجـر ثـلاث سـاعات في الصحـراء، وكنـا نسـمع أطفـالاً يصرخـون عـلى جانـبي الطريـق فـلا نبـالي بهـذا السـخف.. أنتـم شـباب رقيـع..».

ينوي أن يحكي القصة للمرة الألف..

في النهايـة أعطيـت الفـتى وعـدًا بـأن أجـد لـه مـن يقيـم معـه في هـذه الشـقة.. وانصرفنـا راضـين عمـا عرفنـاه..

عندمـا عـاد الأب أخـبر (عـلاء) صديـق ابنـه بالقصـة كلهـا، ولكـن طالـب الطـب الشـاب لـم يكـن يعـرف مصـدر الجمجمـة لأنـه ورثهـا مـن طالـب طـب آخـر كالعـادة.. ربمـا لـو تتبعـت السلسـلة لقابلـت عـشرة أسـماء.. هكـذا خـرج الأب و(عـلاء) إلى المقابـر ونفحـا لحـادًا بعـض المـال كي يدفـن لهمـا هـذه الجمجمـة دفنًـا لائقًـا... المفاجـأة الأكـثر إثـارة هـي أن السـفر المتكـرر أرهـق (عـلاء) لـذا قـرر أن يعـود للإقامـة في تلـك الشـقة في الأشـهر الباقيـة عـلى امتحـان آخـر العـام.. هكـذا حلـت المشـكلة مرتـين..

نسـيت كل شيء عـن القصـة إلى أن دق الهاتـف عنـدي ذات ليلـة فرفعـت السـماعة لأجـد (عـوني) يقـول لي:

ـ «عمو (محفوظ).. قد عادت الصرخات!».

فركت عيني في ذهول.. ثم عدت أسأله:

ـ «هل عرفت مصدرها؟».

ـ «نعـم.. لقـد فتـح (عـلاء) الخزانـة ليجـد الجمجمـة ذاتهـا هنـاك!..

إنـه مصـاب بانهيـار عصـبي الآن.».

فكرت حينًا ثم قلت وقد تذكرت:

ـ «في بعـض القصـص – ومنهـا قصـة جمجمـة (كـوردر) هـذه - قيـل إن الجماجـم غـادرت التربـة وعـادت.. حـتى أنهـم اضطـروا في بعـض الأحيـان إلى سـحق الجمجمـة للخـلاص منهـا».

جاء صوته المغتاظ في الهاتف:

ـ «ولماذا لم تخبرني بهذا؟».

ـ «لأنـني نسـيت بعـض التفاصيـل.. إن عقـلي ليـس دفـترًا لـو كان هـذا قـد خطـر لـك.. اسـمع يـا بـني.. لا أرى داعيًـا لـكل هـذا الـصراخ.. حـاول أن تجـد طريقـة لسـحق هـذه الجمجمـة وبعدهـا سـوف يعـم السـلام الأرض وينعـم الجميـع بحياتهـم.. والآن أرجـو أن تتركـني أنـام.. مـن فضلـك!».

ماذا يحدث في شقتنا؟

عندما عاد مهندس الإلكترونيات (أحمد الشرشابي) إلى شقة (العجمي) لم يستطع أن يصدق ما يراه..

وقف مذهولاً ومن خلفه زوجته (همت) وولداه المراهقان، فلو أن (رودان) رآهم لنحت أربعة تماثيل رائعة وعرضها متحف اللوفر تحت اسم (الذهول)..

هم أولاء مرهقون من السفر والحقائب في أيديهم، لكنهم ينظرون في لهفة ودهشة إلى الفوضى العامة التي جعلت الشقة الجميلة ساحة معركة.. المقاعد مقلوبة.. البساط مطوي.. الستائر ممزقة.. هناك أثر دام على الأرض يذكرك بأسد جر فريسته الممزقة عبر طريق من غبار ودم.. علامات على الجدران، لكنها ليست علامات عشوائية، بل هي رسوم تم رسمها بدقة بقلم من فحم..

الغريب في الأمر أن الشقة مغلقة جيدًا. لم تقتحم شرفتها ولم يقتحم الباب.. هناك من فتحها بعناية وأحدث كل هذه الآثار ثم غادرها وأغلق الباب..

قالت الزوجة وهي تشمر عن ساقيها وساعديها:

ـ «يجب أن أنظف هذا كله.. تنحوا جانبًا..».

لكنه منعها من ذلك.. لابد أن يرى رجال الشرطة المشهد..

فتش عن كل شيء ثمين أو قابل للسرقة فوجده. اللص الذي لا يسرق جهاز الكاسيت الثمين ولا التلفزيون خفيف الحمل هو لص أمين أكثر من اللازم أو أحمق.. صحيح أن شاشة التلفزيون كانت ملطخة بالسواد لكن هذا كل شيء..

جـاء رجـال الشرطـة والتقطـوا صـورًا وسـألوه إن كان يتهـم أحـدًا.. قامـوا بفحـص كل شيء.. لا توجـد سرقـة.. نعتقـد أن متسـكعًا تسـلل للشـقة وأمـضى فيهـا عـدة أيـام.. هـذه الأشـياء تحـدث مـع شـقق المصايـف الـتي لا يسـتعملها سـكانها إلا بضعـة أيـام كل عـام..

لكن كيف دخل من دون عنف؟

ـ «فكـر جيـدًا.. هنـاك مـن حصـل عـلى المفتـاح واسـتخرج نسـخة منـه..».

هـذا يسـهل قولـه.. لكـن (أحمـد الشرشـابي) لـم يكـن ممـن يفقـدون المفاتيـح.. هنـاك مفتاحـان معلقـان في مكتبـه بشـقته في القاهـرة، وهما لا يغـادران المكتـب إلا إلى جيبـه.. الولـدان أصغـر سـنًا مـن مغامـرة كهـذه.. لكـن رجـال الشرطـة لا يصدقـون هـذه الأمـور.. شـعارهم هـو (لا يمكـن أن تكـون حـذرًا أكـثر ممـا يجـب) كمـا يقـول الغربيـون.. كل إنسـان يعتقـد أنـه واع متيقـظ جـدًا لكـن العكـس صحيـح.. هنـاك عـشرات القصـص المماثلـة، وهنـاك دائمًـا أخ عابـث يـسرق المفاتيـح منـك لتكـون لـه شـقته الخاصـة في العجمـي مـن دون علمـك..

ـ «ليس لي أخ على كل حال».

هكـذا وقـف في الشرفـة يدخـن ويرمـق أمـواج البحـر، بينمـا (همـت) في الخلفيـة تنظـف الشـقة بمعاونـة الولديـن.. مـاذا حـدث؟.. ومـتى؟.. هـل هنـاك جريمـة قتـل دارت هنـا؟.. مـن جديـد يـبرز السـؤال عـن كيفيـة دخـول القاتـل؟

هكذا مد يده إلى جهاز الهاتف يطلب رأيي..

كان جـوابي بعـد سـماع القصـة عمليًـا جـدًا: أنـت لـن تعـرف أبـدًا.. لـن تتفـوق عـلى رجـال الشرطة..لـم يُسرق شيء ولـم يتـأذ أحـد، لـذا أنصحـك بـأن تنـسى الموضـوع وتبـدل قفـل البـاب وتؤمـن الشرفـة وتسـتمتع بإجازتـك..

ـ «أستمتع؟.. هل تعتقد أنه بقى لي استمتاع؟».

هكـذا مـرت الإجـازة.. لكنـه كان قلقًـا وبالفعـل لـم يسـتمع لحظـة.. إنـه الافتقـار إلى الأمـن.. الشـعور بأنـك عـار تمامًـا مكشـوف تمامًـا، وأن البيـت ليـس حصنًـا والمفاتيـح لا تضمـن شـيئًا..

عـادت الأسرة إلى القاهـرة.. وعـادت تمـارس حياتهـا العاديـة، لكـن (أحمـد الشرشـابي) أمـضى أسـبوعًا يفكـر، ثـم انطلـق إلى العجمـي في (كبسـة) مفاجئـة.. لا يعـرف السـبب ولا مـا دفعـه لذلـك، لكنـه أحسـن صنعًـا.. لقـد كانـت الشـقة في ذات الحالـة الـتي وجدهـا فيهـا مـن قبـل!.. نفـس الفـوضى المريعـة فيمـا عـدا أن آثـار الجـر عـلى الأرض كانـت أعنـف.. مـرآة الحمـام عليهـا ثـلاث قطـرات دم..

عندما اتصل بي كان في أسوأ حال، وقال في هستريا:

ـ «هذه الشقة مسكونة.. لا يوجد تفسير آخر..».

قلت في هدوء من ليست يده في النار:

ـ «هنـاك تفسـير عقـلاني ونحـن واجـدوه مـن دون شـك.. إن هـذا الذي يحـدث يذكـرني بكابـوس قديـم في طفولـتي.. تـرى مـاذا يحدث في شـقتنا بعـد تركهـا لفـترة؟.. لـو وضعنـا كاميـرا هنـاك لتصـور فمـاذا سـترى؟.. مـا الـذي يحـدث في الشـقة الخاليـة المظلمـة في هـذا الوقـت؟».

كانـت فكـرة مرعبـة وأعتقـد أنهـا أثـرت فيـه.. لقـد صمـت قليـلاً فلـم أسـمع إلا أنفاسـه ثـم قـال:

ـ «دائـرة تلفزيونيـة مغلقـة تسـجل كل شيء.. هـذا هـو الحـل.. أنـا مهنـدس الكترونيـات ويجـب أن أعـرف كيـف أفعـل ذلـك..».

ـ «هـل تمـزح؟.. أي شريـط يتسـع لعـام مـن التسـجيل أو بضعـة أيـام؟».

ـ «بـل بضعـة أيـام.. ثانيًـا سـوف أضـع خلايـا كهروضوئيـة متناثـرة..

إذا قطعها شيء بدأ التسجيل لمدة ربع ساعة.. هناك جهاز صغير يجعل هاتفي المحمول يرن إذا عبث شخص ما بهذه الخلايا.. أي أنني سأتلقى إشارة على جهاز المحمول تبلغني أن هناك من يتحرك في الشقة.. هكذا أسافر إلى الاسكندرية فورًا، وأرى ما سجله الشريط..».

ـ «ما زلت أرى أن بيع الشقة أسهل..».

ـ «ليس قبل أن أفهم ما يحدث..».

ووضع السماعة.. كان بارعًا لذا عرفت أنه سيؤدي العمل بإتقان.. (شغل المعلم لنفسه) كما يقولون.. وعرفت أنه عاد إلى القاهرة وعاد يمارس عمله.. أعتقد أن القصة انتهت عند هذا الحد..

لا لم تنته.. لقد اتصلت بي زوجته ذات صباح كئيب تخبرني بأنه سافر إلى الاسكندرية ليلة أمس، لكنه لم يعد ولا يرد على الهاتف.. قالت إنه تلقى إشارة من هاتفه المحمول تبلغه أن هناك من تسلل للشقة.. وقد وعدها بأن يحضر معه البواب ورجال الشرطة قبل أن يقتحم الشقة، فهو لا يبغي لعب دور (رامبو)... أخذت منها عنوان الشقة بدقة ووعدتها بأن أتصرف.. طبعًا لا نية لي في أن اذهب إلى العجمي من أجل هاتف معطل..

اتصلت بصديقي الاسكندراني (حلمي) وأخبرته بالقصة - الجزء الأخير منها - ووصفت له عنوان الشقة.. أنت تقيم في (الدخيلة)، فهل بوسعك أيها الصديق العزيز المخلص أن تذهب إلى هناك وتسأل البواب عنه وتدق جرس الباب حتى يفتح لك؟... تذكر أن هناك زوجة قلقة..

ـ «سأفعل.. لكن اتصل بي أنت لأن رصيد الموبايل...».

ـ «مفهوم. مفهوم.. فقط تحرك..».

بعد ساعة اتصلت بـ (حلمي) فرد على الفور..

ـ «أنا الآن أقرع بابه.. يبدو أنه لا أحد بالشقة.. لقد مررت على البواب فقال لي إن المهندس (أحمد) دخل شقته معه ورجل شرطة ليلة أمس.. لم يكن هناك شيء لكن الشقة كانت في حالة فوضى مروعة.. قال إن المهندس كان متعجلاً للتخلص منه ومن رجل الشرطة.. كان يريد التواجد وحده لسبب ما.. هكذا تركاه بعد ما أكد لهما انه بخير.. لكنه لم يغادر الشقة حتى اللحظة.. انتظر.. إن الباب موارب في الواقع وليس مغلقًا.. أعتقد أنني سأدخل..».

ـ «إذن كن حذرًا من فضلك..».

على الفور دوى صوت يشبه جرس الإنذار.. وتساءل (حلمي) في ذعر عن مصدر الصوت فقلت:

ـ «جهاز المحمول الخاص به.. إنه يطلق إشارة إنذار لو تسلل احدهم للشقة مثلك.. أنت تجتاز دائرة كهروضوئية.. المهم هل ترى شيئًا؟.. معنى وجود المحمول أنه هنا».

قال وهو يلهث رعبًا:

ـ «إنه هنا بالفعل.. على الأريكة والذعر في عينه.. إنه متصلب وأعتقد أنه ميت..».

ابتلعت ريقي.. ثم سألته:

ـ «آثار عنف؟».

ـ «لا. آثار رعب.. هناك جهاز تلفزيون أمامه. يخيل إلي إنه كان يشاهد فيلم فيديو عندما أصابته نوبة قلبية..».

ـ «اسمع.. قد يبدو كلامي غريبًا لكني أريد أن تعيد شريط الفيديو قليلاً إلى الوراء وتصف لي ما تراه..».

ـ «فعلاً هذا أغرب مطلب سمعته.. رجل متوف وتطلب مني أن...

لحظة.. هاهوذا.. هذه لقطات ثابتة من أعلى تظهر هذه الصالة في ضوء خافت.. لا يوجد شيء.. سأتحرك للأمام بالشريط قليلاً.. لكن... رباه!... ارحمني يا رب!!!!!».

ودوت الصرخة.. ثم سمعت شيئًا يرتطم بالأرض وبعدها انقطعت المكالمة.. حاولت الطلب من جديد وقلبي يثب بين ضلوعي، فلم أسمع إلا الفتاة تقول بطريقتها المهذبة الودود (هذا الهاتف قد يكون مغلقًا)..

هرعت إلى غرفة نومي فارتديت ثيابي، وسرعان ما كنت أنطلق بسيارتي- التي ملأتها بالبنزين - إلى الاسكندرية..

(حلمي) من أعز أصدقائي ولن أسامح نفسي لو حدث له شيء.. كنت غارقًا في الأفكار.. ماذا حدث؟.. هل هاجمه أحد؟..

وصلت إلى العجمي مرهقًا منهكًا..

اتجهت إلى العنوان الذي صرت أحفظه عن ظهر قلب..

لم يكن البواب هناك فصعدت الدرج مسرعًا.. أخيرًا وجدت الشقة.. كان الباب مواربًا بالفعل.. وبالطبع لم أبال بطرقه فدخلت.. كانت الرائحة منفرة بحق.. رائحة الدم المسفوح التي أعرفها من قفص النمور في حديقة الحيوان..

ثمة شيء تحرك.. ثمة شيء تحرك بسرعة خارجًا من مجال بصري.. ثم سمعت صوت الإنذار الغريب الذي سمعته على الهاتف.. بحثت بعيني فرأيت تلك الخلايا الكهروضوئية في كل مكان.. خلف المزهرية.. جوار الباب.. وراء لوحة على الجدار.. نظرت لأعلى فرأيت عدسة الكاميرا الصغيرة المتلصصة التي تذكرك بعدسات السوبر ماركت التي تنذرك لو زين لك الشيطان شيئًا..

على كل حال دلفت إلى الصالة، لتقابلني ألعن فوضى رأيتها في

حياتي.. كأن خراتيت كانت تتسابق هنا.. ورأيت مشهدًا عجيبًا.. على الأريكة كان (أحمد) راقدًا مفتوح العينين متسعهما صورة للرعب الميت في اصدق صورها.. جواره على الأريكة جهاز الهاتف يصدر تلك الضوضاء الغريبة التي جعلته يأتي من القاهرة في تلك الليلة..

ونظرت إلى المنضدة المقابلة فرأيت جهاز التلفزيون مغلقًا... طبعًا يغلق ذاتيًا عند انقطاع الإشارة لفترة.. نفس الشيء مع الفيديو.. لكن هناك علامات سوداء واضحة على شاشة التلفزيون.. علامات لا يمكن مشاهدة الصورة في وجودها ومعنى هذا انها وضعت بعد مكالمة (حلمي) الأخيرة..

أين (حلمي) نفسه.؟؟ هوذا على الأرض وجواره هاتفه المحمول الذي سقط فتشهم إلى ألف قطعة.. عيناه متسعتان والرعب على كل قسمة من وجهه ,.. نفس العلامات..

لا أعرف ما الذي قتلهما لكنه مريع بما يكفي..

دق جرس هاتفي فأجفلت.. جاء صوت (همت) المذعورة تسألني:

ـ «هيه.. د. (محفوظ).. هل نجحت في الاتصال به؟».

لم أكن أريد المزيد من الضغط العصبي، لذا قلت في كياسة:

ـ «أنا في الطريق.. سوف أبلغك بكل شيء.. سلام».

مهما كان الأمر فهذا الشريط يحمل السر.. السر الذي رآه (أحمد الشرشابي) ورآه (حلمي).. يجب أن أعرف.. مهما اتسع خيالي فلا أتصور أن يكون الأمر رهيبًا إلى هذا الحد.

نظفت الشاشة بمنديل ورقي، واتجهت إلى جهاز الريموت وأدرت شريط الفيديو للخلف ثم شغلته..

كانت هناك لقطة وحيدة من أعلى للصالة.. لا شيء يتحرك.. هذا مؤكد.. إضاءة خافتة رهيبة لكن لا شيء يتحرك..

لكـن إذ أدقـق أرى شـيئًا مـا.. الآن تتضـح الحقيقـة أكـثر فأكـثر..
ودقـات قلـبي تتسـارع..
رباه!... أنا لا أصدق هذا الذي أراه.. لا أصدقه!!

الرقص بين الأحجار

تنظـر إلى السـماء المكفهـرة الـتي اكتسـبت لـون الرخـام.. ترفـع يديهـا.. ترجـع رأسـها للخلـف.. تغمـض عينيهـا.. تمـشي في تـؤدة كأنهـا راقصـة باليـه.. بضـع خطوات..ثـم تبـدأ الرقـص.. رقصًـا لـم أره مـن قبـل ولا يمـت لعالمنـا بصلـة.. كأنهـا تصغـي للحـن خفـي آت مـن وراء الآبـاد والأبعـاد.. ترقـص.. تنتـشي.. تضحـك.. ثـم تتوقـف وتنظـر لي في ثبـات..

***

مـن جديـد أسـتعيد ذكريـاتي مـع جمعيـة البحـوث الروحانيـة البريطانيـة، ومـع د. (جيمـس ماتيسـون) بقامتـه القصـيرة وعصبيتـه وعينيـه النافذتـين.. كان هـذا عندمـا كنـت أدرس في إنجلـترا. لـم انضـم للجمعيـة قـط كمـا تعـرف لكـني عرفـت مجموعـة لا بـأس بهـا مـن الأصدقـاء الرائعـين حقًـا..

كان هنـاك (هـاري كليـف).. وكانـت هنـاك (إلسـتري)، وهـي شـابة بريطانيـة جـدًا تـدرس علـم النفـس، وقيـل إن لديهـا طاقـات نفسـية خارقـة.. وقـد اعتقـدتُ لفـترة إنـني أهيـم بهـا حبًـا ثـم قـدرت أن هـذا يعـود للشـفقة لا أكـثر.. معظـم المجموعـة كانـوا مـن أسـاتذة الجامعـة أو الدارسـين.. بعضهـم كان مقتنعًـا بمـا يفعـل، والبعـض الآخـر كان يجـرب بعقليـة متعادلـة..

حكيـت لـك قصـتي مـع الأختـين اللتـين كانتـا تحدثـان صـوت دقـات.. لكـني اليـوم أحـكي عـن زيـارتي لجنـوب البـلاد.. بالتحديـد في (ولتشـاير)

على بعد ١٨ كيلومترًا شمالي (سالزيوري)...

كنا هناك في السهل تحت السماء الرمادية.. منذ طفولتي تجعل هذه السماء الرمادية أمعائي تتقلص.. البرد.. صوت الريح.. ثم ذلك الشكل الحجري العجيب..

لم يكن المكان منعزلاً... في الواقع كان أقرب إلى السيرك بكل هؤلاء السياح.. وحيث تجد السياح تجد تلك الخيام وسيارات الفان و(الأكشاك) التي تبيع التذكارات والماء والمرطبات.. لهذا صدر عام ١٩٧٨ قانون يمنع العامة من الدخول إلى مركز الموقع الأثري، لأن هذا الأثر العظيم موشك على التحول إلى فتات.. يبدو أن هواية الكتابة على الآثار أو سرقة قطع منها ليست مصرية فحسب.. لكننا بالطبع كنا مستثنين من هذا المنع لأن بيننا علماء..

أنا قادم من بلاد الأهرام.. من بلاد أبي الهول.. أعتقد أن كل حجر يخفي تحته أثرًا عظيمًا عمره أربعة آلاف عام، لهذا لم أكن مستعدًا لأن أتحمس لهذه التشكيلة العجيبة من الصخور.. وقد بدا لي حماس هؤلاء القوم سخيفًا..

قال لي (ماتيسون) وهو يشير إلى الكاميرا المعلقة من عنقي:

ـ «هل حقًا لم تحرك الستونهنج Stonehenge شهيتك لالتقاط بعض الصور؟».

ـ «حاضر..».

وأخرجت الكاميرا التي ليس فيها فيلم ورحت ألتقط عشرات الصور لهذه الصخور.. كليك.. كليك.. كليك..

ثم أن (ماتيسون) نظر إلى (إلستري) وسألها:

ـ «أنت لم تأتي هنا قط.. أليس كذلك؟».

ـ «نعـم.. هـذه أول مـرة أرى فيهـا هـذه الأحجـار رأي العـين.. إن انتقـالي عسـير كمـا تعـرف».

هـذه الصخـور يمتـد عمرهـا إلى العـام ٢٠٠٠ قبـل الميـلاد.. مـن حولهـا تـرى ذلـك الخنـدق الدائـري الـذي يفصلهـا عـن بـاقي معالـم الـوادي.. أشـكال حجريـة غريبـة شـيدها الإنسـان في هـذه العصـور الغابـرة.. لأقربهـا لذهنـك تصـور أنهـا حـرف U اللاتيـني مقلوبًـا.. في البـدء كان الخنـدق وبـه ٥٦ حفـرة للدفـن.. اكتشـفها عالـم يدعـى (أوبـري)، لـذا أطلقـوا عليهـا اسـم (حفـر أوبـري).. ثـم ظهـرت تلـك الصخـور المتراصـة في دائـرة مزدوجـة.. ثـم ظهـرت تلـك الصخـور العرضيـة الـتي تربـط التكوينـات..

إن الـ Stonehenge لغـز آخـر مـن ألغـاز الكـون.. فصـل محبـب في أي كتـاب يحـكي عـن الأسرار الغامضـة.. الأهـرام.. أهـرام الأزتـك.. السـتونهنج.. كهـوف تسـيلي.. رجـل الثلـوج المخيـف.. الـخ..

عندمـا دنـا الظـلام قـال (ماتيسـون) للفتـاة أن تتقـدم إلى وسـط الدائـرة.. طلـب منهـا أن تركـز وان تتخيـل مـاذا كان يحـدث هنـا في عصـور غابـرة..

كانـت هـذه هـي التجربـة... لقـد كانـت (السـتري) تتمتـع بقـدرات نفسـية غامضـة، وكانـت تسـتطيع أن تعـرف أشـياء كثـيرة عـن الجسـم الـذي تلمسـه..

أغمضـت (السـتري) عينيهـا ولمسـت بأناملهـا أحـد الأحجـار.. ثـم همسـت:

ـ «أراهـم جميعًـا هنـا.. إنـه الليـل والقمـر يتوسـط السـماء.. أرى الرجـال يتقدمـون إلى هنـا.. أراهـم يقتـادون عـذراء جميلـة إلى الصخـرة العرضيـة.. إنهـا ترقـد فوقهـا... الكاهـن يحمـل سـكينًا.. يتعـالى الإنشـاد.. يهـوي عـلى عنقهـا.... الـدم يسـيل.. يلـوث الصخـر..».

كان أداؤها يتعالى وصدرها يعلو ويهبط شأن من هو موشك على حالة هستيرية..

ـ «بعد هذا جاءوا بالأطفال.. إنهم يكررون ما قاموا به.. لا.. ليس الأطفال.. لا!».

ودفنت وجهها بين يديها وراحت تبكي.. نظرت إلى البروفسور فوجدته يفكر في عمق، ثم أعلن ان علينا أن ننهي التجربة.. قال احد العلماء في حماس:

ـ «لقد نجحنا!... لقد عرفت (الستري) بحاستها لغز هذه الأحجار.. كانت الأضحيات تقدم هنا في العصور الغابرة.. كان الدرويديون يمارسون ديانتهم هنا».

والدرويديون هم سكان إنجلترا القدامى من قبائل (الكلت).. لم يتكلم (ماتيسون) بل بدا عليه نوع من الهم..

وفي لوبي الخان الذي نبيت فيه، قال لي:

ـ «تجربة فاشلة..».

ـ «ولم؟.. الفتاة حكت قصة غاية في الاكتمال..».

ـ «هذه هي المشكلة.. قصة متكاملة أكثر من اللازم.. لم تقل شيئًا إلا ما قاله عالم آثار من القرن السابع عشر اسمه (ستوكلي).. لقد درس هذه الصخور ثم قال إنها كانت مكان أهوال لا توصف كانت تحدث في منتصف الليل في عصر الدرويديين.. طبعًا هذا كلام فارغ لأن الدرويديين لم يظهروا في إنجلترا إلا قبل ميلاد المسيح بمائتي عام..».

ـ «وهذا يعني...».

ـ «يعني إنها لم تر شيئًا.. إن عقلها الباطن يعج بقصص من هذا النوع.. وهي قد رأت ما في عقلها الباطن لا أكثر..».

ثم أضاف وهو يصب لنفسه بعض الشراب:

ـ «ما زال هذا الستونهنج لغزًا.. لماذا شيدوه؟.. من فعل هذا؟.. بأية معجزة تمكنوا من رفع هذه الأحجار الضخمة؟.. نفس ما يقال عن الهرم الأكبر مع فارق الحجم طبعًا.. المشكلة أن من يدرسون هذا الأثر فريقان.. فريق من علماء الآثار الذين يجهلون كل شيء عن علم الفلك، وفريق من علماء الفلك الذين يجهلون كل شيء عن علم الآثار.. علماء الفلك - وعلى رأسهم (جيرالد هوكنج) - يؤمنون أن هذه الأحجار أجهزة رصد غاية في التعقيد.. وقد أطلقوا عليها اسم (الكمبيوتر الحجري).. هذا الكمبيوتر له وظائف دينية وسياسية مهمة لدى الأقدمين.. لكن هذه النظرية يدحضها علماء الآثار.. لو كان ستونهينج مرصدًا لكان من الواجب ألا تحيط به أية أشجار، بينما برهنت الحفريات على أن المنطقة كانت غابة كثيفة في الماضي البعيد..»

نمت في غرفتي نومًا عميقًا بلا أحلام، لكن الهاتف أيقظني عند منتصف الليل.. كان هذا (ماتيسون) يقول لي:

ـ «(الستري) ليست في غرفتها..».

- «كيف؟.. إن هذا مستحيل».

ـ «الأدهى أنه لا يوجد مكان تذهب إليه هنا.. قال لي موظف الاستقبال إنها غادرت الفندق في ثياب غريبة يقتادها شاب أشقر طويل الشعر.. هل تعرف فيم أفكر؟.. أفكر في الستونهنج..».

كانت هذه الكلمات كافية كي أرتدي ثيابي وألحق به في اللوبي..

وفي الليل البارد مشينا نلهث.. لقد بدأ المطر ينهمر لكنه ليس كثيفًا لحسن الحظ..

من بعيد نرى الستونهنج.. الوحوش الصخرية الغامضة التي

تجثم هناك منذ أربعين قرنًا.. تعرف كل شيء ولا تتكلم أبدًا.. لكن هناك شيئًا غير معتاد في المكان.. لا أعرف ما هو لكنه موجود..

فجأة تصلب (ماتيسون)..

كانت هناك تقف بين الأحجار العملاقة كأنها دمية بين الغيلان.. بالفعل كانت تلبس ثيابًا غريبة.. أقرب إلى جلباب أسود طويل.. وكانت ترقص.. ترقص بلا لحن نسمعه، لكنه رقص موقع جدًا حتى انك توشك على سماع اللحن الذي تسمعه هي..

قلت هامسًا:

ـ «لقد جنت.. التجربة قد زعزعت استقرارها النفسي. ثم كيف يمكنها أن...؟».

ـ «ش ش ش ش!».

فجأة عرفنا أننا لسنا وحدنا.. كان هؤلاء القوم يخرجون من الظلمات.. كلهم يلبس ذات الثياب العتيقة.. لم تكن هناك مشاعل لأن القمر كان مكتملاً وإن جعلت الأمطار الرؤية عسيرة فعلاً.. لكن اعتقد أنهم كانوا حوالي أربعين..

كانت ترقص.. بينما التفوا من حولها.. ثم أنها رقدت على صخرة جاعلة وجهها للسماء..

همست في رعب:

ـ «ماذا يحدث؟.. إنها تكرر ذات المشهد الذي رأته!».

لكن (ماتيسون) ضغط على ذراعي في قوة ليسكتني.. كدت أثب من مكاني لأمنع المشهد الذي أتوقع أنه سيحدث.. نائمة وعنقها مكشوف.. فماذا يعني هذا؟

إنهم يتكلمون لكني لا أفهم حرفًا.. يهمس (ماتيسون) وهو يرتجف:

ـ «إنهـا لغـة الكلـت القديمـة!.. يقولـون إنهـا كاهنتهـم العظمـى الـتي عـادت لهـم.. يقولـون إنهـم سـعداء بعودتهـا وإنهـم ينتظـرون الوقـت المناسـب لتقديـم الأضحيـة..!».

الأمطـار تنهمـر أكـثر.. وهـي تنهـض مـن جديـد لترقـص حـول السـتونهنج.. لـو رأى السـياح هـذا المشـهد لجنـوا طربًـا.. لكـن لا يـراه سـواي أنـا و(ماتيسـون)..

كانـت (ألسـتري) ترقـص.. ترقـص.. ترفـع يديهـا.. ترجـع رأسـها للخلـف.. تغمـض عينيهـا.. تمـشي في تـؤدة كأنهـا راقصـة باليـه.. بضـع خطوات..ثـم تعـاود الرقـص.... تنتـشي.. تضحـك..

إنهـا تشـير نحونـا حيـث توارينـا بـين الأطـلال.. تشـير لنـا لا شـك في هـذا..

قلت:

ـ «لقد رأونا!.. أعتقد أنني أعرف من هو القربان الأول لهم!».

ونهضت لأفر.. هنا سمعت (ماتيسون) يقول بصوت عال:

ـ «كان مـن الواجـب أن تـأتي هنـا ليـلاً.. تـأتي بكامـل ارادتـك.. هـذه هـي التقاليد..».

ـ «عم تتكلم؟».

ـ «لقـد كان (سـتوكلي) عـلى حـق، وكذلـك (هوكنـج)... الحقيقـة أن طقوسًـا مريعـة كانـت تحـدث هنـا، لكنهـا أعقـد ممـا تتصـور.. وهـي تمـت لعهـد يسـبق الدرويديـين بـآلاف السـنين.. لقـد عـادت هـذه الطقـوس للحيـاة عـلى أيدينـا.. ألـم تفهـم بعـد يـا أحمـق أي مـأزق وقعـت فيـه؟!!!».

وفي اللحظـة التاليـة كان يتشـبث بسـاقي وهـو يـصرخ مناديًـا هـؤلاء القـوم، ومـن بعيـد دوى صيـاح (السـتري):

ـ «عليكم به!».

ركلت وجهه في جنون.. فهو ضئيل الحجم يسهل أن تتخلص منه، ثم أطلقت ساقي للريح بينما هؤلاء القوم يزومون ويصخبون وهم يقطعون المسافة التي تفصلهم عني.. أركض تحت هذه النصب الحجرية المخيفة وقلبي يتواثب بين الضلوع..

أركض.. أركض.. وفي النهاية بلغت الخان وقلبي يوشك على أن يكف عن العمل نهائيًا..

استطعت أن اغلق باب حجرتي علي ثم أدت الطبيعة عملها وفقدت وعيي.. وفقدان الوعي صار نعاسًا حتى الصباح..

عندما فتحت باب حجرتي وجدت (ماتيسون) واقفًا إلى جوار (الستري) وهما غارقان في الضحك.. وقال في خبث:

ـ «لقد كان منظرك مسليًا أمس.. مجموعة ممثلين وجو موح.. هذا كان كفيلاً بجعلك تركض كالأرانب.. لقد كانت دعابة عملية قاسية لا أكثر..».

ـ «كنتما مقنعين أكثر من اللازم..».

ـ «لو لم نكن مقنعين لما كانت الدعابة بهذه البراعة..».

هنأتهما على هذه التمثيلية، ثم طلبت ان يمهلاني بعض الوقت حتى أغسل وجهي وأستعد للإفطار.. على أنني فور انصرافهما أعددت حقيبتي على عجل، وغادرت الخان من دون كلمة واحدة، ومن دون أن أعرج على قاعة الطعام..

كانا يمزحان.. انا مستعد لفهم هذا.. فقط لو فسر لي أحدكم شيئين: أولاً متى نبتت هذه الغابة الكثيفة من الأشجار التي رأيتها ليلة أمس حول الأحجار؟.. أقسم أنها لم تكن موجودة صباح أمس عندما كنا هناك، وهي التي منحتني ذلك الإحساس الغريب

بـأن هنـاك شـيئًا مختلفًـا..

الـشيء الثـاني هـو رقـص (السـتري) البـارع.. كيـف ترقـص (ألسـتري) وهـي مشـلولة لا تتنقـل إلا عـلى مقعـد متحـرك؟.

ساحر الماء

قريتي تعرف جيدًا الشيخ (عبد الرازق)..

منذ طفولتي كان الشيخ (عبد الرازق) موجودًا، ومن الواضح أنه سيظل هناك أبدًا حتى بعد ما نموت نحن.. هذا الطراز من المسنين لا يموتون بسهولة.. إنهم قد عقدوا مع الموت صداقة وحلفًا منذ عقود..

هناك كنت تراه.. جوار جدار الكتاب المتداعي، يجلس منهمكًا في خياطة شيء ما.. يضم حبات مسبحة ما.. جواره ذلك الكيس الخيشي الذي لا يعرف أحد أبدًا ما يحتويه، لكنك على الأقل ترى علبة المعسل الذي يلوكه طوال الوقت.. وجواره العصا المشقوقة الشهيرة التي تشبه حرف Y اللاتيني..

باختصار كان الشيخ (عبد الرازق) يحمل كل المواصفات التي يعتبرها الريفيون (بركة).. لم يكن أحد يعرف متى يظهر ولا متى يختفي.. فقط تراه جوارك يردد:

ـ «قيووووووم!».

بصوت ممطوط طويل غنائي.. ثم يروح يردد:

ـ «الله.. الله».

مالئًا بها فمه متلذذًا بحرف اللام المفخمة..

في المقابر كنت تراه.. في المآدب كنت تراه.. عندما تهرع القابلة لتغيث أم عباس التي جاءها المخاض كانت تراه على الباب..

حتى في هذه السن الصغيرة كنت أشعر بانه شخصية أدبية ساحرة.. هات (يحيى حقي) و(يوسف إدريس) و(مارك توين)

و(ماكسيم جوركي) وامش بهم في قريتنا.. سوف يتوقفون جميعًا أمام الشيخ (عبد الرازق) لأن عينهم الحساسة لن تتركه..

إلا ان أهمية الشيخ (عبد الرازق) كانت تتضح بشكل خاص عندما يرغب أحدهم في البحث عن شيء ضاع منه. عندها كانوا يجلبونه ويقفون في احترام بينما يتقدم هو نحو المنطقة التي عليه أن يفحصها.. يفرد قامته ويردد بعض الأدعية الغامضة ثم يرفع عصاه ممسكًا بفرعيها، تاركًا طرفها الآخر يتدلى قريبًا من الأرض.. يمشي بضع خطوات مترددة.. قدماه المشققتان تضربان الغبار ضربًا.. شفتاه ترتجفان كأنما التيار الكهربي يسري فيهما..

فجأة تهتز العصا..

فجأ يتوقف حيث هو ويراقب الاهتزاز ليتأكد إن كان أصيلاً أم لا.. يتدلى الطرف الحر نحو الأرض.. يتوقف ويقول في وقار:

ـ «هنا!».

ثم ينقض على الغبار يحفره بأظفاره التي توشك أن تكون مخالب.. وسرعان ما تتبدى لأعيننا لفافة ما.. أو الشيء الذي فقده صاحبه..

كان الفلاحون يهللون ويجزلون له العطاء، وسرعان ما يركض صبي إلى البقال (عزت) ليبتاع بعض علب المعسل وكيلوجرامين من السكر وبعض الشاي..

من حين لآخر كانت القرى المجاورة ترسل في استدعاء هذا (الخبير الفني) للبحث عن شيء ما.. وكان ينجح دومًا.. على إنه كان يقوم من حين لآخر بالبحث عن أماكن المياه إذا أراد أحدهم دق (طلمبة) في هذا المكان بالذات..

كانت عصاه لا تخطئ.. وكان مصدر فخر دائم وتهيب في قريتنا..

كان هـذا في المـاضي.. غـير إني لـم أعـد ابـن القريـة كمـا تعـرف.. تركتهـا وتعلمـت في العالـم الواسـع، لكـني لـم أزل أذكـر الرجـل وأندهـش بشـدة لقدراتـه تلـك..

في العالـم الغـربي رأيـت فيمـا بعـد ذات المشـهد كثـيرًا... الرجـل الذي يحمـل عصـا مشـقوقة كلسـان ثعبـان يفتـش بهـا عـن بـئر مـاء.. عرفـت أن هـذا نـوع مـن السـحر معـروف ومشـهور جـدًا عندهـم.. لكـني قـدرت عـلى كل حـال أن الصدفـة تلعـب دورًا لا بـأس بـه في هـذا كلـه..

في تلـك الأمسـية كنـت في دار د. (مصطفـى) أسـتاذ علـم النفـس.. هلـم!... أنـت تذكـره بالتأكيـد.. لقـد كانـت لي معـه قصـة أو قصتـان في هـذا البـاب بالـذات..

كنـا نتكلـم عـن القـدرات الخارقـة، فحكيـت لـه عـن هـذا العجـوز.. ظـل يصغـي لي في اهتمـام وعينـاه تتسـعان في كل ثانيـة.. فلمـا فرغـت سـألني:

ـ «هل هو ما زال حيًا؟».

ـ «على قدر علمي نعم..».

كان د. (مصطفـى) واسـع الثقافـة.. ولـه اهتمـام بالـغ بعلـم الأنثروبولوجـي، كمـا كان مهتمًـا بالحضـارات القديمـة باعتبارهـا تمثـل نوعًـا مـن العقـل الباطـن عندنـا.. إن دراسـاته عـن (فرويـد) و(يانـج) وميـلاد العصـاب جعلتـه مهتمًـا بهـذه الأمـور بشـدة..

نهض إلى مكتبته العامرة فانتقى كتابًا سميكًا تصفحه ثم قال:

ـ «أنـت تتحـدث عـن سـحر المـاء أو الـ dowsing.. في هـذه الطريقـة السـحرية يسـتعمل أحدهـم عصـا أو قضيبًـا للبحـث عـن المـاء تحـت الأرض أو المعـادن النفيسـة.. هنـا يسـتعمل ممـارس هـذا السـحر أسـاليب خفيـة للوصـول إلى أجسـام ماديـة.. هنـاك طريقـة أخـرى

هي استخدام الخرائط.. هؤلاء تضع أمامهم خارطة وهم يحركون البندول فوقها حتى يبدأ الاهتزاز.. تكون هذه علامة على وجود ما يبحثون عنه هناك..».

ابتسمت في سري وقد تخيلت الشيخ (عبد الرازق) يرفع بندولاً فوق خارطة.. سوف يعتبرك مجنونًا أو رقيعًا لو طلبت منه شيئًا كهذا..

أردف د. (مصطفى):

ـ «من يؤمنون بهذه الظاهرة يتحدثون عن القوى الكهرومغناطيسية التي تحدثها المياه تحت الأرض.. هذه القوى تتسرب لعضلاتهم فتجعل العصا تهبط.. هذا قد يفسر البحث عن الماء لكنه لا يفسر البحث عن الكنوز أو البحث على الخرائط.. أما من لا يؤمنون بهذه الظاهرة فيقولون إنها حركة عضلية.. أو فكر - حركية ideomotor action تتم بوساطة عقل الساحر.. أي إنه مقتنع بما يفعله ولا يتعمد خداعك، لكن عضلاته تفعل ذلك...».

قلت في شك:

ـ «لكن هذا لا يمنع من أنهم يجدون أشياء فعلاً».

ـ «ليس تمامًا.. عام ١٩٤٩ أجريت في أمريكا تجربة شاملة على عدد من هؤلاء السحرة.. حوالي ٢٧ منهم.. وقد فشلوا فشلاً ذريعًا في العثور على الماء في حقل.. بينما استطاع عالم جيولوجيا أن يجد الماء في ١٦ موضعًا في الحقل ذاته.. هذا يلخص مقولة: كذب المنجمون ولو صدقوا.. لكن هناك تجربة اخرى هي تجربة (شوينن) التي تمت في ألمانيا عام ١٩٨٧.. أجريت على ٥٠٠ ساحر ماء.. اسم التجربة (شوينن) ومعناها (الجرن) والسبب أنها تمت في جرن قرب ميونيخ.. وقد بينت أن هناك جانبًا من الصدق في القصة.. أنت تقدم لي الآن ساحر ماء مصريًا ومن قريتك..

(محفـوظ).. يجـب أن أرى هـذا الرجـل..».

قلت في غيظ:

ـ «أنـت لا تتوقـع مـني أن آخـذك لقريـتي في هـذا الوقـت بالـذات.. أنـا مشـغول.. ولسـت متأكـدًا مـن أن الرجـل حي..ثـم....».

ـ «الآن أنت تعرف ما أريده منك!.. لقد وفرت علي عناء السؤال!».

هكـذا وجـدت أنـني منطلـق بالسـيارة إلى قريـتي في ظـروف غريبـة جـوار عالـم أصلـع متحمـس..

عنـد العـصر وجدنـا الشـيخ (عبـد الـرازق) كمـا هـو جـوار جـدار الكتـاب المتداعـي الرطـب.. يمضـغ التبـغ ويـردد بصـوت ممطـوط طويـل غنـائي :

ـ «قيوووووووم!...الله.. الله».

مالئًا بها فمه متلذذًا بحرف اللام المفخمة..

لـم يكـن قـد تقـدم في السـن.. كيـف يتقـدم في السـن مـن يبـدو منـذ مراهقتـه كأنـه في التسـعين؟..

كان (مصطفـى) قـد أعـد الاختبـار مـن قبـل كمـا يـلي: نحـن نملـك قيراطـين قـرب السـاقية القديمـة.. تجـول هنـاك قليـلاً وعـد الخطـوات معتمـدًا عـلى ناطـور غرسـناه هنـاك.. ثـم نـزع سـاعته الذهبيـة وحفـر لهـا حفـرة، ثـم دفنهـا فيهـا بعـد مـا لفهـا في كيـس بلاسـتيكي..

صحـت محتجًـا أن هـذه مخاطـرة.. السـاعة ثمينـة بالفعـل.. لكـن (مصطفـى) قـال لي في ثقـة:

ـ «إمـا أن يجدهـا فتعـود لي.. وإمـا لا يجدهـا فتظـل حيـث هـي لأسـتخرجها أنـا.. لاحـظ أنـه لا أحـد يعـرف مكانهـا سـوانا».

عندمـا فتـح الشـيخ عينيـه الرماديتـين، وحينمـا بـدا أنـه يتذكـر أبي، دسسـت في يـده علبتـين مـن المعسـل وهـي اللغـة الوحيـدة الي يجيدها

وقلت له إننا بحاجة له.. هذا صديقي من القاهرة.. د. مصطفى..

سأله بصوت واهن:

ـ «دكتور؟.. هل معك علاجات للمفاصل؟».

قلت ضاحكًا:

ـ «ليس دكتورًا بالمعنى الذي فهمته.. فقط نحن في حاجة إليك لتساعدنا في العثور على ساعته الذهبية التي فقدها في أرضنا.. إنها باهظة الثمن فعلاً».

هكذا نهض معنا الشيخ حاملاً عصاه الثمينة.. وسألني عن اسم أبي ألف مرة.. فكنت أجيب وأؤكد له إنه مات.. سرعان ما ينسى هذا بعد ثلاث دقائق..

أخيرًا وقفنا في أرضنا.. قلت له إن هذا هو المكان وإن له الحلوان لو وجد الساعة..

راح يردد أدعيته الغامضة ثم رفع عصاه بتلك الطريقة التي رأيتها ألف مرة وراح يدور في الحقل منتظرًا الإشارة.. أو ربما منتظرًا أن يتولى عقله الباطن الموضوع..

مرت عشر دقائق وهو يروح ويجيء.. لم يقترب قط من موضع الساعة..

نظر لي (مصطفى) نظرة ذات معنى.. واضح انه سيفشل..

أخيرًا دار الشيخ حول جدار متداع في ركن الأرض.. بقايا غرفة كان خفير يقيم فيها يومًا ما، ووقف هناك.. لقد هبط طرف العصا في هذا الموضع.. كان هذا واضحًا..

صاح بصوته الواهن:

ـ «هنا يا ابن... قلت لي ما اسم أبيك؟».

لم أرد.. فقط مشيت إلى حيث كان يقف وحيث كانت العصا

تشـير، وقلـت في هـدوء:

ـ «لا أعتقد أن عصاك صدقت هذه المرة يا عم الشيخ..».

ـ «عصاي لا تكذب!».

قالها في لوعـة وحـرارة.. فجثـوت عـلى ركبـتي وأزحـت بعـض الغبـار.. طبعًـا ليـس هـذا هـو المـكان ولا يمـت لـه بصلـة.. فقـط أردت التأكـد مـن انـه لا يوجـد شيء ثمـين آخـر هنـا..

كان الرجـل مـصرًا في عنـاد عـلى أن هـذا هـو المـكان، بينمـا أصررت أنـا علىانـه لا يوجـد شيء.. دنـا مـني (مصطفـى) وقـال همسًـا:

ـ «الأمـر واضـح.. لقـد فشـل مثـل سـحرة (مـين)... لكـني أريـد أن نجربـه في شيء آخـر غـدًا..».

قلـت للشـيخ إننـا سـنرحل، لكنـه راح يؤكـد أنـه لـن ينـصرف قبـل أن يجـد الـشيء وينـال الحلـوان.. قلـت لمصطفـى همسًـا:

ـ «يبـدو أنـه لا جـدوى مـن اسـترداد السـاعة الآن.. هـي في أمـان عـلى كل حـال..».

وابتعدنا تاركين الرجل يواصل التنقيب في الأرض..

كانـت ليلـة هادئـة بـات فيهـا (مصطفـى) في دارنـا وأكل كثـيرًا جـدًا، ممـا يـدل عـلى أن العلـم لـم يأخـذ كل شيء منـه..

في الصبـاح الباكـر قـال لي إنـه راغـب في اسـترداد السـاعة.. واضـح انـه سـيرحل وقـد اكتفـى مـن البحـث العلمـي بـكل مـا أكلـه مـن بـط وفطـير مشلتت..

هكـذا ذهبنـا إلى الأرض.. وعددنـا الخطـوات إلى أن وجدنـا مـكان السـاعة.. اسـتخرجها مـن كيسـها ولبسـها، ثـم سـألني عـن موعـد تنـاول الإفطـار.. فهـو لا ينـوي العـودة إلى القاهـرة (عـلى لحـم بطنـه)..

قلت له:

ـ «مـا زلـت لا أفهـم سـبب فشـل الشـيخ (عبـد الـرازق)، ولا لمـاذا أشـارت عصـاه إلى ذلـك الجـدار القديـم».

قال ضاحكًا:

ـ «ربما وجدت كنزًا تحت الجدار..».

مشيت نحـو الجـدار المتداعي ووقفـت أرقبـه قليـلاً.. ثـم تصلبـت.. لقـد رأيـت القدمـين المشـققتين مـن ورائـه.. درت حولـه لأجـد الشـيخ (عبـد الـرازق) نائمًـا عـلى ظهـره.. لا لـم يكـن نائمًـا.. كانـت عينـاه تشـخصان إلى السـماء.. ولـم يكـن يتنفـس.

هاهـو ذا الكيـس الخيـشي إيـاه جـواره.. الكيـس الـذي كانـوا يقولـون إنـه مـليء بالكنـوز..

عندمـا لحـق بي (مصطفـى) شـهق في رعـب وتسـاءل هـل هـو..؟.. فقلـت لـه نعـم.

ثم أضفت وأنا أغمض عيني الرجل:

ـ «لـم تكـذب العصـا كثـيرًا.. عندمـا أشـار طرفهـا إلى هـذا الموضـع بالـذات كان يقـول إن هـذا هـو الموضـع الأخـير.. نهايـة رحلـة الشـيخ.. لقـد مـات وحـده في هـذه الحقـل وهـو يفتـش عـن سـاعتك..».

قال د. مصطفى في ضيق:

ـ «رحمـه الله.. لكـن العصـا لـم تتنبـأ بـشيء.. لقـد وافتـه المنيـة لأن أجلـه حـان..».

قلت وأنا أنهض:

ـ «هـل تنبـأت العصـا بموضـع موتـه، أم أن المـوت جـاءه في الموضـع الـذي أشـارت لـه العصـا.. ؟.. هـذا سـؤال سفسـطائي ملتـف حـول نفسـه ولـن نعـرف إجابتـه أبـدًا.. فقـط أعـرف أنـني لا أحـب سـحر المـاء هـذا.. وأتمـنى لـو لـم أصـغ إليـك... هـل اسـتردد سـاعتك؟.. إذن

تعـال نخـبر أهـل القريـة بوفـاة الشـيخ (عبـد الـرازق).. سـاحر المـاء الـذي فشـل في مهمتـه الأخـيرة».

غير المدعو

لا يا دكتور (مسعود).. صدقني لن أطيل عليك..

أعـرف أنـك مشـغول.. أعـرف أن وقتـك لا يسـمح.. انـت مـن هـؤلاء القـوم الذيـن يتلـذذون بـأن يشـعروا الآخريـن بأنهـم غـير مهمـين.. أذكـر مـا كتبـه د. (عـادل صـادق) أسـتاذ الطـب النفسـي الشـهير عـن أن النـاس يمارسـون لعبـة (أنـا بخـير - أنـت لسـت بخـير) طيلـة الوقـت.. ومـن ضمـن أسـاليب هـذه الطريقـة أن يتظاهـر المـرء بالانشـغال طيلـة الوقـت كأن الآخريـن تافهـون يملكـون كل الوقـت..

لكـني أرجـوك أن تصغـي لي بعـض الوقـت، فأنـا مذعـور وقلـق ومتشـكك..

متى بدأت القصة؟.. ربما منذ شهر أو شهرين..

أنـت تعـرف أنـني كنـت بحاجـة إلى تلـك الجراحة الـتي تأخـرت طويلاً... كنـت أؤجـل ذلـك اليـوم عـلى أمـل أن أجـد نفـسي شـفيت تلقائيًـا، ثـم صـار الأمـر لا يُطـاق.. هكـذا دخلـت المستشـفى الخـاص الـذي تملكـه وبـدأت أسـتعد لذلـك اليوم..

أنـت تعـرف أن فصيلـة دمـي غريبـة وغـير شـائعة، لـذا طلبـوا مـني أن أسـتعد بلـتر دم مـن ذات الفصيلـة، وقـد اسـتطعت تدبـيره عـلى كل حـال..

أحـضرت اللـتر الثمـين وتأكـدوا مـن أنـه خـال مـن داء الإيـدز والتهـاب الكبـد (سي)، وفي ليلـة الجراحـة جلسـت وزوجـتي مهمومـين ننتظـر.. أخبرتهـا بمـا تفعلـه غـدًا إن لـم أعـد للحيـاة بعـد الجراحـة، وهـو احتمـال وارد جـدًا..

في الصباح ذهبت لحجرة الجراحة حيث الكل يركض ذات اليمين واليسار، ولا أحد يعبأ بي.. فقط رائحة الكبريت هذه تضايقني.. كنت هناك تلبس ثياب الجراحة وقد وضعت ذلك المنظار الأنيق الذي يغنيك عن وضع العوينات، وبدوت وقتها كأحد سادة الجراحة في كتب الطب.. قلت لي بتلك الطريقة العجول:

ـ «مستعد؟... جميل.. جميل..».

وأشرت إلى مساعدك د. (عصمت) كي يعد كل شيء، ثم دخلت إلى غرفة الانتظار.. د. (عصمت) طبيب شاب ممتقع الوجه دومًا نحيل بطريقة غريبة، له رقعة شعر قبيحة المنظر في عنقه.. ومنذ عرفته لم أشعر براحة لمرآه.. هنا جاءت ممرضة مذعورة تقول:

ـ «الدم الذي أحضره ليس في الثلاجة!».

ـ «ماذا؟.. هل أخذه أحد؟».

ـ «هذا واضح!.. لقد سرق من الثلاجة ولا أحد يجد تفسيرًا..».

ساد صمت رهيب، ثم نظر لي د. (عصمت) وقال في شيء من الخجل:

ـ «معذرة.. لا نقدر على إجراء هذه الجراحة الكبرى من دون دم احتياطي.. على الأقل حاول تدبير نصف لتر لموعد مقبل».

ثم انصرف.. نظرت له وهو يبتعد وقلت للممرضة:

ـ «مهذب هو د. (عصمت)..».

نظرت حولها ثم قالت في شيء من الحرج والرعب:

ـ «لا أدري.. لا أستريح له.. إنه لا يحضر إلا الجراحات الليلية.. لونه غريب جدًا.. له رائحة كريهة..».

لم ألحظ شيئًا غريبًا، ولكن.. صبرًا.. من أين تأتي رائحة الكبريت هذه؟.. شعرت الممرضة أنها تكلمت أكثر من اللازم ففرت...

شعرت بأنها أرادت التخلص من ضغط عصبي بأي شكل ومع أي واحد..

هكذا بدا شكلي شديد البلاهة وأنا أغادر غرفة الجراحة إلى حيث تنتظر زوجتي القلقة.. قالت في لهفة:

ـ «ما شاء الله.. لم أعرف أنه بارع لهذا الحد!».

قلت في غيظ:

ـ «لو كان من أجرى لي الجراحة فريق مكون من (الزهراوي) و(هالستد) و (لستر) و(مجدي يعقوب)، لما انتهوا بهذه السرعة.. لقد سرق أحدهم الدم..».

هكذا غادرت المستشفى وخضت مغامرة أخرى للحصول على دم من أحد المتطوعين في العباسية.. كان فتى تبدو عليه علامات الإدمان كلها، ويتكلم بطريقة (اللنبي) في الأفلام.. غير أن (اللنبي) كان يبغي إضحاكك.. هذا الفتى كان جادًا.. اسمه (بي سالب) وقد أكد لي الجميع إنهم لا يعرفون له اسمًا آخر.. تمكنت من جعله يتبرع بنصف لتر، لكني أوصيت المختبر بالتأكد من ان دمه نظيف.. مع هؤلاء المدمنين يصير كل شيء ممكنًا..

من جديد تحدد يوم الجراحة.. ومن جديد استعددت، ومن جديد قابلت د. (عصمت) أمام غرفة الجراحة.. ضحك لي مشجعًا لكني لم احب نظرته قط..

فجأة شعرت بجو عام من الارتباك.. سمعتك تصرخ يا دكتور (مسعود):

ـ «أنتم تمزحون!!. لو كانت التسلية هدفكم فاعلموا أن وقتي لا يسمح بهذا!!».

وسمعت من يقول:

ـ «هنـاك أكيـاس كثـيرة سرقـت مـن الثلاجـة.. لا نعـرف كيـف ولا متى.. هـذه مسئولية المختبر.. عـلى كل حـال الـدم الـذي جلبـه هـذا المريـض سرق قبـل أن يفحـص...».

ومن جديد عاد د. (عصمت) يقول لي مواسيًا:

ـ «فعـلاً لا نعـرف سـبب هـذا الحـظ السـيئ.. عـلى كل حـال (كل تأخيرة ولها خـيرة)...».

لكـني كنـت عـلى وشـك الانفجـار مـن فـرط هـذا التلاعـب بوقـتي وأعصـابي ومـالي.. هكـذا تشـاجرت ولعنـت الجميـع، ثـم جمعـت حاجيـاتي وغـادرت المستشـفى مـع زوجـتي.. لا أعتقـد أنـك تلومـني يـا د. (مسـعود).. أنـت نفسـك كنـت في حالـة ثـورة غـير عاديـة..

على الباب اعتذر لي موظف الاستقبال وقال:

ـ «في المختـبر أصابهـم الذعـر.. الفنيـون والممرضـات يتحدثـن عـن رؤيـة وطـواط في المختـبر قبـل حـدوث كل حادثـة سرقـة مـن هـذا النـوع.. هـذا هـراء طبعًـا.. لقـد مسـحنا المستشـفى بعنايـة فلـم نجـد شـيئًا.. هـذه بنايـة اسـتثمارية حديثـة لا يمكـن أن تـرى فيهـا شـيئًا كهـذا..».

نسـيت كل شيء عـن هـذا الموضـوع وغـادرت المستشـفى إلى غـير رجعـة.. وصممـت عـلى أن أجـري الجراحـة في مـكان آخـر مـع طبيـب آخـر.. أنـا آسـف طبعًـا..

عـلى أنـني بالصدفـة قابلـت تلـك الممرضـة الـتي كلمتـني عـن د. عصمـت.. قابلتهـا بعـد أسـبوع في سـوبر ماركـت، ويبـدو أنهـا تذكرتني.. أنـا المريـض النحـس الـذي يـسرق دمـه في كل مـرة.. قالـت لي عندمـا سـألتها عنـك وعـن د. (عصمـت):

ـ «د. (عصمـت) مريـض جـدًا... لا أحـد يعـرف مـا أصابـه، لكنـه في

المستشفى منذ غادرتها أنت.. شاحب تمامًا.. ويعاني حالة فقر دم متقدمة..».

كانت تبدو مسرورة لهذا.. ولم ألمها بالتأكيد..

على أنني بدأت رحلة البحث عن دم من أجل الجراحة القادمة.. ذهبت لذلك المقهى في العباسية وسألت عن (بي سالب) فقال لي القهوجي:

ـ «إنه مريض يا بك.. يبدو أنه الإيدز والعياذ بالله!.. إنه في مستشفى الحميات الآن..!».

ارتجفت هلعًا.. هذا هو الدم الذي كنت سأتلقاه في الجراحة.. لحسن الحظ أنه سُرق ورب ضارة نافعة.. صحيح أن الفحوص كانت ستثبت ذلك قبل الجراحة على كل حال، لكن الفكرة ذاتها مروعة.. تذكرت هؤلاء البؤساء الذين كان ينقل لهم الدم قبل أن يعرف الطب مرض الإيدز، وفي الوقت ذاته كان المرض موجودًا.. هؤلاء كان نقل الدم لهم حكمًا بالإعدام..

هنا خطرت لي فكرة مرعبة.. هناك طبيب غريب الأطوار لا يعمل إلا ليلاً يدعى (عصمت).. هذا الطبيب شاحب جدًا.. طبيب تصدر عنه رائحة كريهة كرائحة الكبريت، وله رقعة شعر غريبة في عنقه.. هذا الطبيب تتكرر سرقات الدم من ثلاجة المستشفى فقط عندما يكون موجودًا.. وطواط في المختبر قبل سرقة الدم.. سرقت عينات الدم الخاصة بـ (بي سالب) هذا، وبعدها مرض د. (عصمت) مرضًا لا يعرف أحد كنهه.. لم يعرف أحد أن (بي سالب) مصاب بالإيدز إلا متأخرًا جدًا.. فما معنى هذا؟

ماذا لو شرب مصاص الدماء دماء رجل مصاب بالإيدز؟.. فرضية ثورية حقًا.. كان مصاصو الدماء سعداء الحظ قبل ظهور الإيدز أما اليوم فهم في مشكلة.. من المنطقي أن يمرض.. ويبدو أن

المرض لا يتصرف مثل الوباء العادي الذي يدمر الجسد ببطء على مدى عدة أعوام.. يبدو أن الاستجابة سريعة جدًا هذه المرة..

هل تتابعني يا دكتور (مسعود)؟.. أعرف أنني أهذي.. أعرف أنني أخرف.. لكني طلبت منك منذ البداية أن تتحملني..

لقد قرأت الكثير عن مصاصي الدماء بعد هذا.. عرفت أن أساطيرهم تبدأ منذ عصر الفراعنة مع (سخمت) المخيفة التي لها رأس لبوءة.. بعد هذا نجد مصاصي الدماء بقوة في الأدبيات البابلية والأشورية.. لاميا.. لاماستو.. ليليث العبرية.. الأخوات إمبوسي.. الهامة عند العرب.. كلهن الشيء ذاته...في كل الثقافات السامية سوف تجد ذلك النموذج.. إنها موجودة في الأساطير البابلية.. الأشورية.. العربية.. العبرية..

لفظة eripmaV ذات أصل سلافي.. إن أهم أساطير مص الدم موجودة عند السلافيين.. تذكر أن دراكيولا روماني.. هناك انقسام كنسي مهم حدث عام ٤٥٠١ عندما اعتنق الصرب والروس والبلغاريون العقيدة الأرثوذكسية، بينما اعتنق التشيك والبولنديون الكاثوليكية. كانت هناك مشكلة الجثث التي لا تتعفن في التربة.. هذه الجثث اعتبرها الكاثوليك جثث قديسين بينما لأسباب واضحة اعتبرها الأرثوذكس جثث مصاصي دماء.. لكن لفظة eripmaV دخلت انجلترا وفرنسا عندما اشتهرت قصتان مخيفتان عن (بلوجويوفيتز) و(أرنولد باول)... باحث فرنسي محترم هو (أوجستنين كالميه) كتب عن مصاصي الدماء عام ٦٤٧١ وأقر أنهم موجودون.. هكذا صارت كلمة (مصاص دماء) على كل لسان.. عام ٦١٨١ قدم (جون بوليدوري) قصة (مصاص الدماء) التي كرست فكرة مصاص الدماء الأرستقراطي في الأذهان. وقد استوحى الشخصية من الشاعر البريطاني لورد (بيرون).

الجانجريـل LERGNAG نـوع مـن مصـاصي الدمـاء يفضلـون الأماكـن المقفـرة، ولهـم قـدرة فائقـة عـلى تغيـير الشـكل إلى ذئـب أو وطـواط.. إنهـم يحبـون معـاشرة الحيوانـات الضاريـة لأن هـذا يناسـب طبيعتهـم أكـثر. مـع الوقـت ينمـو لهـم شيء حيـواني مثـل عـين القطـة أو الفـراء أو أذن الوطـواط.. هـل يذكـرك هـذا بـشيء؟

قالـوا في الغـرب أنـه يسـهل عليـك معرفـة مصـاص الدمـاء لأنـه يكـون الطفـل السـابع لأخـوة مـن نفـس الجنـس.. عندمـا يمـوت وتفتـح قـبره تجـد قدمـه موضوعـة في ركـن التابـوت..

في الهنـد يؤمنـون أن البطيـخ الـذي يـترك في البيـت حـتى يفسـد يبـدأ في الحركـة ويتحـول لكائـن يمتـص الـدم.. قـرأت عـن الأساسابونسـام في غانـا.. الداشـنافار في أرمنيـا الـذي يمتـص الدمـاء مـن أقدام المسـافرين ليـلاً.. في البانيـا (اللوجـات).. في اسـتراليا (يـارا مـا يهـا هـو).. في بلغاريـا (أوبـور).... في الصـين (شـيانج شـيه).. يخـرج مـن جثـة منتحـر ويبـدو بشريًـا لكنـك تعرفـه عندمـا لا يتمكـن مـن عبـور المـاء.. الفرايكـولاكاس في اليونـان الـذي يـأتي لـدارك ويناديـك بالاسـم طالبًـا الدخـول..

هل كل هذه أساطير؟..

لهـذا اتصلـت بـك يـا د. (مسـعود) طالبًـا هـذا اللقـاء.. مـن الغريـب أنـك لـم تطلـب مـني أن آتي لـك.. قلـت إنـك سـتأتي لي في داري مسـاء اليـوم.. هـذا شرف عظيـم ولا يتسـق مـع انشـغالك الدائـم.. طلبـت كذلـك أن أكـون وحـدي في الـدار لأن مـا سـنتكلم عنـه سـيقلق زوجـتي.. هكـذا رتبـت أن تذهـب زوجـتي والأولاد إلى بيـت حمـاتي...

من الغريب كذلك أنك وقفت على بابي وسألتني في اهتمام:

ـ «هل تدعوني إلى الدخول؟»

ـ «طبعًا.. طبعًا..».

ـ «متأكد؟».

سرني هـذا التهذيـب المبالـغ فيـه وسـمحت لـك.. الآن احـكي لـك هـذه القصـة وأقـول بـكل وضـوح: أنـا أشـك في مسـاعدك د. (عصمـت).. كل شيء في هـذا الفـتى يوحـي بأنـه سـارق الـدم.. ومـن المؤسـف أنـه لا يسرقـه ليبيعـه بـل لأغـراض أخـرى.. مـا رأيـك؟

نظر لي د. (مسعود) وابتسم في غموض وقال:

ـ «قد يكون (عصمت) مجرد ضحية بائسة!.. فكر في هذا مرتين!».

ـ «لا أفهم..».

ـ «أنـت قـرأت الكثـير عـن مصـاصي الدمـاء.. لكـن ألـم تقـرأ قـط عـن أنهـم لا يدخلـون دارك إلا إذا دعوتهـم؟.. فقـط أردت أن أقـول : لا توجـد قواعـد في موضـوع الخـوارق هـذه.. لا يجـب أن يحمـل (الجانجريـل) رقعـة فـراء أو عـين قـط!».

ثـم راح يضحـك.. يضحـك.. وصـدره يهـتز.. هنـا رحـت أتذكـر القصـة مـن جديـد.. لمـاذا أصر عـلى أن أدعـوه لـداري؟.. أمـر غريـب بالنسـبة لرجـل مهـم كهـذا مشـغول كهـذا..

في لحظـة كنـت عـلى البـاب.. وفي اللحظـة التاليـة كنـت في الشـارع برغـم أننـا نسـكن في الطابـق الرابـع.. ورحـت أجـري وأجـري.. ويبـدو أنـني سـأظل أجـري مـا تبقـى لي مـن عمـر.

حكايات لا يربطها شيء

-١-

(سلوى) و(عمرو)..

هـي في السـابعة عـشرة.. طالبـة جيولوجيـا.. سـمراء رقيقـة تحـب أغـاني (كاظـم السـاهر)، وتخـرج أحيانًـا في رحـلات كليتهـا.. تلبـس حـذاء رياضيًـا وسروالاً مـن نـوع (الجينـز) وتغطـي شـعرها.. هـو في العشريـن مـن عمـره.. تخـرج في كليـة الألسـن.. لـه مظهـر ريـاضي برغـم انـه يؤكـد أنـه لـم يلعـب أيـة لعبـة في حياتـه..

هـو يحبهـا كثيـرًا.. هكـذا قـال لأصدقائـه.. هكـذا قـال لي.. والسـبب في هـذا الاعـتراف أنـه يمـت لي بصلـة قرابـة..

قلت له في حكمة كئيبة:

ـ «الحـب ينتهـي دومًـا بالفـراق أو الـزواج.. ثـق أن هـذه اللحظـات لـن تـدوم لـذا حـاول أن تنعـم بهـا..».

قال لي في تفاؤل:

ـ «لا تؤاخـذني يـا د. (محفـوظ).. أنتـم مـن جيـل فشـل في الحصـول عـلى مـا تمنـاه.. ظللتـم تراقبـون الكـون في اشـتهاء وشـغف وخـوف حـتى رحـل عنكـم.. أمـا نحـن فنعـرف أن الحيـاة قصـيرة..».

تمنيـت أن يكـون عـلى حـق، لكـن الحقيقـة المفزعـة الـتي لـم أخـبره بهـا هـو أننـا جميعًـا قلنـا ذات الكلمـات لمـن سـبقونا..

حبيبـتي السـمراء الرقيقـة كانـت تحـب (عبـد الحليـم حافـظ)، وكانـت تلبـس مثلمـا تلبـس (فاتـن حمامـة) في افـلام الخمسـينات.. تلـك التنـورة الـتي تشـعرك بأنـك تـرى مظلـة لا فتـاة.. حبيبـتي كانـت تقـرأ

أشعار شاعر شاب موهوب اسمه (صلاح جاهين) وكانت تحب (عبد الناصر)..

حبيبتي تزن الآن قنطارًا، ولديها خمسة أولاد.. وجهها تعس مليء بالإحباط والقرف.. فلا شيء يبعث البسمة في وجهها إلا انخفاض سعر الطماطم ولا شيء يجعلها تبكي إلا البصل.. زوجها مدير عام في الرقابة الإدارية.. زوجتي أنا لا تختلف كثيرًا..

هذه هي الحياة.. ما إن نتذوقها حتى نجدها قد ذابت في فمنا..

(سلوى) و(عمرو) متفائلان.. أما انا فحكيم بعيد النظر...

ثم بدأ (عمرو) يتبدل.. صار صموتًا أقرب إلى الاكتئاب.. وذبل كثيرًا..

أهله فكروا في أشياء كثيرة تبدأ بالمرض وتنتهي بالإدمان.. لكنهم لم يستطيعوا أن يبرهنوا عن شيء من هذا...

قالوا إنه الفشل في الحب، لكنهم وجدوا أن (سلوى) قلقة وملهوفة مثلهم.. لقد تغير (عمرو) كثيرًا جدًا فلماذا تغير؟

إلى أن جاء اليوم الذي تأخر فيه كثيرًا جدًا في غرفته.. لم يصح من النوم حتى الواحدة ظهرًا.. قرر أهله أن يقتحموا الباب المغلق..

هناك خلف الباب وجدوه.. كأنه كان يحاول فتح الباب عندما سقط أرضًا.. عنقه ملتو بطريقة غير مألوفة وقد تصلبت قسمات وجهه.. يبدو أن موته لم يكن سهلاً أو هينًا.. الطبيب لم يستطع فهم سبب الوفاة.. فقط لاحظ نزفًا بسيطًا من إبهام قدمه اليمنى وبدا له كأن أحدهم حاول انتزاع الظفر من مكانه...

(عمرو) محظوظ.. على الأقل لم يعش ليرى اللحظة التي تنتهي فيها قصص الحب العظيمة..

-٢-

نظر د. (هوفمايشتر) إلى الشاب الراقد على السرير وتنهد.. لو كان يتقاضى ماركًا عن كل مرة يرى فيها مخبولاً لصار اليوم مليونيرًا..

كان الشاب نحيلاً له وجه طويل مع سالفين ضخمين منفوشين، حتى يذكرك بوجوه المذءوبين في أفلام الرعب. وكانت له عينان زرقاوان مخيفتان.. وكلما أخذ شهيقًا عميقًا ابيضت عيناه أكثر..

سأله د. (هوفمايشتر):

ـ «مصر على هذا الموضوع؟».

قال الفتى:

ـ «نعم.. أنا أتلاشى يا دكتور.. لم يعد لدي وجود مادي.. أنا أتحول إلى طيف.. لم يعد لي ثقل مادي ولا ظل..».

كان الطبيب يعرف هذا العرض وقد سمع هذه الشكوى مرارًا.. لكن العلاج موضوع آخر..

ـ «ومصر على ان هذا حدث لك منذ زيارتك لمصر ؟».

ـ «نعم.. نعم.. كنت هناك مع صديقين لي في نوع من سياحة الفقراء.. لم يكن معنا مال كاف، ولكننا تمكننا من رؤية الكثير هناك.. ثم تعرفت هذا الشاب المصري المهذب الذي يجيد الألمانية.. وقد قبل أن يكون دليلنا..».

ـ «ثم مات..».

ـ «نعم.. نعم.. عرفنا أنه مات بلا تفسير.. أصابنا هذا باكتئاب شديد.. لم يكن هناك الكثير مما يمكن عمله.. عدنا إلى الوطن، وعدنا نمارس حياتنا العادية.. ثم بدأت ألاحظ هذا التغير في شخصيتي».

ضغط الطبيب على زر جهاز التسجيل ليغلقه، ثم قال في صبر:

ـ «المشكلة في المرض النفسي أن كل واحد يفترض ان حالته فريدة من نوعها.. أنا سمعت شكواك ألف مرة من قبل، ورأيي الخاص أنها حالة عارضة تلت رؤيتك لشاب مليء بالحيوية يموت.. سوف أحاول علاجك ويعلم الله أن هذا لن يكون سهلاً، لكنه ممكن.. المهم أن توقن أنه ممكن..».

نهض الفتى في تثاقل.. وقف أمام المرآة الكبيرة التي يضعها الطبيب في مكتبه.. كان ظهره لها فلم ير انعكاس وجه الطبيب ولا عينيه المتسعتين..

كان الطبيب يقول لنفسه:

ـ «يقول إنه فقد وجوده المادي.. الآن أنا أرى في المرآة وجهي بوضوح تام.. لكني لا ارى انعكاسه برغم انه يقف في مجالها بالضبط..!.. يبدو أن هناك مجنونًا واحدًا في هذه القصة.. هو أنا!».

-٣-

ترقص (أكيجي) كما لم ترقص من قبل.. عندما تحتسي الساكي تتحرر من كل القيود.. وقد كان (جوشيما) يراقبها كالمذهول وهي تتلوى في الضوء الأحمر القادم من لا مكان.. الأرض تهتز بالنغمات فتسري في جسدها ليهتز بدوره..

قالت له وهي تلصق رأسها بجبينه:

ـ «أنا أحبك..».

لشد ما تغيرت بعد تلك السياحة التي قامت بها إلى ألمانيا.. كان يتوقع أن يفقدها للأبد، لكنها عادت أشد حرارة.. خفيفة كانه لا

وزن لهـا..

ثـم ذلـك الوشـم الـذي تضعـه عـلى كتفهـا.. عندمـا دقـق النظـر فيـه شـعر بأنـه وُضـع هنـاك بالـذات ليـداري شـيئًا آخـر.. شـيئًا أقـرب إلى حـرق كهـربي.. سـألها عنـه لكنـه وضعـت إصبعهـا عـلى شـفتيه بحركـة ذات دلال معناهـا أن يخـرس..

عندما ترقص (أكيجي) يتلون ليل (طوكيو) بلون الخمر..

عيناهـا تلمعـان في الظـلام.. عندمـا سـألها عـن ذلـك قالـت لـه إنهـا تلـك العدسـات الملتصقـة الفوسـفورية.. عدسـات فوسـفورية؟.. إن الموضـة لـن تنتهـي ابـدًا..

(أكيجـي) ترقـص وتـأكل في نهـم.. (أكيجـي) تنـام طيلـة النهـار وتصحو ليـلاً.. (أكيجـي) تهيـم بـك حبًـا.. (أكيجـي) تريـد أن تختـلي بـك هـذه الليلـة فهـل ترفـض؟

(أكيجـي) تغـيرت كثـيرًا، لكـن ابـاك كان يقـول: مـن يضيـع وقتـه في الأسـئلة عندمـا تتفتـح أزهـار الفـرص هـو شـخص أحمـق..

وأنت لست أحمق.. ولن تكون...

-٤-

يقول (فيودوروف) لرفاقه :

ـ «في طوكيو يستحيل أن يجد المرء نفسه وحيدًا..».

في (كييـف) عندمـا تنهمـر الثلـوج وعندمـا يتجمـد بخـار المـاء عـلى ياقـة معطـف الفـراء، تشـعر بأنـك وحيـد حقًـا.. لكـن في طوكيـو يسـتحيل أن تكون وحيـدًا..

تسأله (ناتاليا) في مرح:

ـ «هل تشعر بندم لأنك عدت؟».

ينظر لها باسمًا ويقول:

ـ «مستحيل.. في النهاية هناك (ناتاليا كوبرين) واحدة..».

عندما وضع يده على كتفها بدت لها خفيفة جدًا كأنه لا وزن لها.. لشد ما هزل.. تعرف أن الطعام الياباني مثير للاشمئزاز لكن ليس إلى هذا الحد..

تسأله:

ـ «ألم تهتز لوفاة ذلك الفتى الذي كان صديقك؟».

يهز رأسه كأنما يطرد الذكرى عنه:

ـ «بلى.. فلتأخذني مصيبة إن كنت أكذب... شاب مفعم بالحيوية يجدونه ميتًا خلف باب غرفته بلا أدنى سبب.. فقط هناك دم غزير ينزف من إصبع قدمه الكبير..».

قال (ألكسييف):

ـ «هذا شيء شيطاني.. في تراث الكنيسة أن الشيطان يغادر الجسد من هذا الموضع.. طبعًا بعد ما يتلو القس صلاة طرد الأرواح الشريرة..».

قال (فيودوروف) في خبث:

ـ «الفتى ياباني يا عزيزي.. هناك يعبدون بوذا وأشياء من هذا القبيل.. أعتقد أنه لم يرَ قسًا ولا كنيسة في حياته».

ـ «قلت لي ما اسمه؟».

ـ «(جوشيما).. ولا تسألني عن الاسم الكامل لأنني لا أملك ذاكرة من حديد».

-٥-

يتمتع د. (مازورسكي) بحاجبين كثين يعطيانه منظرًا قوطيًا عتيقًا يتناقض مع كونه من ألمع علماء (ناسا)..

إنه جالس في قاعة المحاضرات وخلفه شاشة عملاقة عليها صورة لكوكب الأرض كما تظهره الأقمار الصناعية.. الكوكب المشاغب النزق الذي يبدو مسالمًا وديعًا عندما تراه من بعيد.. هناك عدد من علماء (ناسا) لا يقل عن عشرين يتابعون محاضرته باهتمام بالغ..

يسأله أحد العلماء:

ـ «تونجوسكا من جديد؟».

يقول:

ـ «لم أزعم هذا.. لا أزعم أن حادثة نيزك تونجوسكا تكررت.. عندنا سقط النيزك العملاق من الفضاء ليلمس الأرض في سيبيريا ثم لم يعد له وجود ولم يجد أحد أثرًا له.. لا. القصة هنا تختلف نوعًا.. هذا نيزك صغير رصدناه يقترب من ساحل البحر المتوسط منذ شهر..».

وأشار إلى جنوب أوروبا وقال:

ـ «ربما هنا..».

وأشار إلى شمال أفريقيا وأردف:

ـ «أو هنا..».

قال أحد العلماء:

ـ «لقد صار بوسعنا أن نرصد النيازك بدقة بالغة.. فلا تقل لي إن احداثياتكم تقريبية..».

قال (مازورسكي):

ـ «للأسف هذا صحيح.. هناك شهود يزعمون سقوطه هنا..».

وأشار إلى بقعة في مصر على ساحل البحر الأحمر وقال:

ـ «لقد ذهبوا إلى هناك في الظلام بحثًا عنه.. يزعمون أنهم وجدوه مفرغًا.. كأن شيئًا كان بداخله ثم غادره.. وعندما اشرقت شمس الصباح عادوا لنفس الموضع فلم يجدوا أي شيء.. طبعًا نحن لا نصدق هذا الهراء، فقد اعتدنا هذيان الشهود والقصص المتناقضة.. ولهذا لا اقبل قصة البحر الأحمر بشكل مطلق..».

ثم أشار إلى دائرة كبيرة تحيط بشرق البحر المتوسط وقال:

ـ «يجب أن نراجع الإحداثيات ونعرف أين ذهب حقًا.. هذا هو عملكم وسبب طلبي اجتماعكم هنا».

سأله أحدهم:

ـ «وماذا لو كان كلام الشهود صحيحًا؟.. ماذا لو كان النيزك يحوي شيئًا غادره وفر؟».

نظر له (مازورسكي) في غموض ثم قال:

ـ «عندها تكون أفظع مشكلة نقابلها هنا في ناسا».

-٦-

تقول لي (سلوى) وهي تمتص ما بقى في كوبها من عصير ليمون:

ـ «هذا هو سبب بقائي ساهرة ليلتها.. كنا في ذلك الفندق في (القصير) كما رتبت لنا الكلية.. أنت تعرف أننا نخرج في رحلات كثيرة إلى البحر الأحمر.. نامت الفتيات جميعًا ووقفت في الشرفة وحدي أنظر لليل.. فجأة رأيت ذلك الشيء يهوي من السماء.. لا أدري أية شجاعة جعلتني أبقى متصلبة كما أنا بينما تلك الأشياء

الغريبـة تحـدث..».

نظرت لها في ثبات وبعصبية سألتها:

ـ «أية أشياء؟».

امتصت الليمون وزاغت عيناها وبعد تفكير طويل قالت:

ـ «لا أدري!».

ـ «أنت مفيدة حقًا..».

ـ «صدقـني لا أعـرف مـا رأيـت.. فقـط كان غريبًـا جـدًا.. وعندمـا أفقـت بعـد قليـل كنـت في فـراشي أنظـر إلى السـقف.. أشـعر بأنـني خفيفـة جـدًا.. كأنـني تحـررت مـن أي ارتبـاط مـادي لي..».

ثم أشارت إلى كتفها وقالت:

ـ «هنـاك حـرق غريـب الشـكل هنـا.. لا أعـرف مصـدره.. فقـط أخـبرت (عمـرو) – رحمـه الله – بهـذا وكان رأيـه كرأيـك: أنـا مجـرد حمقـاء هسـتيرية.. لا أعـرف لمـاذا قـال هـذا..».

ـ «ربما لأنك مجرد حمقاء هستيرية».

مـدت يدهـا تحـت المنضـدة وراحـت تعبـث هنـا وهنـاك وفي النهايـة فوجئـت بقدمهـا العاريـة تـضرب سـاقي.. لقـد نزعـت حذاءهـا الريـاضي لتريـني شـيئًا مـا..

قالت وهي تضحك:

ـ «لا أعـرف إن كان لهـذا أهميـة مـا أم هـو ضرب آخـر مـن ضروب حماقـتي.. إن أصبـع قدمـي الكبـير صـار متورمًـا داميًـا.. كأن بـه كائنًـا حبيسًـا يحـاول التحـرر.. أحيانًـا أشـعر بـأن الظفـر يحـاول أن ينفتـح كبوابـة مغلقـة ليخـرج منهـا شيء مـا.. مـا رأيـك؟».

نظـرت لقدمهـا الكبـيرة وقلـت لنفـسي إنهـا سـمراء رقيقـة، لكـن قدمهـا لـم تظفـر بـشيء مـن هـذا الجمـال.. إصبـع بـه شيء يحـاول التحـرر؟..

إن السـخف البـشري لـن يتوقـف عنـد حـد...

مسمـرة!

قابلـت في حيـاتي - كمـا تعرفـون - عـددًا لا بـأس بـه مـن غريـبي الأطـوار.. جـزء مـن هـذا يعـود لأنـي فضـولي جـدًا مولـع بمعرفـة كل شيء أجهلـه، أو بعبـارة أخـرى مولـع بـأن أضـع إصبـع قدمـي في أي مـاء لأعـرف إن كان سـاخنًا أم بـاردًا... الجـزء الثـاني يعـود لأنـني أنـا نفـسي غريـب الأطـوار.. الطيـور عـلى أشـكالها تقـع في كل مـكان وزمـان..

(ممـدوح الفـار) كان غريـب الأطـوار بالتأكيـد.. لا أعـني أنـه كان يمـشي عاريًـا بكسرولـة عـلى رأسـه (وليتـه فعـل) لكنـه كان معجبًـا بأمـور غريبـة.. علـم قـراءة الأبـراج.. الجـان.. تحضـير الأرواح.. الويجـا..

أمـا عـن ملامحـه فـلا تهمـك في شيء.. لنقـل إنـه مـن طـراز (أصلـع - نحيـل - فـارع الطـول - مذعـور عـلى الـدوام - يصـدق كل شيء).. وهـو مـتزوج لكنـه منفصـل عـن زوجتـه.. يحـب أن يصـف هـذا بـ (الطـلاق النفـسي).. كان أسـتاذًا للفلسـفة في الكليـة الـتي أعمـل بهـا ولـن اعطـي تفاصيـل أكـثر حـتى لا تخمـن مـن هـو..

كلمـا تذكـرت هـذه القصـة تذكـرت تلـك الآلام في ظهـري والـتي لـم يسـتطع الأطبـاء أن يجـدوا لهـا حـلاً.. سـبب تذكـري لهـا سـتعرفه حـالاً...

كانـت هنـاك دومًـا جلسـة تحضـير أرواح يحضرهـا يـوم الخميـس.. وقـد طلـب مـني أكـثر مـن مـرة أن أنضـم لـه هنـاك فكنـت أعتـذر.. بصراحـة كانـت تجربـتي مـع تحضـير الأرواح محبطـة، وفي كل مـرة كنـت أجدهـا مجـرد أكذوبـة معقـدة.. لـم يعـد بوسـعي أن اضيـع وقـتي أكـثر مـن هـذا..

على أنه ألح علي في هذه المرة بالذات.. والسبب؟

ـ «سنحضر روحًا فريدة من نوعها تستحق أن تشهد زيارتها.. تذكر أن صديقنا المشترك (عزمي) سيكون هناك».

قلت في برود:

ـ «لا تقل إنك ستحضر روح (هتلر) أو (نيرون)..».

ـ «لا هذا ولا ذاك.. لكني لن أعطيك أي تلميح ما لم تأت..».

ـ «إذن لن أعرف أبدًا.. هل تعرف السبب؟».

ـ «لا..».

ـ «لأنني لن آتي مهما حاولت..».

كنت باترًا قاطعًا مما جعله يتعامل بنوع من الفتور المغتاظ معي..

مر يوم الخميس إياه، ولم ألقه إلا بعد ثلاثة أيام فسألته عن الجلسة فقال إنها كانت ناجحة.. لا مشكلة هنا لأن الجلسات لا تفشل أبدًا في رأيه..

مرت الأيام واتصل بي يطلبني لتجربة معينة، فذهبت له في داره.. لأن ما يقدمه كلام فارغ غالبًا لكنه مسل دائمًا... الدار خالية تعمها الفوضى كما هي العادة لكن لديه مكتبة تثير حسد مكتبة الكونجرس ذاتها.. حياة عزاب كئيبة فعلاً من الطراز الذي تجد فيه الملاحة في الحمام والمنشفة فوق التلفزيون.. مضرب التنس القديم يستعمل كمصفاة للمكرونة كما يفعلون جميعًا..

قال لي وهو يجلس أمامي:

ـ «ما زالت تلك الآلام في ظهرك طبعًا؟».

ـ «أوشك أن أعتبرها ضرورة للحياة..».

جلب مقعدًا وجلس أمامي حتى تلامست الركبتان، ثم مد يده والتقط اصبعين من كفي.. مشهد عاطفي مؤثر حتى توقعت أن أسمع موسيقا (دعاء الكروان).. لذا أجفلت وجذبت كفي لكنه قال بلهجة هادئة:

ـ «ثق بي.. وانظر في عيني».

رحت أنظر في عينيه المذعورتين المتسعتين.. بينما راح يمرر أنامله في رفق من ذراعي إلى كتفي مرارًا وتكرارًا.. وضع يده تحت حافة ضلوعي وساد صمت طويل..

قلت له في تململ مرتاب:

ـ «ماذا بك؟».

قال آمرًا:

ـ «ش ش ش ش!.. اخرس من فضلك».

فخرست..

في النهاية قال لي:

ـ «هل تشعر بها؟».

ـ «ما هي؟».

ـ «تلك التشنجات الخفيفة.. في ظهرك».

الحق أني بدأت فعلاً أشعر بشيء كهذا.. لكن ما معناه؟

قال في هدوء:

ـ «لقد زال ألم ظهرك!».

رحت أتحسس ظهري.. هذا صحيح.. لا أشعر ألمًا.. لكن ما أقوى الإيحاء!.. إن المعالجين الروحيين يفعلون هذا وأكثر.

قال لي:

ـ «الأمـر ليـس سـحرًا.. فقـط أنـا أحـاول ان أعطيـك بعضًـا مـن مغناطيسـيتي الحيويـة الذاتيـة.. الصحـة هـي تدفـق حـر للحيـاة عـبر القنـوات في أجسـادنا، وعندمـا تنسـد هـذه القنـوات يحـدث المـرض... هنـا نحتـاج إلى الدنـو مـن جسـم حيـواني مغناطيـسي..».

بـدا لي هـذا الـكلام مألوفًـا.. هنـاك كلام شـبيه بهـذا يقـال عـن الإبـر الصينيـة.. لكـن الإبـر الصينيـة علـم تمـت دراسـته جيـدًا أمـا هـذا الـكلام فأقـرب إلى الفلسـفة..

قلت له :

ـ «من علمك هذا الكلام ؟».

ـ «لا أدري.. لكنه مهم إلى درجة لا توصف».

فارقتـه وأنـا أعـرف مـا سـيحدث حتمًـا.. سـوف تعـود الآلام كمـا كانـت.. وهـو مـا يحـدث لـكل مـن يتعامـل مـع المعالجـين الروحيـين سـواء كانـوا الخبـير الفليبيـني (ماكمـارا) أو الشـيخ (عطـوة) في قريتـك.. في البدايـة يغمـرك الذهـول والانبهـار وتعتقـد أنـك شـفيت.. بعـد أسـبوع تـدرك انـك خدعـت..

عـدت أمـارس حيـاتي إلى أن اتصلـت بي زوجتـه بعـد أسـبوعين.. كان لديهـا رقـم هاتفـي طبعًـا.. سـألتني عنـه وعـن حالتـه العقليـة، فقلـت إنـه ليـس أكـثر خبـالاً مـن المعتـاد..

قالت لي بصوت خائف:

ـ «إنـه يـأكل كميـات هائلـة مـن الطعـام وقـد ازداد بدانـة.. وقـد أنـزل خصلـة شـعر عـلى جبينـه كأنهـا (قُصـة)..».

كنـت أعـرف أنهمـا منفصـلان تقريبًـا، فلمـاذا لا تتركـه في حالـه؟.. إن هـي إلا حالـة مراهقـة متأخـرة.. ثـم أنـه نحيـل جـدًا وسـوف تفيـده بعـض البدانـة..

قالت لي في توتر:

ـ «زارني الأسبوع الماضي وهو يحمل بعض البقالة متلطفًا، وأصر على أن آكل وجبة كبيرة من رقائق القمح باللبن.. أنا لا أحبها.. وهو لم يأكل معي.. فقط شعرت بنعاس عميق.. عندما صحوت من نومي فجأة.. هل تعرف ما كان يفعله؟.. كان يثبت على جسدي عددًا من قطع المغناطيس الصغيرة.. قطع في حجم الظفر.. وقد أصابني الهلع من هذا الجنون فصرخت فيه وطردته.».

ـ «كان عليك الانتظار حتى يفسر الأمر..».

ـ «لم يفسر.. لكني أشك في رقائق القمح هذه..».

قلت لها في شيء من الخبث:

ـ «لأن رقائق القمح من المصادر الثرية جدًا لبرادة الحديد.. إنها سامة فعلاً لكن الآباء المخابيل يصرون على شرائها لأطفالهم، ومعنى هذا أن زوجك أطعمك في تلك الليلة كمية وافرة من برادة الحديد، ثم راح يثبت مغناطيس على جسدك!».

ـ «ولماذا يفعل هذا؟..».

ـ «وكيف لي أن أعرف؟.. إن للناس هوايات غريبة.. ربما كان تثبيت المغناطيس على جسد امرأة ابتلعت حديدًا أمر مسل..».

ثمة شيء مألوف في هذا كله..

في مكان ما في زمن ما قرأت عن تجربة مماثلة لهذه.. لكن أين ومتى؟

وعندنا انفردت بنفسي في مكتبي، رحت أقلب الموسوعات.. ثم بحثت عن عنوان (المغناطيسية الحيوانية).. هذا هو..

على الفور يطفو على السطح اسم (مسمر).. الألماني (فرانتس مسمر) الذي ولد عام ١٧٣٤، والذي اعتبره البعض عبقريًا واعتبره

البعـض نصابًا.. لكـن لفظـة (مسـمرة Mesmerism) دخلـت كل اللغات الغربيـة بمعـنى (الغائـب عـن الوعـي شـبه المنـوم مغناطيسـيًا).. ولا غرابـة في هـذا لأن أبحاثـه هـي الـتي قـادت إلى التنويـم المغناطيـسي كعلـم بعـد ذلـك..

كان (مسـمر) يجـرب نقـل طاقتـه المغناطيسـية للنـاس.. وبعـد محاولاتـه عـلى أفـراد قـام بعمـل جهـاز عمـلاق يذكـرك بأجهـزة الحاسـب الآلي العملاقـة Mainframe يمكـن لعـدد كبـير مـن النـاس أن يجلسـوا حولـه، وأن يلمسـوه بأيديهـم لتصلهـم طاقـة (مسـمر)..

جـرب (مسـمر) عمـل نـوع مـن المـد الصناعـي عـلى امـرأة بـأن أطعمهـا الحديـد ثـم ثبـت المغناطيـس عـلى جسـدها، وقـد شـعرت المـرأة بتحسـن حالتهـا النفسـية بعـد ذلـك.. هـل تتذكـر شـيئًا مشـابهًا؟

هـل تعـرف كيـف يبـدو (مسـمر)؟.. إنـه بديـن لـه خصلـة شـعر تنحـدر عـلى جبينـه..

شـعرت بقشـعريرة في ظهـري وأنـا أقـرأ هـذه البيانـات. في النهايـة هرعـت إلى الهاتـف وطلبـت (عزمـي) الـذي أعـرف أنـه كان في تلـك الجلسـة الـتي لـم أحضرهـا..

ـ «(عزمـي).. مـاذا تـم في تلـك الجلسـة الـتي دعيـت لهـا منـذ أسـبوعين؟».

فكر حينًا ثم قال:

ـــ «لا أذكـر التفاصيـل.. كان د. (ممـدوح) هنـاك وقـد اسـتدعى روح نصـاب ألمـاني اسـمه (مسـمار).. لا.. (مسـتر)..».

ـ «(مسمر)؟».

ـ «نعـم.. نعـم.. أنـت بـارع في تذكـر الأسـماء.. كان (ممـدوح) قـد قـرأ عنـه وأراد أن يجـرب اسـتدعاءه.. لا أعـرف أكـثر مـا حـدث لأن

المحادثة كانت بالألمانية التي يجيدها (ممدوح).. لقد أثار هذا (المسمر) هلعنا لأننا اتهمناه بأنه نصاب.. قال إنه لن يفارقنا وسوف يلازمنا للأبد.. قال إنه سيرينا إن كان نصابًا بحق.. طلبنا من الروح الانصراف فلم تعط أية علامة!».

الآن بدأت علامات الاستفهام تتكاثر.. القصة توشك على أن تكتمل فصولها وتصير مفهومة..

مفهومة لكني لا ابتلعها على الإطلاق!..

هكذا قررت أن أزور (ممدوح) في اليوم التالي..

فتح لي الباب وبالفعل كان شكله قد تغير جدًا.. جلست شاعرًا بالحرج ولم أنس أن ألاحظ تلك الصورة الكبيرة المعلقة في الصالة.. صورة وجه رأيته في مقال المغناطيسية الحيوانية...

سألني عن ظهري فقلت إنه بخير.. ثم قررت أن أبدأ :

ـ «من أين جاءتك أفكار المغناطيسية هذه؟».

ـ «قلت لك إنني لا أدري..».

ـ «هل يذكرك هذا بأبحاث (مسمر)؟».

نظر لي للحظة.. ثم بدأ يضحك.. يضحك.. يهتز وتتسع عيناه أكثر..

هنا قررت أن أهجم:

ـ «كان (مسمر) مخبولاً.. وقد قيل إنه سرق رسالة الماجستير التي قدمها عن علاقة حركة الأفلاك بنفسية الإنسان..».

نظر لي نظرة نارية.. ثم هتف بالألمانية وبصوت خفيض:

ـ «أنا هو (مسمر) ولسوف تدفع ثمن إهانتك!».

روح (مسمر) في جسد صديقي وأنا معه وحدنا في شقته.. كم أن

هـذا يثـير البهجـة!... لا أعـرف كيـف نهضـت.. ولا كيـف جريـت إلى البـاب.. ولا كيـف رحـت أثـب درجـات السـلم إلى أسـفل..

لقد بلغت الأمور درجة لا تصدق....

عندمـا سـمع د. (مصطفـى) الطبيـب النفـسي قصـتي ضحـك كثـيرًا جـدًا.. وقـال لي:

ـ «كل هـذا هـو الإيحـاء.. إن تجربـة تحضـير الأرواح تحـدث هـزة نفسـية كمـا قـال (يانـج)، وهـذه الهـزة كشـفت عـن العصـاب الكامـن في داخلـه..».

ـ «هل يضايقك أن تتكلم العربية؟..».

ـ «أنا افعل ذلك».

ـ «بل تتكلم الفرويدية..».

قال في صبر:

ـ «ليكـن.. هـذا الضغـط العصـبي أدى إلى أن يعتقـد أن روح (مسـمر) حلـت بـه فعـلاً.. ولا تنـس أن المصابـين بالعصـاب يملكـون طاقـة نفسـية هائلـة مما يسـمح لهـم بالتأثـير في الآخريـن.. أغلب المشـعوذين الذيـن يخدعـون النـاس فيهـم شيء مـن الخبـال.. هكـذا يعتقـد كل إنسـان لمسـه (ممـدوح) أنـه شـفي..».

ـ «والحل؟».

ـ «هاته لي – لو استطعت - ولسوف أحاول علاجه..».

قلت وأنا أنهض وأتمطى:

ـ «عـلى الأقـل كان الإيحـاء ذا نفـع في حالـتي.. لقـد شـفي ظهـري تمامًـا.. قـل مـا تريـد عـن المغناطيسـية الحيوانيـة، لكـني أؤكـد لـك أنـني.... أووووووو..».

ـ «ما بك؟».

قلت وانا ارتمي على المقعد:

ـ «أنـا أسـحب كل مـا قلتـه.. فقـط ابحـث لي في صيدليتـك عـن مسـكن قـوي وعـن دهـان لآلام الظهـر.. بسرعـة وحيـاة والـدك!».

ت. د. م

عندما كنت في لندن، في تلك الفترة الثرية التي قضيتها مع د. (جيمس ماتيسون) ومع جمعية البحوث الروحانية البريطانية، مررت بتجارب عديدة هي التي دفعتني إلى أن أكتب هذه الأوراق.. لو لم تدون ما رأيت وسمعت وعرفت لما شعر بك أحد، ولما عرف أحد أنك كنت هنا.. ما قيمة سقراط لو لم يدون أفلاطون محادثاته؟.. هل كنا سنعرف أن هذا الرجل مشى يومًا على تراب أثينا؟..

أنا لست سقراط.. لكني أكره ألا يعرف أحد أنني كنت هنا وأنني عشت ردحًا من الزمن، ولا أنني عرفت الكثير من الأمور المثيرة..

كان لقائي الأول مع أحد العائدين من الموت في المستشفى الملكي المجاني في (إدنبره).. اصطحبني د. (جيمس ماتيسون) إلى هناك بسيارته الصغيرة التي تتحرك بمعجزة، ومشينا في ممر طويل إلى أن بلغنا الغرفة رقم (٢٠٧)..

غرفة جميلة هي يغمرها ضوء الشمس وهناك مزهرية بها أزهار طازجة على منضدة.. فوق الفراش صليب كبير عند رأس المريضة...

في الفراش نفسه تجلس مسز (إلين مكالستر).. امرأة في الأربعين من عمرها على قدر من الجمال والوقار، حتى وإن كانت مريضة.. كانت تكلمنا وهي تلتهم إفطارها وأسلاك الأقطاب تبرز من تحت قميص نومها.. والشاشة جوار الفراش لا تكف عن تسجيل نبضات ذلك القلب الذي قرر أن يكف عن العمل منذ يومين..

وضع د. (ماتيسون) ما جلبه من أزهار جوار الفراش، وأخرج

مفكـرة وقلمًـا، ثـم نظـر لهـا ورفـع حاجبيـه بمـا معنـاه (تكلمـي)..
قالت بلكنتها الأسكتلندية المضحكة نوعًا:
ـ «طلبـت أن أقابلك..عرفـت أنـك الوحيـد الـذي يفهـم مـا أحكيـه بينمـا سيسـخر الآخـرون مـني..».
ابتسم ولم يتكلم فأردفت وهي تدس ملعقة (الجيلي) في فمها:
ـ «كانـت هنـاك تلـك الاضطرابـات في النبـض تـأتي وتـروح.. اعتـدت هـذا.. إنـني مدخنـة ,أشرب جالونـات مـن القهـوة وعمـلي لا يخلـو مـن توتـر.. إنـني سـكرتيرة تحريـر في صحيفـة، وهـذه المهنـة هـي التوتـر ذاتـه.. أكثرنـا يمـوت بنوبـات قلبيـة عـلى كل حـال..
كنـت أقـف في المطبـخ أعـد لنفسي بعـض القهـوة، وزوجـي في قاعـة الجلـوس.. لا أدري مـا حـدث، لكـني قلـت لنفـسي إنـني أفرطـت في التدخـين.. إن ضربـات قلـبي غـير منتظمـة.. غـير منتظمـة عـلى الإطـلاق... ثـم لـم اسـتكمل الخاطرة لأني سـقطت في عالـم الظلام....
فيمـا بعـد عرفـت أن زوجـي سـمع صـوت الارتطـام فهـرع إلى المطبـخ ليجـدني عـلى الأرض وقـد غطـت الرغـوة شـفتي.. اتصـل بالإسـعاف كالملسـوع.. وسرعـان مـا جـاء هـؤلاء ليجـدوا أن قلـبي قـد توقـف.. اضطـروا لإجـراء عمليـة إنعـاش قلـبي تنفـسي عـلى أرض المطبـخ... ثـم حملـوني حمـلاً إلى السـيارة..
في المستشـفى توقـف قلـبي مـن جديـد فاضطـروا إلى توجيـه صدمـات كهربيـة لـه.. لـم أدر بـشيء مـن هـذا.. لكـني شـعرت بـشيء غريـب..
كنـت أرتفـع.. أرتفـع في سـماء الغرفـة... أسـمع أزيـزًا في أذني وأشـعر براحـة نفسـية غـير مسـبوقة.. أنـا أرى جسـدي.. أراني راقـدة عـلى محفـة والأطبـاء محتشـدين حـولي وهـم يضعـون تلـك الأقطـاب عـلى صـدري.. بـوم!... أنتفـض ويرتفـع رأسي ثـم يهـوى مـن جديـد.. مـن

الغريب أن هذا بدا باعثًا على التسلية لي..

كان هناك ظلام.. ثم رأيت ذلك النفق الطويل كأنفاق القطارات.. في نهايته كان نور ساطع يناديني.. شعرت أنني أسبح فيه.. أرى وجوهًا لم أرها منذ دهر.. ثمة رجال ينظرون لي باسمين..

فجأة شعرت أنني أعود إلى جسدي.. فجأة شعرت بأن ذلك الشعور اللذيذ يزول، وهأنذا على المحفة من جديد لكني أفتح عيني وأسعل.. أسعل...

قال أحدهم: لقد عادت..! وسرعان ما كانوا يضخون محلولاً ما في عروقي وينقلونني إلى العناية المركزة..»

ثم قالت في اعتزاز وهي ترتجف:

ـ «لقد ذهبت إلى هناك وعدت.. أنا محظوظة.. منذ هذه اللحظة لن أخاف الموت.. سوف أنتظر العودة إلى ذلك النفق الطويل الجميل...».

ربت الرحل على كتفها وقال كلامًا كثيرًا عن أنه يرى هذه تجربة مثيرة، ولكم يود لو مارسها.. لكنه أكد لها أصالة ما عاشته..

خرج من المستشفى بخطواته العجول، فرحت أركض لاهثًا لألحق به.. وسألته:

ـ «ما كان معنى هذا بالله عليك؟».

قال وهو مستمر في السير الحثيث:

ـ «إنها تحكي نموذجًا كلاسيكيًا لحالة NDE.. أي (تجربة الدنو من الموت)... هذا هو ما يقوله الجميع وإن لم يكن بهذا الوضوح.. هناك لمسة من تجربة أخرى هي (تجربة الخروج من الجسد)..».

على منضدة الإفطار في مطعم اسكتلندي صغير راح يشرح لي:

ـ «في ١٢٪ من المرضى الذين يمرون بحالة توقف للقلب، تكون

هنـاك هـذه الذكـرى المبهمـة عـن الخـروج مـن الجسـد..».

ثم راح يعد على أصابعه:

ـ «هنـاك صـوت الأزيـز... هنـاك ذلـك الشـعور العـام بالـسرور والسلام.. هناك النفق.. دائمًا النفق الـذي يوجـد الضوء في آخره.. ضـوء ساطع يعمي العيـون.. التحليـق... ثـم يعـود المريـض للحيـاة فيمـر بنزعـة صوفيـة.. يشـعر بحقيقـة العالـم الآخـر والاقـتراب مـن خالقـه.. عـلى أنـه بعـد فـترة يمـر بحـالات اكتئـاب قـد تنتهـي بالانتحـار..».

ـ «إذن فتجربة الموت بهيجة حقًا لو كان وصفهم دقيقًا..».

ـ «ليـس تمامًـا.. هنـاك مـن حكـوا عـن ظـلام وعمليـات تعذيـب عـلى أيـدي شـياطين أو أقـزام.. يـرى المتدينـون إن هـذا هـو الدليـل عـلى وجـود جنـة ونـار... أهـم عالـم درس هـذه الظواهـر اسـمه (ريمـون مـودي) وهـو يـرى أن هـذه التجـارب قـد حلـت السـؤال الأبـدي الـذي عـذب البـشر: مـاذا يوجـد هنـاك؟».

قلت له في حذر:

ـ «أنـا أؤمـن بالجنـة والنـار طبعًـا، لكـن هـل هـذه الخـبرات دليـل عـلى وجودهما فعـلاً؟..»·

قال باسمًا:

ـ «هـذا هـو بيـت القصيـد.. لـو كان هـؤلاء واهمـين فهـذا لا يمـس الديـن في شيء.. فقـط يمـس مفهـوم الـ NDE».

ـ «هل تؤمن أنت بهذا الـ NDE؟».

ـ «أنـا متعـادل كما قلـت لـك ألـف مـرة.. أنـا أجمـع الأدلـة وأفندهـا.. هنـاك علمـاء كثـيرون لا يعتقـدون بصحـة هـذه الظاهـرة.. لقـد وصـف كثـيرون ذات الـرؤى أثنـاء جراحـات المـخ والأعصـاب لـدى

تنبيه الفص الصدغي.. ووصفوها عندما ينقص الدم الواصل إلى الدماغ.. هناك عقارات تسبب ذات الرؤى وأهمها (الكيتامين) كما يقول د. (يانسن) في أبحاثه.. كل جندي أمريكي تم تخديره بمادة (كيتامين) أثناء حرب فيتنام مر بتجربة مماثلة.. هناك عالم اسمه (بلاكمور) قال إن سبب هذا الشعور العارم بالراحة والسلام هو إفراز مادة (الاندورفين) في المخ.. هذه المادة مخدرة وتسبب حالة عامة من الانبساط.. والمخ البشري يحتفظ بها للحظات النهاية الأليمة كي يوفر على صاحبه عذابًا لا نفع منه.. كثيرون اتهموا مادة DMT التي يفرزها الجسم الصنوبري في المخ بأنها مسئولة عن هذه الرؤى..».

ثم أضاف وهو يفتح باب سيارته:

ـ «إن نسبة ١٢٪ ليست نسبة عالية إذا خيل لك هذا... لو كان هؤلاء فعلاً يقتربون من العالم الآخر، فلماذا لا يمر الجميع بذات الظروف؟... وإذا كانت هذه مجرد ظاهرة كيميائية فلماذا لم يرها كل من عانى توقف القلب للحظات؟».

ثم أدار المحرك وقال في شيء من الخبث:

ـ «على أن في قصة هذه السيدة شيئًا مريبًا.. إنها رأت كل ما رآه من مروا بالتجربة بالجملة.. لا يحكي كل الناس ذات التفاصيل مجتمعة، لكنها رأت كل شيء.. هذا يعطي انطباعًا بأنها لا تحكي ما رأته لكنها تحكي عشرات الخبرات السابقة التي قرأت عنها..».

ـ «هل تعني أنها تكذب؟».

قال باسمًا:

ـ «المخ البشري معقد أكثر مما تتصور يا صديقي.. هناك ما يدعى (الذاكرة الزائفة).. ربما هي لم تر شيئًا لكنها الآن تعتقد صادقة إنها رأت كل هذا.. لقد تكفل عقلها بتلفيق ملف كامل

لخبرات لا وجود لها وهي تثق أن هذا الملف حقيقي.. ثم لا تنس حقيقة أخرى..».

وأردف:

ـ «لم يستخدم الأطباء أية أقطاب كهربية على قلبها كما رأت أثناء خروجها من الجسد!... لقد استعادت وعيها قبل أن يفعلوا هذا!».

كنت أنا غارقًا في أفكاري الخاصة.. NDE لو ترجمت لصارت ت. د. م (تجربة الدنو من الموت).. كانت لي جدة لاقت ربها منذ أعوام، وكنت انا أقف جوار فراشها لحظة الاحتضار.. سمعتها تقول: «أغلقوا النوافذ.. إن هذا النور يعميني... ثم بدأت تلقي تحياتها على سيدنا الخضر وعلى زوجها المتوفى منذ أعوام.. بالنسبة لنساء الأسرة كان هذا دليلاً لا يدحض على ان الجدة في طريقها إلى الجنة.. ماذا لو سمعن عن رأي د. (بلاكمور) في الأمر؟.. هذه ليست سوى (ت. د. م) سببها نقص وصول الأكسجين إلى مخ الجدة؟..

كنا الآن ننهب الأرض نهبًا وسط أراض ريفية، وكان د. (ماتيسون) لا يكف عن الثرثرة....

فجأة سمعته يهتف:

ـ «لكنها لا تعمل!».

ما هي التي لا تعمل؟

نظرت أول ما نظرت إلى اليمين حيث جلس خلف المقود.. اليمين؟.. نعم.. لا تنس أننا في بريطانيا..كان يدوس بقدمه على الفرملة في جنون ممارسًا ما يسميه الميكانيكية عندنا (مكاركة)... رفعت عيني إلى الطريق لأرى تلك الشاحنة المرعبة قادمة نحونا

كالمـوت وجهًـا لوجـه وسـائقها لا يكـف عـن إطـلاق سرينتـه..

بالطبع لم يكن الوقت كافيًا لشيء..

أدار جـاري المقـود بسرعـة فانحـدرت السـيارة إلى جانـب الطريـق وراحـت تتدحـرج وسـط الأشـجار.. راح يلـف المقـود بسرعـة جنونيـة وهـذا زاد الأمـر سـوءًا..

هنـا تـأتي اللحظـة الـتي تـرى فيهـا أن السـماء صـارت تحتـك وأنـك بـلا وزن تقريبًـا... دورة.. دورتـان.. ثـم الارتطـام الأخـير بـالأرض.. رائحـة البنزيـن وانـت تتـدلى مـن حـزام الأمـان ورأسـك فـوق سـقف العربـة.. لقـد انقلبـت السـيارة الصغـيرة كدميـة لعـب بهـا طفـل عابـث..

أما الشاحنة فلا أثر لها.. كأنها كانت في كابوس....

فككـت الحـزام لأسـقط عـلى رأسي، ثـم عالجـت البـاب لأخـرج منـه وزحفـت عـلى ركبـتي بضعـة أمتـار.. أنـا سـليم.. كل شيء يؤلمـني لكنـني سـليم..

درت حـول السـيارة لأعالـج البـاب الآخـر حتى أخرجـت د. (ماتيسـون).. لا تخافـوا.. لـم يمـت ولـن يمـوت لكـني لـم أعـرف هـذا في تلـك اللحظـات..

كان مغمـض العينـين والـدم يغطـي وجهـه.. وتلمسـت نبضـه الواهـن فأدركـت أن الأمـر خطـر فعـلاً... ثمـة رجـل ضخـم يقـف عـلى بعـد أمتـار منـا وقـد بـدت عليـه الحـيرة.. صحـت فيـه, وأنـا أريـح رأس الدكتـور عـلى الـكلأ:

ـ «أطلب الإسعاف فورًا..!».

هـرع ليجلـب النجـدة بينمـا رحـت أنظـف وجـه الدكتـور (ماتيسـون) بمنديـلي.. لابـد أنـني سـليم مـا دمـت أفعـل هـذا كلـه..

هنا فتح عينه وبصوت واهن قال:

ـ «لا أراك!.. كل هـذا النـور السـاطع!... هـل هنـاك كشـاف مسـلط عـلى وجهـي؟..»

ثم بلل شفته بلسانه وهمس:

ـ «النفق.. إنني أطفو متجهًا لنهاية النفق!».

ومـن جديـد غـاب عـن الوجـود.. قلـت في سري: مـا هـي الحقيقـة؟.. هـل أنـت بالفعـل يـا دكتـور عـلى أعتـاب الأبديـة، تمـارس حرفيًـا الـ (ت. د. م) وتقـول مـا قالـه الآخـرون؟

أم أنـت ببسـاطة تعـاني حالـة مـن نقـص الـدم الواصـل إلى الدمـاغ؟.. تعـاني أعـراض تنبيـه الفـص الصدغـي، مـع الكثـير مـن مـادة الإندورفـين الـتي تعطيـك هـذا الشـعور الزائـف بالسـلام؟.. ربما أنـت تتخيـل.. ربمـا تـرددت كلمـات المـرأة الـتي سـمعناها منـذ نصـف سـاعة في ذاكرتـك.. ربمـا هـي خبراتـك تخـرج للسـطح الآن.. لكـن هـل تسـامحني لـو لـم أصدقـك؟.. أنـت مـن بـذر بـذور الشـك في نفـسي تجـاه تلـك القصـص.. هـل نسـيت هـذا؟... أنـت اعطيتـني النصـل الـذي سـيدميك كثـيرًا فيمـا بعـد..

لا أعـرف الإجابـة.. المهـم أن أحافـظ عليـك.. أن أبقيـك حيًـا إلى أن تصـل سـيارة الإسـعاف..

مـن بعيـد اسـمع السرينـة المميـزة، وأقـول لنفـسي إنـه سـيعيش... سـيعيش..

يومًـا مـا سـأواجه انـا تجربـتي الخاصـة مـع (ت. د. م)، ولسـوف أعـرف وقتهـا الحقيقـة.. لكـن مـا يضايقـني هـو أنـني لـن أعـرف أنـني عرفـت، ولـن أعـود إلى عالـم الأحيـاء لأقـص عليهـم مـا رأيتـه بنفـسي.. حـتى لـو عـدت فلـن يصدقـوني...

المهـم الآن أن ننقـذك يـا دكتـور.. ولنـترك الأسـئلة الميتافيزيقيـة إلى

وقتهـا المناسـب.

الفهرس

قبل أن نفتح الصندوق 5
أسرة لطيفة 7
الشمعة والقناع 17
دقات 27
إنها تأتي ليلاً 37
سأبكى كثيراً 47
المكحلة 57
أوتوستوب 63
هدية الأرواح 73
العشاء 83
حكايات الظلال 91
تأثير الفراشة 101
كتاب ديزان 109
الموتى لا ينهضون 117
جاثوم 125
استبصار 133
لماذا فعل ذلك؟ 141
فتيش 149
صرخات في الظلام 157
ماذا يحدث في شقتنا؟ 165
الرقص بين الأحجار 173
ساحر الماء 183

غير المدعو 193
حكايات لا يربطها شيء 201
مسمرة! 211
ت.د.م 221

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235688678- 0235611772**

هاتف محمول: **01001872290/ 01005248794 / 01000405450**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpublishing

+KayanPublishing

KayanPublishing